



عَبْقَرِيَّةُ خَالِد

عباس محمد العفاد

« طبعة جديدة منقحة ومراجعة »



المسئول: عبقرية خالد.

المؤلف: عباس محمود العقاد .

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشر: الطبعة الثامنة - يونيو 2005 م .

رقم الإيداع: 2003/ 20999

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-2558-7

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - الهندسة - الجيزة
ت: 0466434 (02) - 3472804 (03) - فاكس: 3462370 (02) - ص.ب: 21 إسماعية
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publibking@nahdetmisr.com

الطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكتروني للطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل حسنى - الفيحة -
القاهرة - ص.ب: 96 الفيحة - القاهرة.
ت: 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903393 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 8000722622
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق المروية (رسمي)
ت: 1230169 (03)

مركز التوزيع بالقاهرة: 47 شارع عبد السلام - عارف
ت: 2259875 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



أسسه أسيد محمد إبراهيم سنة 1938

احصل على في من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
ولتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أى جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

البادية والحرب

كان قتيبة بن مسلم من نوابغ القادة المعدودين الذين أنجبتهم الأمة العربية في صدر الإسلام .

وكان يلي خراسان للوك الدولة الأموية . فخرجت بها خارجة أهمته ، فقليل له : «ما يهملك منهم ؟ ... وجه إليهم وكيع بن أبي مسعود فإنه يكفيكهم» . فأبى ، وقال : «لا ... إن وكيعاً رجل به كبر يحتقر أعداءه ، ومن كان هكذا قلت مبالاته بعدوه فلم يحترس منه فيجد علوه منه غرة ...» .

وهذه كلمة من كلمات القائد العربي قتيبة عن كثير :

تنبئ عن ملكة القيادة فيه ، وتنبئ عن ملكة السيادة في الأمة التي نشأ منها واستطاعت بها أن تسوس الأمم في الحرب والسلم ، سياسة للنجاح وللبقاء ...

فالحق أن شروط القيادة على وفرتها وعظم التبعة فيها جميعاً ، ليس يوجد بينها ما هو ألزم للقائد من القدرة على سبر قوته وسبر قوة خصمه . وكل ما عدا ذلك فإنما هو ترتيب لما يصنعه بقوته وما يتوقع من القوة التي ينازلها أن تصنعه ، أو هو تنظيم للأهبة والحليفة بين الفريقين في المكان الذي يتلاقيان فيه ...

وقد كانت لهزيمة الدول أمام العرب أسباب كثيرة : منها ضعف العقيدة واختلال النظام ونقص القيادة ، وانحلال الترف وتفرق الآراء ، ولكن البلاء الأكبر إنما حاق بتلك الدول من آفة الغرور الباطل والاستخفاف بالخصم المقاتل . فانتصر العرب ؛ لأنهم ظنوا لا ينتصرون ولا يعتزمون الانتصار ، وكان الاستخفاف والإهمال شراً على تلك الدول المتصلفة من الاستهوال والفرع ، بل كان الاستخفاف والإهمال سبباً لانقلابهم آخر الأمر إلى استهوال يخذل المفاصل وفزع يفت في الأعضاء ، فاجتمعت عليهم البليتان من سوء التقدير ، ولم تنفعهم قلة المبالاة بالعدو ولا فرط المبالاة به بعد الأوان ...

كانت دولة الفرس لا تنظر إلى البادية العربية إلا نظرة السيد المبجل إلى الغوغاء المهازيل الذين يحتاجون إمّا إلى العطاء وإمّا إلى التأديب ، وبلغ من طغيان كسرى حين جاءته الدعوة المحمدية أن بعث إلى النبی العربی بشرزمة من الجند تأتيه به فى الأصفاة . . . وبلغ من طغيان جنده عامة وخاصة أنهم كانوا يأنفون أن يقرنهم أحد بالعرب فى معرض من المعارض أو غرض من الأغراض ولو للحيلة والمكيطة . فاتفق فى بعض وقعات العراق أن زعيمًا عربيًا من جبيرة الفرس أقبل على القائد الفارسى مهران بن بهرام : ليمده بأبناء قبيلته ويعينه على خالد بن الوليد وجنده . فقال له : «إن العرب أعلم بقتال العرب ، فدعنا وخالدا» ، فجاراه القائد الفارسى سجاملة وخدعة : ليستخلص منه أقصى العون والنجدة ، وقال له : «صدقت لعمري ! لأنتم أعلم بقتال العرب وأنتم مثلنا فى قتال العجم . . . فغضب أتباعه لمجاملته هؤلاء القوم الذين يعينونهم ويقاتلون فى صفوفهم ، وسألوه : «كيف تقول ما قلت لهذا الكلب ؟» . . . فلم يهدأوا عنه حتى اعتذر لهم بأنه يخدع القوم ويغرر بهم ، وقال لهم : «دعونى ، فإننى لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم . . . فإن كانت لهم على خالد فهى لكم . وإن كانت الأخرى لم يبلغوكم - أى المسلمون - حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوىاء وهم مضعفون . . .» .

وسخفوا فى طلائع وقعة «أليس» فلم يحفلوا بجيش خالد الزاحف إليهم وتنادوا إلى طعامهم الذى هبأوه ، ولم يكلفوا أنفسهم قبل ذلك مشقة استطلاع الطريق . . . ليأمنوا البغثة قبل تهية الطعام .

أما الروم ، فكان لهم غرور كهذا الغرور فى مواجهة البادية العربية ، وكان قصارى ما حذروه فى أول الأمر أن يغير العرب على تخومهم لينهبوا ويسلبوا ثم يفررا بسلبهم إلى الصحراء . . . فإن أوغلوا فى بلاد الدولة الرومانية ، فهم مأخوذون بالهبات والوعود أو مأخوذون بالكثرة المستعدة لا يقوم لها جند قليل يوشك أن يتجرد من السلاح بالقياس إليهم ، فلما جد الجدد وعرفت الدولة الرومانية من تقاتل من أولئك الجند العزل على زعمها إذا هى تنقلب من الغفلة الشديدة إلى الفزع الشديد . . .

ويبدو لنا أن المؤرخين المحدثين لم يبرءوا كل البرء من هذا الخطأ القديم .

فلا يزال الأكثرون منهم يستعظمون على العرب أن يغلبوا الفرس والروم ،

ويحسبون هذه الغلبة شيئاً قد حصل وكان ينبغي ألا يحصل ، لولا أنها غلبة لا يقاس عليها ومصادفة لا تقبل الشكر . .

وبعضهم يلتمس العلة ، فيقول : « إنما هي وهن الدولتين ومصائبهما بالخور والانحلال » ، أو يلتمس العلة ، فيقول : « إنها عقيدة المسلمين القوية واقتدار الفرس والروم إلى مثل هذه العقيدة » .

وكل أولئك تعليل ناقص من كل نواحيه . . .

فالمصادفة لا محل لها في حوادث الرجود ، ولا تطرد في قتال بعد قتال ، من جوف الصحراء إلى عمران العراق والشام ومصر ومشارك الأرض ومغاربها بين إفريقية والصين . وانحلال دولة من الدول قد يغنيها ويمجزها عن النصر ، ولكنه لا يقيم دولة أخرى لم تتجمع لها أسباب النهوض والتمكين .

والعقيدة قوة لا غناء عنها بقوة أخرى لمن يفقدها ، ولكنها هي وحدها لا تغني عن الخبرة والاستعداد ، ولا تفسر لنا اختلاف النجاح باختلاف الخطط والقواد . وقد كان المسلمون على عقيدتهم الراسخة يوم لقائهم هوازن وشيعتها بوادي حنين ، فأوشكوا أن ينهزموا لا اعتدادهم بكثرتهم وقلة مبالاتهم بعلوهم ، وأوشكت عاقبة الاستخفاف هنا أن تصيب المسلمين كما أصابت الفرس والروم ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : ﴿ ... وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَوَّقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَارِجَتِمْ وَلَئِنَّكُمْ فُتِرْتُمْ ﴾ [التوبة ٢٥] .

فمهما يهرب هؤلاء المؤرخون من الحقيقة فلا محيص لهم من الرجوع إليها لفهم الغلبة الإسلامية أو فهم الهزيمة الفارسية والرومانية ، وهذه الحقيقة هي أن المسلمين كانوا أيضاً أخبر بالفنون العسكرية من أهل فارس والروم وكانوا أقدر على تنفيذ الخطط العسكرية التي تنفعهم من قواد تينك الدولتين ، وإن البادية العربية سواء في عصور الجاهلية أو صدر الإسلام لم تكن من الجهل بفن الحرب بتلك الحالة التي توهمها المؤرخون الأوربيون ، بل معظم المؤرخين عامة ولا نحاشي^(١) منهم العرب والمسلمين . . .



(١) نحاشي : أي نستثنى .

فالصورة الشائعة في خيال أكثر القارئ عن البادية أن حروب الصحراء لم تكن إلا مشاجرات بالسيوف والرماح أو بالقسي والمقاليع ، لا ترجع إلى نظام ولا تنهج على خطة ولا يخلص منها فن يتعلمه المتعلم ، ويتلقاه اللاحق عن السابق ، وقوام أمرها شراذم من السطة^(١) والمغيرين سرعان ما تقبل حتى تدبر ، وقصارى ما تعرفه من أساليب القتال أن تفر بعد الكر أو تكرر بعد الفرار .

وهذه صورة مضللة لمن يسترشد بها في اختبار قدرة البادية على الحروب الكبيرة والمناوشات الصغيرة .

فمن الخطأ «أولاً» أن تستخف بالرياضة التي يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب الأجيال على أمثال هذه المناوشات ، أو على ما نسميه اليوم حرب العصابات ، حتى لو صح أنها كانت هي كل ما يعرفه أهل الصحراء من فنون القتال . فالذى لا ريب فيه أن الصحراء قد تعاقبت فيها الأجيال على حروب العصابات التي تشترك فيها القبائل أبداً بين عادية ومعدو عليها ، وأن البدوى قد عاش زمناً كما جاء في التوراة «يده على كل إنسان ويد كل إنسان عليه» . فحصل من ذلك على ملكة مطبوعة يصح أن تسمى «حاسة الحرب» أو أهبة الميدان الخالد التي لا تفارقه في ليل ولا نهار . فلا يزال حياته في حيطة المدافع واستعداد المهاجم وبقطة القلب للنضال الذي يتعرض له بين مضطر مغتصب أو طائع مختار .

وهذه ملكة لا تحصل لأبناء المدن الذين يندبون للقتال بين أونة وأخرى ، ويتدربون عليه كأنه عمل يؤدي في مكان العمل ، ثم يطرح عن العائق في سائر الأوقات .

ومن الرياضة التي يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب حروب العصابات أنهم يتعودون الصبر على الفرار ويملكون الجأش عند الإدبار ؛ لأن الفرار عندهم حركة من الحركات المألوفة في كل وقعة يخوضون غمارها ، وليست هزيمة تطيش باللب وتخلع الفؤاد وتوقع في روح صاحبها أنه ضيع الأمل ولم يبق له من أطوار القتال غير التسليم . فهو في حلة صالحة لاستئناف القتال إن أقبل وإن أدبر ، وسواء طمع في النصر أو لاذ بالنجاة ، وكأنه يتأخر ليتقدم في حينها أو بعد حين ، ويتحول إلى الوراء كما يتحول إلى الشمال أو اليمين ، طوعاً لأمر مقصود وجرياً في عنان ممدود ، ومن هنا تيسر لقواد العرب في الغزوات الكبيرة أن يلموا شمل الجيش

(١) السطة : الذين يرتكبون الخطر .

المنهزم فى سويغات معدودات ، وأن يتداركوا الخذلان من حيث يعسر على الجيوش المنظمة أن تتداركه قبل زمن طويل .

ولن تخلو العصابات الصغيرة - مع طول الرانة - من علم بأصول الاستطلاع والمباغلة والتبصير والمخاتلة وحسبان الحساب للرجعة والإفلات ، وهى على بساطتها أصول لا ندحة عنها فى أكبر الميادين وأصغرها على السواء .

هذا إن صح أن حروب العصابات هى كل ما حذفه عرب البادية من فنون القتال فى تاريخهم القديم .

وذلك غير صحيح ..

فالعرب قد عرفوا فى حروبهم التى وقعت بينهم تسير الجيوش بعشرات الألوف على اختلاف الأسلحة والأقسام ، وقبل إن جيش الغساسنة الذى حارب المنذر بن ماء السماء لم يكن يقل عن أربعين ألفاً بين راجل وفارس ، وكان فى الجيش معاً راكبو الخيل ، وراكبو الإبل ، وحاملو السيوف ، وحاملو الرماح ، والضاريون بالسهام والنبال ، والضاريون بالخراب والحجارة .



ولقد كان الغساسنة والمناذرة أصحاب ملك قائم لا يعسر عليهم تسير هذه الألوف المؤلفة إلى الميادين القريبة ، ولكن القبائل التى لم تكن على شىء من هذا الملك كانت تسوق الألوف للقاء أمثالها وتستعد لها بالجيوش التى تساوى فى عددها بعض جيوش القتال فى عصرنا الحديث ، فاستعدت مذحج لقتال عيم يوم الكلاب الثانى بثمانية آلاف ، وجرى بين الفريقين من حيل الاستطلاع والمراوغة والهجوم والمطاردة ما هو محتول لكل عناصر الكفاح الأولى فى كل زمان .

على أن البادية لم يفتها قط علم الحرب ، كما علمته دول الحضارة فى عصور الجاهلية العربية ، فكانت غسان على مقربة من الروم تدخل معهم فى الفرق المتطوعة على حالى الدفاع والهجوم ، وكان ملوك الحيرة على مقربة من الفرس يخدمهم أحياناً كتببتان من الجيش الفارسى هما الشهباء والدوسر أو «الدوشير» بمعنى الأسدین شعار الدولة الفارسية ، وكان جند الشهباء من أبناء فارس وجند الدوسر من أبناء القبائل العربية ، وليس يحتاج العربى إلى أكثر من هذه المقاربة وهذه القدوة لالتقاط الفنون التى يحتاج إليها فى تعبئة الجيوش وللفطنة إلى المخاوف التى يتقيها فى مواجهة التعبئة النظامية من جانب دول الحضارة .

وقد تبين هذا فعلاً في وقعة ذي قار التي تغلب فيها العرب على الدولة الفارسية ، فإن العرب كانوا في تلك الوقعة أبرع قيادة وأخبر بفتون الزحف والتعبئة من قادة الجيوش النظامية ، لم يغفلوا قط عن حيلة واجبة أو حيلة نافعة قبل اشتباكهم بالجيوش الفارسية : بعثوا الطلائع وبثوا العيون وفسموا جموعهم إلى ميمنة تولاهما بنو عجل ، وميسرة تولاهما بنو شيبان وقلب تولته بطون من بكر عليهم رئيسهم القدير هاشم بن مسعود ، وأنفقوا إلى قبائل العرب الذين في جيش الفرس رسلاً يشيرون نخوتهم ويغرونهم بالتخلي عن أصحابهم حين يجد الجند ويلتحم الجيشان ، فوافقتهم إياد وبرت بوعدهما فولت من الميدان في أخرج الأوقات . . .



ولما أصبح يوم الوقعة الحاسمة أقبل الفرس ومعهم الأفيال والفرق المدرعة ، فلم يرع قادة العرب ما شاهدوا من ذلك الجيش الزاخر وتلك العدة الوافية ، بل تشاوروا في أمرهم وعقدوا بينهم ما يشبه «مجلس الحرب» في اصطلاح هذه الأيام . فقال ربيعة بن غزالة السكوني : «لا تستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلككم بنشابها ، ولكن تكدسوا كراديس فإذا أقبلوا على كردوس شد الآخر» . وقال حنطة بن ثعلبة : «إن النشاب الذي مع الأعاجم يفرقكم ، فإذا أرسلوه لم يخطئكم ، فعاجلوهم اللقاء ، وابدأوهم بالشدة» . وقال يزيد بن حمار : «أكمنا لهم كميناً» ففعلوا وأكمنوه في موضع يقال له الخبيء ، وأوصوه أن يظهر حين يشند القتال بين العسكرين وتفر قبيلة إياد من صفوف الأعاجم ، فيكون فرار أنصارهم وإقبال المدد إلى خصومهم مع احتدام القتال ، ضربتين متداركتين لا يقوون بعدهما على الثبات .

ولم يغفلوا عن حمية الجند والفرسان يلهبونها للمجازفة بالحياة والأنفة من طلب النجاة ، وهو ما نسميه اليوم بالروح المعنوية ، فعمد حنطة بن ثعلبة إلى رضيعين راحلة امرأته - أي حزامها - فقطعه ، وتتبع رواحل النساء فقطع وضمنها جميعاً فسقطت على الأرض ، وصاح بقومه : «ليقاتل كل رجل منكم عن حيلته . . وراح السيافون يقطعون أقبيتهم من مناكبها لتخف أيديهم لضرب السيوف ، وتسابق الخطباء والشعراء في التلميز والتحريض فذهبوا جميعاً يرددون قول قائلهم : «المنية ولا الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره» .

وتبارز بعض الفرسان من العسكرين ، ثم التحم الفريقان وحمى الوطيس ، وظهر

الكمين فى أوانه وولت إباد ، فتبعها فريق من كسرت قلوبهم هذه الصدمة التى فوجئوا بها على غير رقة ، وأطبق الكمين على قلب الجيش ومعه كوكب الجيش العربى كله فحققت الهزيمة العاجلة على أقوى الجيشين ، وكتب النصر لأولى الفريقين به فى ميزان الفن العسكرى الذى يشمل جميع المرجحات ، ماعدا المرجح المادى دون غيره ، وهو العدد والسلاح .

إذ الحقيقة أن غلبة العرب فى يوم ذى قار إنما كانت غلبة ليقظة على الغفلة ، وللکفاية على العجز ، وللخفة على الفخامة ، وللفن الحربى الصحيح على النظم التقليدية التى لا تصرف فيها ، وللعزة المشكورة على الكبرياء المذمومة ، وكان العرب خلقاء أن ينتصروا بكل وسيلة من وسائل النصر فى الحروب القديمة والحروب الحديثة ، إلا تفوق الفرس فى بعض العدد التى لم ينفعهم تفوقهم فيها عند التحام الصفوف .

وليس فى وسع عالم من علماء الحرب فى زماننا هذا أن يأخذ عليهم خللاً فى خطتهم لم يلتفتوا إليه ، أو يخصص عليهم وجهاً من وجوه التدبير قصرُوا فيه ؛ لأن وجوه التدبير كلها فضول بعد أن تستقيم للقاتل :

(١) أهمية الاستطلاع . (٢) رسم الخطة . (٣) تنظيم الجيش فى مواقفه . (٤) تنظيم الجيش فى حركاته . (٥) إذكاء العزيمة فى نفوسه . (٦) إضعاف العزيمة فى نفوس خصومه . . وهذه كلها هى صفوة لباب الحرب فى العصر الحاضر وفى العصور الغابرة ، وفى جميع العصور إلى آخر الزمان .

ويبدو لنا أن مزىة الفرس والروم فى أنواع الأسلحة والعدد كانت مزىة مبالغاً فيها على الأقل فى ميادين الاشتباك والالتحام ، إذا صح أن لها الرجحان فى مواقف الحصار ومواقف الحرب من بعيد ؛ لأننا عرفنا من أخبار الحروب الماضية أن بعض الفرسان البواسل كانوا يترجلون ليحكموا الضرب والحركة ، وكانوا يخلمون عنهم شكتهم تبرماً بها وتخففاً من ثقلها ولا سيما فى أيام القيظ أو فى المواضع الوعرة التى تصعب فيها حركة المدرعين فى الشبكة السابغة ، وكان بعض الضباط من النبلاء يستصحبون خدماً لهم ؛ ليحملوا لهم شكتهم إلى حين الحاجة إليها ، وجاء فى كتاب فيجتيوس Végétius إنجيل الحرب عند الرومان الأقدمين أن الجنود كانوا يضيقون ذرعاً بالدرع المعدنية ويستثقلونها ويودون لو يطرحونها ويتاح لهم العمل بغيرها ، ولم تكن لهم حاجة بها إلا حين يرادون على الاقتراب من مواقع السهام والنبال والحرايب الطويلة ، لأداء عمل من الأعمال .

وعندنا أن العرب قد كسبوا الطريقتين معاً بنشاطهم فى البادية واقتربهم من دول الحضارة ، وتعنى بهما طريقة العصابات وطريقة الجيوش فى إدارة الحروب .

فهم قد برعوا فى حرب العصابات بالمرانة الطويلة ، ثم اقتبسوا ما لزمهم أن يقتبسوه من فنون الحرب عند الدول الكبرى على أيامهم ، فلم يخسروا بذلك إحدى الطريقتين بل جمعوا بينهما واستفادوا بما تفيده كل منهما فى موضعها ، فأضافوا سرعة العمل فى طريقة العصابات إلى إحكام التنظيم فى طريقة الجيوش . . وكانوا يقاتلون بفنين متساندين يأخذون منهما ما يأخذون ويدعون منهما ما يدعون ، حيث كان الفرس أو الروم يتقيدون بفن واحد على التراث المحفوظ الذى لا يحسبون التجديد فيه . .

ومن المحقق أن قبائل العرب التى أقامت فى الحواضر كانت على الزمن تتلقى النصيب الأوفى من كلتا الطريقتين ، إما بالقدوة والتلقين أو بالتعليم المقصود ، ولا سيما قبائل فريش التى كانت تقيم فى عاصمة العواصم العربية من الوجهة الأدبية والثقافية ، وكانت تجمع كل ما تفرق بين أبناء الجزيرة من المزايا والمعارف والصفات ؛ لأنها أخذت نفسها بأداب الرئاسة المدنية والبدوية التى يدين بها جميع هؤلاء .

فالتاريخ الصادق يتقاضانا أن نعرف هذه الحقيقة ؛ لنعرف موقع العدل والإنصاف من حكم الزمن بين الأمم الكبيرة التى تنازعت السيادة بعد ظهور النهضة العربية .

فالنهضة العربية لم يكن لها النصر ؛ لأن الفرس والروم كانوا يستحقون الهزيمة وكفى ، بل هى قد انتصرت ؛ لأنها كانت تستحق النصر بأسبابه التى لا مصادفة فيها ولا محاباة ، ولا محل لقلته نادرة لا تقبل التكرار . . .

ولأنما كانت أسباب النصر عند العرب ناقصة ، فتمت فى أوانها فغلبوا بوسائل الغلبة جميعها .

كانوا متفرقين بغير باعث على الوحدة والنهوض ، فجاءتهم الدعوة الإسلامية تجمع شتاتهم وتبعث كرامتهم وتنطلق بهم فى سبيلهم . فتم لهم ما نقص وتهيات لهم ذرائع النصر فى شرعة الأرض والسما ، وعلم النبى عليه السلام بيوم «ذى قار» وهو يدعو العرب إلى دين التوحيد ، فرأى فيه بوادر نصر العرب على العجم ، وأيقن أن يوم تتلوه أيام ، وأنه مسمع بدعوته الأمم جميعاً عما قريب .

قريش ومخزوم



كانت قريش موئل الثقافة من أحياء خريرة كلها من حاضرة وبادية ، ومن قديم عصورها إلى حديثها

لأنها كانت وسطاً بين الحصار والدعوة ، وكانت تقيم في عاصمة الأحجار وإلى جوار الكعبة التي يحج إليها العرب ، سركاً بحرماتها ولياداً بأصنامها ويحملون إلى أسواقها أرواد الأدب والشعر والحكمة ، كما يحملون إليها أرواد القوت وسبع التجارة

وكانت قريش تسفل إلى بلاد العرب كما يتنقل العرب إليها من بلادهم ، فكان لها رحلتان في الشتاء والصيف ؛ إحداهما إلى اليمن والأحرى إلى الشام ، وكانت تصيب إلى ما تعلمه بالسماع والرواية علم المشاهدة والدرس ، حيثما برزت في طريقهما من ديار العرب أو من ديار الروم والحشة ، وسائر الأمم الأعجمية كما كانت تسميها .

والعرب من دأبهم حفظ السير ورواية الأحداث والنقيب عن الأخبار والعوايا ، لأن الاستطلاع من صيغة سكان الصحاري ، وتتوقف سلامتهم أحياناً على خبر يعمونه في أوائه ، كما تستهدف أرواحهم أحياناً للخطر العظيم من حراء طارئ داهم تعونتهم الخبطة له في حبه ، ولم يزل أساء القبائل على ولعهم بالمأثور بالسير والأخبار لغير هذه الضرورة التي يدعوهم إليها حب الأمن والسلامة . فهم عيورو على تراث الآباء والأجداد تماحراً بالنسب العريق ، وبصحيحة للعلاقات ، وبمبيراً للأقربين والبعداء . .

ومع هذا الولع ، لأصيل في الطبيعة العربية باستقصاء الخبر ، يصعب على الدهن أن يتحيل أن قريشاً تجهل شيئاً من شئون الثقافة العربية ، وهي تقيم في مثابة الخريرة كلها وتسهر على عاصمة العرب ، وتحبب أحياء هذا الوطن الكبير من شماله إلى جنوبه ومن جنوبه إلى شماله ، وتتابع العصور حقبة بعد حقبة وهي في مرقبها الذي تطل منه كل ما يعنيهها . .

فقلما عاب عليها علم عربى وصل إليه أساء الخواضر والبوادي باجتهادهم
واحبيارهم ، أو وصلوا إليه بالقنوة والسماع عن الأمم الأجنبية

وقلما حصى عنها من من فنون ثقافة العرب هي مصالح السلم والحرب ،
أو معارض السياسة والشئون الاجتماعية .

ونظر أن خطأ المؤرخين في تقدير معارف العرب السياسية لا يقل عن خطئهم
في تقدير معارفهم الحربية ، وقد كانت كما رأينا كمؤا لحصار الدولة العارسية
وتحارب قوادها وأساورتها .

وكذلك كانت لهم في السيمسة والنظم الحكومية حيرة لا يستحلف بها من ينقد
إلى بواطنها ، فهي لا تبلغ أن تكون فلسفة مشروحة ومذهب مفصلة على مثال
النظم العصرية ، ولكنها كذلك لا تزل إلى العوضى ولا إلى العريرة الهمجية التي
لا مساك لها ولا تدبير فيها .

وأوجز ما يقال عن حشرتهم بالنظم الحكومية أن العالم القديم لم يعرف قط نظاما
من أنظمة يحكم إلا كان لعرب نودح منه يوفق مصابيحهم وعقائدهم ويحرى على
عاداتهم وحالاتهم .

عرفوا نظام الإمارة التي يهرد فيها لأمر برأيه ويسائر فيها بشريعتة وفضائه
وعرفوا نظام الإمارة التي يتولى فيها الحكم نائب عن الأمير يفصل هي قصايا
الرعية بمعوة دوى الرأى منها «إلا أن يكون غزو أو قتال» ههر باسم الملك دون غيره ،
وهو النظام الذى جرى عليه أهل الخيرة زما مع منكمهم المنذر وبائيه ريد بن حماد
من بنى أيوب .

وعرفوا نظم الإمارة التي يختار أميرها من أمة أخرى كما تنتقل الأمر الأوربية
اليوم من مواطنها إلى المواطن الذى تحكمه بالمصاهرة أو بالاتفاق بين الدولتين .
وعلى هذه السة . اجتماع الكريون حين عنهم سفعهاؤهم وأكل هوبهم صعيمهم ،
فقال شيوخهم «لا نستطيع دمع ذلك إلا أن نلث على ملكا يعطيه الشاة والسعر ؛
فيأحد للصعيف من القوى ، ويرد على المظلوم من الطائم ، ولا يمكن أن يكون من
بعض قبائلنا فيأناه الآخرون ، وبكا تأتي نعا فختار لنا » فقصدوه فمدك عليهم
حجرًا أمير كيدة ، وهو أبو امرئ القيس الشاعر المشهور

وعرفوا الحمایات على أنواعها ، حماية الإمارة التي يستعين بجيش أحبي ، وحماية الإمارة التي تعتمد على جيشها ، وحماية الإمارة التي تدين لدولة واحدة ، أو تدين لمولتين . كما حدث ذلك في ملث اليمس بين الحشنة وفيرس وسادات البلاد .

وعرفوا رئاسة القبائل المنفردة ورئاسة القبائل المجتمعة إلى سب واحد ، ورئاسة الرحل الذين يرعون الإبل والشاء ، ورئاسة أهل المدر الذين يعرسون المروح والبساتين ويراولون التجارة من موسم إلى موسم . .



وكانت قريش تسمع بهذه النظم وتشاهدها في مواضعها وتقتبس منها ما هي في حاجة إليه ولكنها لم تأخذ بنظام الإمارة ؛ لأن التناقص بين بطونها يمنعها أن تتفق على ملك من إحداهما ، ولم تتعرض لنظام الحماية ؛ لأنها بنحوه من سلطان الدول الأحبية ، ولم يوافقها نظام أهل البور ولا نظام أهل المدر ؛ لأنها كانت وسطاً بين الحاضرة والبادية كما قدما ، وكانت ترمى مصالحها ومصالح الوفود التي تقبل إليها حاجة أو متحرة وليست هي من عشائرها التي تقبل منها حكم الشيخ في قبيلته على أية صفة من صفاتها

فاختارت لها نظاماً فريداً يوفق بين هذه الأطوار الاجتماعية المختلفة فيها ، ولعله أشبه النظم بنظام الشيعة بين الرومان الأقدمين ، وإما يزول الرأي الأخير فيه إلى مجلس يجتمع من رؤساء كل بعض في القبيلة . ويؤكد أن يكون أمره شورى أو على صورة الشورى التي ترعى المجاملة وإن لم يكن فيها رصا بالحقيقة . إذ حقيقة أن المرجع الأخير إلى أقوى الأقوياء من أولئك الرعماء ، كلما حرب الأمر وتشعبت الآراء . .

ومن ركائز الحكم عندهم أنهم فهموا مبادئ الرئاسة القرشية التي يدين بها حجاج البيت الحرام وفُصْد مكة من الحصر والبادية ، وهي الدين واللغة والتجارة المشتركة فحفظوا مساك الكعبة ، وجعلوا أسواقهم معرضاً للبلاعة الشعرية والخطب المروية ، ونعاهوا على صمان الثقة بالتحارة كلما عذر عادر بذمتها ، أو اعتدى معتد على حقوقها



واحتالوا على السوفيق بينهم بتقسيم المعاصر ودراسم على بطونهم ورعماهم حسب أقدارهم ومرادهم ، فانهى الشرف إلى عشرة بطون هم هاشم وأمية وبوعل وعبد الدار وأسد وبسم ومحروم وعدى وحمح وسهم ، فكانت لهاشم سفاية الخاج ، وكانت لأمية رية الحرب يحرحها عند القفال ليسلموها إلى قائدهم المختار ، وكانت لبوعل الرفادة وهي إعانة الخجاج المقطعين بالمال ، وكانت لعبد الدار السدانة ولحجابة والبراء ، وكانت لبسم أسد المشورة أو رئاسة مجلس الشورى فى مهمات الأمور ، وكانت لبسم تيم الدييات والمعادم ، وكانت لبسم محروم القبة وهي مجتمع اجيش والأعة وهي قياده الفرسان ، وكانت لبسم عدى السفاره ، وبسم جمح الأيسار أو الأرام ، ولبنى سهم الحكومة والأموال المنحصره ، وظلو يتولونها حيلاً بعد حيل إلى ظهور الإسلام

ولم يكن لهذه «الوظائف» لمورعة شأن واحد فى جميع الأوقات ولأحوال ، بل كانت تعلق وتنهط على حسب الرعيم الذى يتولاها وعلى حسب القوة التى يكون عليها بيته عند ولايته إياها ، ولكسا إذا طرأ إليها محملة وحدا منها ما كان يفصده «بجر الخاطر» والإرضاء .

وما كان يشبه الوظائف الشورية أو الإدارية الشورية فى حكوماتنا الحاضرة ، ولم تجد بينها «سلطات» فعالة حليقة أن تتعاقب مع الرمس غير ثلاث متفرقات ، وهي السلطة الروحية لهاشم وعبد الدار ، والسلطة السياسية لأمية والسلطة العسكرية لمحروم .

من بسم محروم هؤلاء ، شأ خالد بن الوليد بطن هذا الكتاب - وكانت شأته فى أعرق بيوتها وأعلاها وأشرفها وأعناها ، فلم يكن من أبوته أو عمومته إلا رئيس ابن رئيس لا تعلق مكانته مكانة أحد من رؤساء الجاهلية .

كان جده المعيرة بن عبد الله ، الذى كان الرجل من بسم محروم يؤثر أن يسب إليه فيسمى المعيرة تشرفاً بالانساب إلى الفرع الذى أناف على الأصول .

وكان أبوه الوليد بن المعيرة المنقب بالعدل والوحيد ؛ لأنه كان يكسو الكعبة وحده سنة وتكسوها قريش كلها كسوة مثلها سنة أخرى

وكان عمه هشام قائد بسم محروم فى حرب الفجار ، وبوفاته أرخت قريش كما تؤرخ بالأحداث العظام ، ولم تقم سوقاً بمكة ثلاثاً لحربها عليه . .

وكان عمه العاكه بن المعيرة من أكرم العرب في زمانه ، له بيت للصياغة بأوى
إليه من شاء بغير استئذان .

وكان عمه أبو حليفة أحد الأربعة الذين أخذوا بأطراف الرداء وحموا فيه الحجر
الأسود إلى موضعه من الكعبة ، كما أشار النسي عليه السلام قبل الدعوة
الإسلامية . . .

أما الذي قص الروع بين القبائل على هذا الشرف حين أدن التماس بيتها بالبشر
استطير فهو عم آخر من أعمامه ، وهو أبو أمية بن المغيرة الملقب بزاد الراكب كما
حاء في بعض الروايات فقد أشار عليهم أن يكونوا الحكم إلى أول داخل من باب
المسجد لينتار من بينهم من يرفع الحجر إلى مكانه ، فارتصوا مشورته وتم صواب
المشورة بتوفيق البشارة السوية قبل إهلالها على العالم بسين

ولقب أبو أمية زاد الراكب ؛ لأنه كان يكهى أصحابه في السمر مشورتهم ، فلا
يترودون بزاد .

ويظهر أن بني محروم هؤلاء كانوا في ثروتهم وعدتهم وناسهم أقوى البطون
القرشية حين يهرد كل بطن منها عن سائر بطونها . ولكنهم لم يستأثروا بالرعاية
القرشية ؛ لأنهم كانوا ينافسون بني هاشم وبني أمية وبني عبد الدار ، وهم ثلاثة
بطون قوية ينتقون في حد واحد أقرب من الحد الذي يجمعهم ببني محروم ، وهو
مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر حد فرس أجمعين

وقد تبست رحاحتهم هذه في مواقف كثيرة قبل الإسلام وبعده ، فاصطلعوا
وحدهم بساء ربع الكعبة بين الركنين الأسود واليماني ، واشتركت قريش كلها في
بناء بقية الأركان .

وكان لبني محروم وحدهم في وقعة بدر ثلاثون فرساً من مائة فرس بقريش
كلها ، ومائتا بعير وأربعة أو خمسة آلاف مثقال من الذهب غير الأرواد
والأمداد . . .

فلا حرم بعظم على موسهم أن بعدهم منافس على الشرف والعزة . وأن يحوزوا
كل ما حاروه من الرجال والأموال ثم تشيل كهتهم مرحوحة في ميراث الصحار

ولا حرم يأخذون الأمر مأخذ الأفعى والحسروانة بسهم وبين بنو عبد مناف حين
تظهر السبوة في هؤلاء ولا تظهر فيهم

وقد أخذوه هذا المأخذ حين قال أبو جهل «تأرعنا نحن وبنو عبد مناف ؛
أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحادينا على الركب
وكنا كقرسى رهاق ، قالوا ما سى يأتيه الوحي من السماء فمتى يترك هذه؟»
وإما قال أبو جهل «سو عبد مناف» ذهباً إلى اخذ الذي يجمع هاشمياً وأسة
وعبد الدار ، كأنه يستعنى في كسريائه أن ينافس هاشمياً وحدها دون أن يصعد إلى
أيها الذي يجمع بينهما وبين غيرها .

وكان الوليد بن المعيرة يرغم أنه هو أحق الناس بالسبوة والقرآن ويقول «أبزل
على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسبدها» . وفي ذلك يقول القرآن الكريم
﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الرحرف ٣١]

وبنو نعيم ، لأن أى عقبة كانت هذه لحروانة المحرومية في طريق الإسلام
إد ترجع إلى الآيات التي نزلت في رؤسائهم ووصفت ما كان من عبادهم
وعتادهم ، وما كانوا يقابلون دعوة الدين الحديدي بدعواهم هي آبائهم
وأجدادهم ، فلم ينزل في رؤساء قبيلة مثل ما نزل في رؤساء هذه القبيلة ، ولم
تتمثل منعة قوم كما تمثلت معتهم هي ردود القرآن على أقوالهم ، وهي أقوى
ردود عرفت في السور الملكية الأولى ، على ما جاء في الآيات الكثيرة من سورة
«ن» وسورة «المدثر» وسورة «الكافرون» هذا إشارات أخرى في سورة «الحجر»
و«عبس وبولى» .

وكن أوثق فحواء شيء واحد ، وهو أن بنى محروم ناءوا بأسباب المحافظة على
القديم جميعاً حين تصدى الإسلام لتسدين ذلك القديم ، فهم أول من يصاب بهذه
الدعوة الحديلة وآخر من يليها وله مبرحة عنها ، ومن ثم كانت المصاولة بين
الإسلام والحديلة في وجه من وحوها مصاولة بن محمد عليه السلام وبين خالد
بن الوليد الذي انتهى إليه شرف الرئاسة المحرومية في ذلك الأوان .

والناس يحتفلون في تمثيل بيثانهم وطبقهم عايه الاحتراف ، ويصدقون في تمثيلها عاية الصدق وهم يتفاوتون بينهم تصوت القيص والقيص ، لآ البيثة مستودع شامل يوحد فيه الحسن والردىء ويأكل كل منه على حسب مآثاه ومورده ، وحسب ما هو مستعد له وقادر عليه .

فإذا قيل سيد من سادات فريش أو مودح من مودح القرشية اجاهلية ، حار لنا أن نمثله على ألوان كثيرة لا على لون واحد ، وحار أن يكون هذا السيد حبر السادات من طبقته أو شرهم وشر أهل زمانه من جميع الطبقات

ولكننا مع هذا قد نحصر الخصال المشتركة والبعوت الوسطى التى تشيع في هؤلاء السادات غير من تجاوز الحد وبلغوا البدة في الشدود والاستثناء

فالغالب على هؤلاء السادة ، أنهم ينوارثون الثقافة العربية ويتدارسوها بالتعليم والتلقين والمعايشة ، ويتوعون أحرار الحكماء ودوى الأعلام في علاج المشكلات وتدبير الخيل ومصانعة الناس والأيام .

ويكثر فيهم أن يجمعوا الثقافة السياسية والعسكرية كما وصلت إليهم من تراث الأقدمين من عرب وعجم ، وبخاصة من كان منهم مربوطاً بعلة الحرب وقيادة القبيلة في غرواتها أو مواقف دفاعها ، كما كان خالد بن الوليد

ومن صفاتهم الشائعة هيهم حب السيطرة ، والصرامة ، وقلة الرحمة ، والاستزادة من المال ، ومتع الحياة ، والتعاضد بالوهر ، والثراء ، وجمع الختام من حيثما اجتمع بأساليبهم التى كانوا يستحيزونها ولا يتحرجون منها ، وأشيعها الرب والمالاة بالأصغار .

وقد وجد في أسرة خالد من يكثر من الإهرض بالربا ، ومن يرى في أموال الربا شيئاً من الدنس يقاربه في أحوال ويستعده في أحوال أخرى .

ومات أبوه وله على قسائن مكة وأراضها ديون تحسب بالأثوف لم يرل خالد يتقاضاها حتى أسلم وأسلم المديون ، فترك الربا من بعدها واكتفى برأس المال ، عملاً بالقرآن الكريم .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ
الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ إِن لَّمْ تَقْعَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ
اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتِغُوا فَكُورًا مِّنْ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝﴾

وكذلك وحده في أسرته من رء الكعة عن أموال الربا وما شابهها ، فقال لقومه
ربا معشر عربى . . لا تدحبوا في مائها من كسبكم ، لا طيبا ، لا يدحل فيه مهر
نعى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد .

وكلهم عربى جاهلى من طبقة السادة وأصحاب المال

فحين يقول إن حالدا كان مثال طبقته وعنوان المحافظة على مزايا هذه الطبقة يحس
بأن يتجه إلى تلك الخلائق الوسطى وتروى منه نماذجها المشتركة التى لا عدو فيها
من هنا أو هناك ، حتى يرى دلائل الريادة فى حليقة من تلك الخلائق ، بذلك إذن
خاصه التى يتميز بها بين قرائه ولا نحرجه من معهود الطبقة كلها على الإجمال

ولا يتم الكلام على تراث بنى محروم حتى نصيب إلى مزاياهم المختلفة مربة
ملحوظة لها شأنها فى كل مجتمع ، ساسى وليس شأنها بالقليل فى حياة خالد على
التخصيص

فقد كانت هذه القبيلة على كثرة الأقطاب بين رجالها مشهورة بحمال
النساء بين الحواضر العربية ، وبقيت لها هذه الشهرة إلى ما بعد قيام الدولة
العباسية ، إذ كان يقال لأبى العباس السفاح . إن المحروميات ربحين العرب .
وعملك مهن يا أمير المؤمنين ربحاة لرباحين

ولا بدع يكون هذا شأن القبيلة التى سع معها خالد بن الوليد وعمر بن أبى
ربيعة فقدما كاست الصروسية والعزل والمرأة بيثة واحدة تتعاون فيها البطولة
والشعرية والجمال .

وصفوة هذا جميعه أن خالد بن الوليد قد دخل الإسلام بأوفى نصيب من
حمية السيادة العربية فى عهد الجاهلية ، فصع للإسلام وصع الإسلام له
الأعجيب ، وكان مقياس العنصرية العربية فى عهدى متقابلين

نشأة خالد



خالد بن الوليد بن المعيرة أحد مسعة إحوة من الذكور وقبل عشرة ، بل ثلاثة عشر بين ذكور وإناث ، ومنهم أختان .

وقد تقدم إجمال القول في شرف قومه ونصيب أعمامه خاصة من الرئاسة والرعاية أما أبوه الوليد ، فقد كان الرأس بين الرؤوس والرעים بين الرعماء ، وكانت له في بعض نواحي خلقه وعقبه عات تلك المواهب التي تجلت بعد ذلك هي عصرية ولده العظيم

كأن أعنى أساء زمانه في صوف الثراء المعروفة بينهم كافة ؛ الذهب والفضة والبستين والكروم ، والتجارة والعروض ، والخدم والخورى والعبيد ، وسمى من أحل ذلك بالوحيد ، ونقب من أحل ذلك بريحانه قريش وهو الذى قال فيه القرآن الكريم من سورة المدثر .

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾
وَبَيْنَ شُهُودًا ۖ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۖ ﴾

ويروى سميان الثورى أنه كان يملك ألف ألف دينار ، ويروى اس عباس أنه كان يملك من الفضة تسعة آلاف مثقال .

ولكبريائه في حوده أو حوده في كبريائه ، كان يهوى أن توقد نار غير ناره في مى لإصعاع الصحيح

وكان يأنف نفسه في الجاهلية أن يرى سكران ، على إباحة الخمر وشيوعها في تلك الأيام ، فانتهى عنها بغير باه ، وقيل به قطع يد السارق على سبيل القصص وقد كان من أصحاب الخيلة والحوول والإقدام ، صبرية من صبراته في موقف اللبس والتردد تريبا فيه أما خالد قبل أن يعرف العلم صبريات خالد ، وذلك يوم تدعت الكعبة وأوجس لمشركون أن يهدموها ليعيدوا بناءها ، توقيرا لتلك الحرمه

التي كانوا يقاربونها بالصراعه والخشوع ويدخلها بعضهم حمزة الأقدم ولم يقربوها قط بهدم أو عدوان ، فلما رأى وسوسهم وفزعهم ناول انحول وصرت الصرية الأولى بيديه وهو يقول «اللهم لم يرع اللهم لا تريد إلا الخير» ، ومضى في أثره الهادمون غير متهيئين

ويؤخذ من بعض أحاديثه مع أبي جهل أنه كان من أفاقه الدس المعاني الكلام ومن أحفظهم للشعر والخطب في أيامه

«قام النبي ﷺ في المسجد يصلي والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، فلما فطن النبي ﷺ لاستماعه أعاد قراءة الآية ، فابطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بني محروم ، فقال : «والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإِس ولا من كلام الحر ، والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه نثر وإن أسفله لمعدن ، والله يعلم وما يعلى ثم انصرف إلى منزله»

فكانت فريش : «صأ والله الوليد ولتصبون قريش كلهم . فأوفدوا إليه أما جهل يحتال لصرفه عن الإسلام إن كان قد نوى الدحول فيه ، ومارال به حتى قام معه إلى مجلس قومه ، فقال لهم : «ترعمون أن محمداً محنون ، فهل رأيتموه يحنق قط؟ ترعمون أنه كاهن ، فهل رأيتموه تكهن قط؟ ترعمون أنه شاعر وما فيكم أحد أعلم بالشعر مني ، فهل رأيتموه سطق شعر قط؟ ترعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟

يسألهم ويحجبونه : «كلا» ، في كل سؤال .

حتى عياهم أن يردوا كلام ، فآلوه رأيته في تفسير بلاغة القرآن . فمكر ثم قال «ما هو إلا سحر يؤثر! أم رأيتموه يفرق بين قمر رجل وأهله وولده ومواليه ؟ فهو سحر وهذا هو السحر المبين » فذلك إدا يقول القرآن الكريم

﴿إِنَّهُ يَفْكَرُ وَقَدْ رَٰءَا ۝١٨﴾

فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ

وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِن هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۝٢٤ .

واختلف المفسرون في تفسير المعنى المقصود بالعتل الربيم الذي قيل إنه نور فيه .

فرأى عصهم أن الرقيم هو الدعى ، وأن الوليد بن المعيرة يوصف به ؛ لأن أباه دعاه بعد ثمانى عشرة من مولده .

ورأى عصهم أن الرقيم وصف له من رمة كان يعرف بها فى عنقه ، وهى اللحمية المدلاة ، ويحالفهم آحرون فيقولون إن الرجل الذى كان يعرف بهذه الرمة هو الأحسن من شريق ، وكان أصله من ثقيف وعدده فى رهرة

وفى رواية أنه عليه السلام سئل عن المعتل الرقيم فقال إنه هو الماحش اللثيم ، وغير ذلك من الروايات والتأويلات كثير .

ولا أن الذى يعيننا فيما نحن بصدده أن الوليد لم يسب قط إلى أحد غير أبيه المعيرة ، وأن المعيرة لم يكن بحاجة إلى استحقاق ولد غريب عنه لكثرة أولاده وبحبتهم بين هتيان محزون وفريش عامة ، وأن شبه الوليد سى المعيرة طهر حتى فى بعض الفروع البعيدة . فإن عمر بن الخطاب كانت أمه قريبة لخالد بن الوليد ، وكان يشبهه أقرب الشبه كما يتمق فى أيامها هذه كثيراً بين أساء العمات والأخول ، وأن غير الوليد لأولى بذلك الوصف لما تقدم من اعتزاز فريش بنسبه فيهم حتى لقب بريحانة فريش وسمى بينهم بالوحيد

وعلى أية حال ، فقد نشأ خالد فى بيت الوليد بن المعيرة وهو سيد سى محروم ، وأحد السادات المعدودين فى فريش ، وصاحب الكفمة التى يتعلق بها مصير قومه فيما يجنح إليه من شرعة أو دين

أما أمه عهى لبابة بنت الحارث الهلالية ، وهى أخت ميمونة أم المؤمنين زوج السبى عليه السلام ، وأخت لبابة بنت الحارث الكبرى روح العباس عمه ، وأخت أسماء بنت عميس التى تزوجها جعفر بن أبى طالب ثم أبو بكر الصديق ، ثم على بن أبى طالب ، ولها أخوات أخريات بنى بهن رجال من دوى الأخطار ومقاديم العشائر الناهين .

وندر فى بيوت العرب السيلة بيت لم يكن له صلة بخالد ودويه بالنسب والمصاهرة ، من جانب أمه أو جانب أبيه .

والأقوال فى من خالد وتاريخ مولده لا تنتهى إلى قول يمتنع فيه الخلاف فمن المؤرخين من يقول إنه مات وله من العمر ستون سنة ، فإذا كان قد مات فى السنة

الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين للهجرة ، فقد ولد إددن في السنة الثامنة والثلاثين أو السنة السابعة والثلاثين قبل الهجرة

ولكنه قول يحول دون تصديقه والأحد به أن حالداً كان صغير السن في عام الفتح - فتح مكة - كما يهم من يلقب أبي سفيان له بالعلام وشيوع هذا اللقب بين عارفيه .

فقد كان أبو سفيان والعباس يرقدان عبور الكتائب والقنائل في يوم الفتح ، فكان خالد بن المعيرة أول من مر في سبي سيم . فسأل أبو سفيان : من هذا؟ قال العباس هذا خالد بن الوليد ، فعاد أبو سفيان يسأل وهو يحفى حقه : العلام؟ قال العباس : نعم ، كأنه لقب كان معروفاً بين شيوع قريش .

والرجل لا يقل له «علام» وهو في نحو السادسة والأربعين . وقد يقال له ذلك وهو حول الأربعين إذ كان الفائزون من رؤساء الشيوع ، وكذا اللقب قد عرف قبل ذلك بسنوات ونفى بحكم العدة والتردد على الأهواء . فإذا كان خالد بن الوليد يومئذ في نحو السادسة والثلاثين أو السابعة والثلاثين ، فمولده على التقريب بين سنتي ثمان وعشرين وثلاثين قبل الهجرة

وعندئذ يحظر لنا قصة أخرى لها صلة بهذا التقدير ، وهي قصة المصارعة بين وبين عمر بن الخطاب وهما علامان وعلمته عمر وكسره ساقه في هذه المصارعة ، وبما يتصارع البدان أو المتصاربان وعمر على بصير مشهور قد ولد قبل الهجرة بأربعين سنة أو قرابة هذا التاريخ . .

فالتوفيق بين هذه الأقوال جميعاً إما يستقيم لنا بتأخير مولد عمر قليلاً عن سنة أربعين ، وتقديم مولد خالد قليلاً عن سنة ثلاثين ، فيرجح إددن أن يكون مولده في نحو سنة أربع وثلاثين قبل الهجرة ، ولا مانع إددن أن يصارع عمر ويغلبه كما يغلب الفتى في الرابعة عشرة مثلاً زميلاً له في السادسة أو السابعة عشرة ، إذا كان مولوداً للتربية على الرياضة وألعاب الفروسية ، وكان حالداً ولا شك كذلك ؛ لأنه ورث قيادة الأمة من باكر صباه .

نعم يظهر أنه كانت عليه محاييل الفروسية منذ صباه الباكر ، إذ رشحه أبوه لقيادة الخيل ولم يكن أكبر أسائه ، ورأيناه على قيادة الفرسان - فرسان قريش - في

وقعه أحد التي أحاط فيها برماة المسلمين من ورائهم ، فحقت الهزيمة بجيش المسلمين بعد انتصاره

وقد أسلمها أن بنى مخروم كان بهم في اخاهية أمر العبة ولأعه ، فالفه هي حيمة عظيمة يضربونها ليجمعوا فيها عدة القتال ، والأعه هي اخيل وفرسانها ، وولاية خالد هذه «الوظيفة» الموكولة إلى قبيلته بين بطون قريش جميعاً هي آية استعداداته للرئاسة والقيادة منذ صباه

وهي أخبار خالد قصة واحدة تتعبد في تصور ملامحه وسماته لقنة أوصافه المحفوظة ، على خلاف ما تعودناه من أحاديث العرب عن أبطالهم ، وهي في الغالب مقيضة في وصف أولئك الأبطال .

تلك القصة هي ما أشرنا إليه من المشابهة بينه وبين عمر بن الخطاب ، حتى كان أداس من صعاف النظر يحلطون بينهما من قريب ، ولا يميرونهما بالرؤية ولا بسماع الصوت الخفيض .

وحاصلتها أن علقمة بن علاثة بنى عمر بن الخطاب ليلاً فقال له مرحباً بك يا أبا سليمان . . ثم دنا منه فلم يميزه مع ربه وسماع صوته برد السلام عليه ، فقال عرك ابن الخطاب ؟ فأحابه عمر نعم فمضى علقمة يقول : ما يشع ، لا أشبع الله بطنه

وأصبح عمر ، فدعا نخلد وعقمة وسأل خالداً : «ماذا قال لك علقمة ؟ هي أن يكون قد لقيه أو جرى بينهما كلام ، وكرر عمر السؤال فأقسم خالد بالله ما رآه ولا سمع منه شيئاً . . فقال عقمة كالوسع به من حرج - خلا أبا سليمان . . وم يظن لعاطله ، حتى تبسم عمر وأحبرهما بالحديث .

ومن هنا تفهم أن خالداً كان طويلاً نائس الطول ، وأنه كان عظيم الجسم والهامه ، مهيب الطلعة يميل إلى البياض .

وعنى عن تواريخ المؤرخين - ولا جدال - أن خالداً قد تعلم في صباه كل ما يتعممه الفتى المرشح للحرب والعروسية وشمائل الرئاسة ، ومن الصعائر العارضة التي رعم أداس أنها أصل الحفاء بينه وبين قرينه عمر بن الخطاب أنه صارعه كما تقدم ، فعليه وكسر ساقه ، وهي صعبة تسمع عن دراية باكرة بصون الصراع

والكفاح ، ولكنهم لو لم تذكر في مصادرها لأعدنا علم القائد الكبير بصون المروسية على أنوعها ، وسرعته في مآرق النزال إلى مصارعة أقرانه ومبارزيه واحتسابهم بحسب شديد حتى يعجزهم عن الحراك

وعبر بعيد أنه تعود عيشه الشطط وراهن نفسه على الخشونة عمداً في الساديه ليصير على مصابك الحرب وشدائد الجوع والظمأ حيثما تهرء عن موارد الراد . فقد حاء في بعض الأحاديث أن حالد كان يأكل اللص ويشتبهه كما يأكنه لأعراب ويشتبهوه ، وهو أعنى إنسان في مكة أن يسيع هذه الأكلة الأعربية ، مع يساره وافسان أهله في الأطعمة الحصرية .

قال ابن عباس روية عن حالد : إنه دخل مع رسول الله عني حالته ميمومة نت اخارت ، فقدمت إلى رسول الله لحم ضب حاءه مع قرية له من نجد ، وكان رسول الله لا يأكل شيئاً حتى يعلم ما هو ، فاتفق النسوة ألا يحبره حتى يرين كيف يتدوقه ويعرفه إن داقه فلم سأل عنه وعلم به تركه وعافه فسأله حالد : أحرام هو؟ قال . « لا ، ولكنه طعام ليس في قومي فأحدثني أعافه » قال حالد « فاحتررتة إلى فأكنته ورسول الله ينظر » . .

ومثل هذه التربية لفائد من قواد الحرب مودح يحتدى في كل مدرسة من مدارس الصون العسكرية الحديثة ، وعلى سستها كتب نابليون تقريره وهو حالب في المدرسة الحربية يعيب على النظام يومئذ أنه يسمح لأساء الأعيان بمعيشة الترف واستصحاب الخدم بن حدران المدرسة ، وهم أخرى بخدمة أنفسهم في مدرسة يتعلمون فيها الصبر على شدائد اخروب .

وكان حالد - ولا ريب - علم بالسادية العربية من غير هذا الطريق ، طريق الرياضة المفصودة إن صبح ما رححاه فلعله سافر كثيراً في الحرية قبل الإسلام ، ولعله عرف في تلك الأسهر دروبها العصبية التي كان يطررها من العراق إلى الحجار ، ومن الحجار إلى اليمن ، ومن نجد إلى الشام ، وبعضها كان يعتسه على محل بغير أدلاء .

ولم تكن بحالد ولا ببحوته حاجة إلى التجارة لكسب العيش وتحصيل المال ، إذ كان أبوه على تلك الثروة التي لا يريد عليها في السلال العربية ، وكانت ثروته أشبه شيء في عصرنا هذا بثروة المصارف التي تعمل في صمقات القروض والربا

ومصاريب الأسعار أما الثمرات والخضر في مزارعه ، فلم تكن ي يحمل إلى
البلاد القصية لبيع والشراء . وإنما مصارها أن تباع في الحواضر الحجازية وما قاربها
من السوادي القادرة على شىء من الثرف والمتعة ، ولا سيما في أيام الأسواق
والحجيج . ولهذا عسر بعضهم وصف سبه «الشهود» فيما تقدم من الآيات بأنهم
كانوا أئداً في صحبته وجواره معاصرة بهم وتربها بهم عن الكدح والتصرف في
شئون المعاش . فإن قصيت لأحدهم رحلة أو سياحة ، فعى غير هذه الأعراض
أو غير حاجة ملحة إلى الاتجار ، وإنما هي السربة واستمرس بالمصاعب والانتدع بحرة
السياحة وأدبها ، وقد ينمقون في ذلك خير ما يكون . كما كان يصح عنه «راد
الراكب» وأعمامه الآخرون الذين اشتهروا بالألفة من معاراة أحد لهم في الصياغة
وبذل العطايا والهبات .

وموضع الترحيح ولاستنتاجها إنما هو في إرسال حالد إلى السادية قصداً
لرياضة النفس والحسد على خشونة الأعراب وشدائد المبادي . فهذا ، وإن جرت
به عادة بعض الأشراف في حواضر الحجاز ، لم يقطع به قول من الأقوال في سيرة
الوليد بن المعيرة وبسبه «الشهود» على احمال الشهادة للمعنى الذى قدمناه

ولكن الأمر الموثوق به كل الثقة ، الذى لا موضع فيه لترحيح ولا استنتاج أن
حالد قد نشأ في الحاضرة أو السادية مستعداً للخشونة مستطيعاً لمعيشة الأعراب ،
مستحب السيفة واليئة لما يتكله المجاهد في أوعر القفر وأعنف الحروب ، وكانت
له صلاحة العصيين الأقوياء «يعهودين بين رجال السيف ، وهي صلاحة يوشك أن
ستمد من حماسة النفس وشهامه القلب أصعاف ما تستمله من العضلات
والأوصال .

فم تعمه العبقرية من صريبتها التى لا ماض من أدائها ، وأية ذلك أنه مات
على فراشه في نحو الخامسة والخمسين ، وليست هي بالنس العالية فيمن يموتون
بداء الشيخوخة من غير علة أخرى .

وإذا تجاوزنا هذه المطئة ، وهي كافية ، ألفيا في تراحم الأسرة كلها ما ينبى عن
عوارض الأمر التى تهيئها الأقدار لانحباب العفارة في شتى المواهب والمرايا .

فهذه لأسرة الغربية تكثر فيها عوارض الاختلاف عن حملة الناس في تركيب
الأعصاب خاصه ، وبشاهد فيها فرد أو أفراد تتجمع فيهم عللها وتعمن بهم

مخالفتها وحصار شيوخها حتى تسبهم إلى الاحتلال والاضطراب كأنهم صحايا الأسيرة كلها في سبيل إنجاب العبقريّة منها .

وكانت هذه العوارض مشاهدة في أسيرة خالد وفي إخوانه على التحصين فذكر كتاب الاستيعاب في أسماء الأصحاب . «إن الوليد بن الوليد كان يروع في منامه ، مثل حديث مالك سواء في قصة خالد» .

وعن مسدد بن أبي شيبّة أن خالد بن الوليد كان يفرع في نومه ، فشكا إلى النبي عليه السلام ، فقال له «إن عقرية من الحسن يكيدك»

ولدت هذه الأسيرة الممتازة صاحبها الكسرى في شخص سليلها عمارة بن الوليد أحد الإخوة المذكورين بأسمائهم من ذرية الوليد بن المعيرة .

وعمارة هذا ، هو صاحب عمرو بن العاص في رحله الخيشة رسول إلى الجاشي ؛ لتسليم المسلمين بها إلى قريش .

وكان مولعاً بالخمر والعزل ، وسيماً محباً إلى النساء فلما كان بالسبية مع عمرو وامراته شرب وطر إلى امرأة عمرو بظرة مريّة .

وقد نصح عوارض الأسيرة هذه في أعظم أفراد الأسرة كما ندمحها في هذه المسكين الذي اتلى بالشتم الفادح والصحة الكسرى فحالد بن الوليد شرف بن المعيرة لم يهتبه النيل إلى المرأة كما فتى أحياه ، ولم يصرفه قط عن عبء من أعباء البطولة ولا عن فريضة من فرائض العظمة والعبقرية ، ولكنه على هذا قد تعرض للمؤاحلة من عمر بن الخطاب ومن أبي بكر الصديق في صدد الزواج انعجل في غير حيه ، فسعى امرأة مالك بن نويرة ، وتزوج في حرب اليمامة وهو بميدان القتال ، وسعى ابنة الجودي في دومة الجندل ، وهيل إنه فقد أربعين ولداً في صاعون الشام وهو بقيد الحياة يد يحاور الخمسين بكثير

وتدك في حميتها شواهد العوارض التي يقرر المصائبون المحدثون أنها سمات العبقريّة في صفتها ، ومنابتها هي الأسر التي نحبها ونسل أئمتها قبل أن تنعم بمجلدها وفجارها .

وكما ظهرت هذه العوارض في لون من ألونها على أحياه عمارة ، ظهرت في بعض ألونها الأخرى على أحياه الوليد الذي كان مثله يراع في رقاد

فهذا الأح الكريم كان مع حيثش المشركين في وقعة بدر فأُسره المسلمون ، وظال الكلام في فدائه لغناه وعداوة أهله للإسلام ، فطلب أسره أربعة آلاف درهم ، وأوصى السبي ألا يفلوا مدية له غير شكه أسبه الوليد وهي درع مصفاصة وسيف وبيصصة . وكل هذه المطولة والمساومة والوليد باق على دين الشرك في أسر المسلمين . فلما تم هداؤه وذهب إلى أهله ، أعلن إسلامه سهم وهم كارهون ، وعجب المشركون لأسره فألوه : هلا أسلمت قبل أن تعتدي؟ فقال كرهت أن يظن بي أسى حزعت من الإسار . وصر على المعذيب والكيبة والحس بين أهله حتى أفلت بعد جهد وحيلة وخق بالسبي مشياً على قدميه

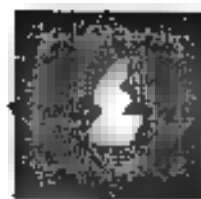
هذه أيضاً بفتح خالدية من بفحات تلك الأسرة القرية التي نأى لخلائقها إلا أن تغير الناس وأن برد عليهم من مورد النفاوس والإعراب والخالفة للمالكوف . وهي في أطوارها المتدنية محم العبقريه الذي لا مرأه فيه ، ومعدن البطولة التي تكتب لصاحبها وهو في الأصلاب .

فها هنا نشأة بطل عبقري مدخر للقيادة والرئاسة بميراث حسبه وطبعه ، وملكات نفسه وجسده ، حاءته البطولة وهو يتطهرها ولا يشك فيها ، وتهيب لها بالقدره على الشدة والرحاء والعمه والنساء ، ويكاد الصدق وإشاعة معاً يتوافيان إلى دلالة واحدة في تربية هذا البطل المسنور لبطلولة والعبقرية من قبل ميلاده ، فأكنة العصب التي سبق ذكرها وحده ؛ وغيرها أكالات مسمومات سدولاً أنها مخزعة أو محرفة ولكن اختراعها وتحريمها يدلان لا محالة على شيء ، وهو اشتهاار خالد بن رويص سيته على تحريج العصص السبي يتقرر منها الناس ويخافون منها الهلاك فهي اليواقيت للقطب الشعري أنه حاصر قوماً من الكفار في حصن لهم ، فقالوا تزعم أن دين الإسلام حق؟ فأرأى أنه ؛ لسم ، فقال حملوا إليّ السم القاتل ، فأتوه به فأحده وقال سم الله ، وشربه فلم يصبره وتروء مثل ذلك في كتب الإصابة مروى عن مصادر شتى أنه لما قدم الحيرة أتى سم فوصعه في راحه ، ثم سمي وشربه ، ولم يؤثر فيه .

وقد سمع بيشه - بشير السوبر مان في انعصر الحديث يقول إن السم الذي لا يمتنى يريدى قوة

فهذه سبة نطل شأته للمجد على هذا العرار .

إسلامه



كان إسلام خالد ضرباً من التسليم ..

كان ضرباً من التسليم بمعناه «المسكري» ، لمصطح عليه في غرف المعاد ورجال الكعاح ..

لأنه أسلم أو سلم تسليم القائد البصير بحركة القفال بين المد والحرر والمصر والهزيمة ، لخسر بموضع الإقدام وموضع الإحجام ، للمقاتل والقتال شجاعة ، المسالم والسلم ضرورة لا محيص عنها .

ولم يكن تسليمه تسليم العاحز الوكل ، ولا الخارج المستحل . بل لعله بلغ من نفسه عذبة الثقة بالقدرة وحمادى اليقين بالخبرة ، يوم أسلم وسلم إلى معسكر الدين الجديد . كأنه آمن بالله ؛ لأنه علم من ذات نفسه أنه لن يعليه إلا الله ، وكأنه كان يقو في قرارة ضميره : أيهرسى أحد وليس له مدد من النبوة؟ أيعلو سيف على سيفى وليس له سر من السماء؟

فبلغ نهاية الإيمان بنفسه يوم بلغ بذية الإيمان بالله

وعد كان على دويه في بنى محروم أن يحاربوا حربهم إلى نهايتها ، لأن الصراع بين الجاهلية والإسلام لم يكن إلا صراعاً لهم قتل كل جاهلى وكل قرشى وكل عربى على العميم .

وكان معسكرهم أولى المعسكرات أن يصمد إلى موقف لحسم من الصال بين الفريقين ، لأن بلاءه بإدار الجاهلية أكبر من كل بلاء ، وموقفه أمام الإسلام موقف من يناهج عن عرته وعمره بيته وعرة آبائه وأحده ، وعزة «الطام» الاجتماعى كله كما قررت الجاهلية أحقاباً بعد أحقاب ؛ لأنه الطام لدى به يقومون وبهم يقوم .

وقد أدنى أنوه في هد الصراع قصارى ما في وسعه من بلاء ، وهو شرح يطول ، وتفصيل تصيق به الفصول ، ولكن ، شدة واحدة فيه تعنى عن بيان طويل ، وصفحة موحدة من صفحاته تعنى عن الإصا في القال والقيس

وحسبنا من تفصيل مكائده وجهوده كلها في حرب الإسلام أن نقول إنه قد
هناك عليه في هذا السبيل أن يبدل العرييس ؛ الوليد والمال

وفي بداية الدعوة المحمدية ، سعى وقومه إلى عم النبي أبي طالب ؛ ليسلمهم
محمداً أو يتحلى عنه ، وله نديلاً منه عمارة بن الوليد . وقد وضعوه بأه أنهد
العتيان وأشعرهم وأجملهم في قريش .

وبعد استمالة الدعوة المحمدية يسعى إلى النبي فيمن معى إليه من سراة
قريش ليشاطروه أموالهم ويسكت عن أربابهم وعاداتهم ، وفي ذلك يقول القرآن
الكريم في سورة الأحزاب ﴿ وَلَا تَطْعَمُ الْكَافِرِينَ وَاللَّشْقِينَ ﴾

وعقبا هذا ، البدل السحي في سبيل الدين تقاس كراهة الرحل للدين الجديد ،
وهي كراهة الهرم التي تنفى إلى الموت ، لأنه هوجج بالإسلام وهو يقارب الثمانين
وظل على الكيد له حتى مات بعيد الهجرة وقد بعف على الخامسة والتسعين

وكان خالد فتى ناشئاً يوم طهر النبي بالدعوة الجديدة ، فنصر منها كما نصر قومه
أجمعون ، وراد على البقرة لهباً من حمية صباه ، وتخصراً فتياً يسبق به أباه

فما هو ، لا أن بيع مبلغ الرعامة في القتال حتى تجرد لها بعرمة الفتوة وشجاعة البطولة .
ولم تنقص مستان على موت أبيه حتى كان قائد الميمنة في وفة أحد لمشهورة ، وتولى
الهجمة التي مالت بكفة النصر من جانب المسلمين إلى جانب المشركين

ودلك أن النبي عليه السلام أقام الرماة من وراء حشيه وقال لهم : « قوموا على
مصافكم هذه فاحموا ظهورنا ، فإن رأيتموه قد نصرنا فلا تشكوا ، وإن رأيتموه
يقتل فلا تصرونا » فلم ولي المشركون مهزماً وتبعهم المسلمون معسرين .
حالمت كثرة الرماة وصاية النبي وتصباحوا بينهم « ما مقامنا ههنا وقد انهرم
المشركون » ، فكانت هي العرة التي اهتلها خالد ، ولم تدله عنها الهزيمة المطبقة
بقومه ، فكر بالخيل ونسعه عكرمة بن أبي جهل صاحب الميسرة وداروا من وراء
حيش المسلمين ، فحملوا على من بقى من الرماة ، فقتلوهم وقتلوا أميرهم عبد الله
بن حبيب ، وانتقصت صفوف المسلمين ، واستدارت رحاهم ، واحتلظوا ، فصاروا
يقتلون على غير شعار ويضرب بعضهم بعضاً من العجلة والدهش ، وشاع أن النبي

عليه السلام قتل في المعركة ، وقتل فيها حمزة وسبعون من الأبطال ، وأرحب المرجعون بكبر الصحابة حتى ضل أبو سفيان أن أنكر وعمر من القتيلى ، وصاح بين الصفوف «يوم بيوم بدر والحرب سجال»



واشترك خالد في وقعة أخرى هي وقعة الأحراب ، أو الخندق ، فكانت هي أيضاً من أهول العروات على المسلمين وأوشكت أن تحيق بهم دواثرها ، لولا نقطة على بن أبى طالب ووفية بعض الدهاة بين أحراب قريش وهبوب الريح التى عصفت بسيوتهم وقصورهم وراحتهم يأساً من اقتحام الخندق الذى حفره المسلمون حول المدينة ، وهى هذه العروة يقوى القرآن الكريم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٦﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَنُظِّتُمْ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٧﴾ هَٰذَا لِكِ ابْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ..﴾

وقد كان خالد في هذه الغزوة يطوف بحيلة حول الخندق يلتمس مضيقاً يقحم منه الخيل فأعياء ، وفشل عمرو بن ود حين حاول العبور من إحدى بوابه ، فلما حطت حملة عمرو وقتله على بن أبى طالب مات المشركون ليلتهم يقسمون كتائبهم لكل فريق من المسلمين كتيبة تدهمه مع الصالح ، فكان خالد هو الموكل بالسرى عليه السلام فى كتيبة عيطه من جبل قريش والأحراب ، فاندفع يقاقل سحابة النهار وهويًا من الليل ، إلى أن تحاجر الفريقان ورجع المشركون وانصرف المسلمون إلى فبة السرى ، فارتد خالد بعد هيبه يطلب الفرة ، وكاد أن يطمر بها لولا حرس من المسلمين بقيادة أسعد بن حصير تنبه له وهوت عليه عرصه . ثم انقطع القتال وهو لا يزال على الطلب والطواف ، وكان آخر من ترك الحومة بعد يأس لأحراب من عبور الخندق ودخول المدينة ، فلبث هو وعمرو بن العاص على ساقه الجيش فى مائتى فارس رداء للحش كلة ، محافة أن يتعمقه لمسلمون



وتصدى خالد مرة أخرى لنسي عليه السلام في سدة الحديدية وهو في طريقه إلى مكة ، وكان النسي قد حرج إليها معمرًا في نحو ألف وحمسة من المسلمين لا يحملون سلاحًا غير السيوف في القرب ، فأوجس اشركون حيعة أن يكون قدومه إلى البيت الحرام للقتال لا للعمرة ، وبدبو خالدًا في مائتي فارس للقائه قبل بلوغ مكة فدنا خالد حتى نظر إلى أصحاب رسول الله ، وأمر رسول الله عبد بن بشر فتقدم في حيله وأهم بإرائه وصف من ورثهم رحاله ، ثم حاست صلاة الظهر فصلى رسول الله بأصحابه صلاة الخوف ، وهم خالد أن يُغير عليه لولا نحوه من الفروسية أبت له العدوان على المسالم وقمعت فيه طمع الرئيس انعط على مكاته وعروض ديناه ، فعلت هما كفة العار من البيس على كفة الرئيس الموتور ، وقال خالد يصف ذلك بعد إسلامه : «هممنا أن نُغير عليه ثم لم يعزم لنا ، وكان فيه حيرة ، فاطلع على ما في أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك مني موقعًا ، وقلت الرجل ممنوع»

إلا أنه مع هذا بقي على لده في حصونه الإسلام ومعاملة نفسه نون الإصغاء به والنصر إليه فلما صالح النسي قريشًا ودخل مكة في عمرة القصبة كره خالد أن يشهد دخوله ، وتعيب من حوار البيت ريشما يحتمر المسلمون ويرجعون من حيث أتوا ، وهو معنى النظر من رؤية شيء لا يستحبه ولا يحلى بيه وبين حربه .

كذلك كانت كراهة خالد للإسلام بعد كراهة أبيه

ومن وثباته هذه ، ولحاحه ذلك ، يغلب على الظن أن كراهته كانت من نوع تلك الكراهة التي هي أقرب إلى المبرزة والمباحرة منها إلى المقت والصعية ؛ لأنها لا تعنى صاحبها بالبعد من موضوعها كما تعنيه بالاشتغال به والعكوف عليه ، كأنه رميل المارزة اللازم لإتمام الصراع وإدكاء حرارته وامتحان قدرة النفس عليه

وهذه الحرارة حركة حياشة في النفس وليست كذلك انبوات الذي تنقبض عليه النفس في الشيوحة الفانية ، ولا كذلك الصغ الذي يتعدى بقبحة المحزون في طبيعة منوعة معدومة الخير والسحة .

مثل هذه الحركة الحياشة في النفس الحية الفتية كالسيل المتدفع لأنى في واديه اغيط بحاسيه ، يظل متدفعًا أتى ما بقي في الوادى وما اهتمر عليه العيث من صفته ، ولكنه إلى أم لا محالة ؛ لأنه سينتهى إلى مفترق الوادى فلا يحش ولا

يتدفق ، وسيفقصر عنه العيث فلا يربو ولا يبرع ، وسيكون طريقه مع الوادى لصرق
غير طريقه مع الوادى المحصور .

والوادى هنا قد افترق فى محراه شعبه بعد شعبه منذ عهد قريب وإن لم يسته
بعد إلى غاية افترق فى الأرض البراح .

افترق الوادى قليلاً حين انقسم بيت البعيرة بين معسكر الجاهلية ومعسكر
الإسلام ، وأصبح فى معسكر الإسلام أخوان حبيبان إلى خالد ، وهما الوليد وهشام .
وافترق قليلاً يوم أصغى أبوه إلى القرآن ، وحدث آل بيته عنه ذلك الحديث
الذى أراهم وأشحاهم ، فحسوه قد صبا عن دينه وسألوه عن نبأ محمد فأوشك أن
يقع فى قلبه أنه وحى السماء لو لم يطق لسانه بأنه السحر الذى يهرق بين الرجل
وزوجه والولد وبنيه والسيد ومولاه .

وافترق قليلاً يوم شهد خالد مكية المسلمين فى طريق الحديبية وهم قائمون
للصلاة ، وهجس فى خاطره أن يُعير عليهم قصدته عنهم رهبة الصلاة وبخوة
الفارس اعجم عن العذر والغيلة ، وسرى فى روعه أن محمد لسراً وأن الرجل لمسوع
وكان لتلك الحركة الخبيثة مدد من تحريك الكتائب وتبريد الطلائع وإقامة
الأرصاد والتقاء الجموع واتفاق الكدمة بين المشركين على الحرب والعداء ، فإذا هم
يتلبسون محتلمين بعد صلح الحديبية ، وإذا بصلح الحديبية يلقي السلاح من
الأيدي سبين طويلاً لا لقاء فيها ولا برال ، ولا سورة من عصص ولا حذوة من غيط
مثار

ومات الشيوخ الذين كانوا يحيمون بوقرهم وحمودهم على العقول ، ونهياً الجو
للسؤال فيم هذا العداء والصلح؟ أم أحل الكعبة ومحمد يرعاها ويحترم حوارها
ويحج إليها؟ أم من أحل العصبية القومية وشرف محمد شرف العرب أجمعين؟ أم
من أجل الكرامة ومحمد يصون للعرير كرامته ويعرف للحبيب قدره؟

ومن أين محمد ذلك النصر المبين بعد النصر المبين؟

ومن له تلك المهانة التى ترد عنه الأعين والأيدى من قريب؟

ومن أين له ذلك العون الذى يدركه وقد أحاطت به الهرمة من كل فج ، فإذا هو
باصبل منها وإذا هو الطارد الطافر وقد حيل إليهم أنه الطريد الخنول؟

ومن أين للمسلمين ذلك لأدب وهدى الخشوع؟ ومن أين للشيء منهم ذلك
السلطان الصاعد والصوت المسموع؟

لقد رأهم ورآه سيد أهل الطائف عروة بن مسعود ، فعاد إلى قومه يقول «والله يا
معشر فريش . جئت كسرى هي ملكه ، وقبصر في عظمته فب رأيتم ملكاً هي
قومه مثل محمد بين أصحابه ، ولقد رأيتم قوم لا يسمونه بشيء أبداً ، فانظرو
رأيكم فإنه عرض عليكم رشداً ، فاقبلوا ما عرض عليكم فربي لكم ناصح ، مع أني
أحاف ألا تنصروا عليه»

ولقد رآه بعد ذلك في عمرة القضية لا يتوصاً إلا كاد المسلمون يقتلون عليه ،
ولما تكلموا حصصوا أصواتهم عنده ، ولا يحدون النظر إليه ، ورأهم في نظمهم
ومودتهم وصدق بمانهم وحالهم بينهم ، فأكبروهم وعبر عليهم أن يصعروهم
أو يتمادوا في الرربة بهم والإعراس عنهم ، وانقبوا إلى أنفسهم فإذا هم مرتبون
في العدم متدبرون في المقصد ، مهرمون وهم الأكثرون ، محجمون وهم المتريصون ،
فحات الساعة لورن لأمر ومراجعة الحاضر والمستقبل ، وفرصت هذه المراجعة فرصاً
على كل ذي بصيرة بالقيادة في معارك الصال أين تعشش وأين يتسع لها المجال ، فإذا
بالرحلين المفلطين على توحيه الوحوه قد انتهب إلى رأى في مصير المعركة بين
الجاهلية والإسلام في ساعة واحدة ، وعندما أين يقف الديان المتأحران من حق
التنصر وعوارض الهرمة ، وهما عبقريا فريش في أصول القيادة على تدبير السن
والمنهج والمراج ، خالد بن الوليد وعمرو بن العاص .

وفي تلك الأوبة التي شتد فيها الحذب والدفع من الإنسان وفرارة صميمه ،
وتحب فيها للوارة وجونا على كل صليح بها فادر عليها ، لم يترك خالد لنفسه ولم
يلبث أن حاءه الدعوة التي تنصره على عباده وتخرجه من تروده ، وتسدعى منه
الست العاحل بحو به ، وتمسح العصا لتي بعها كانت تشبه عن تسمية صميمه .

وتت رسالة من أحبه يجعلها له من كلام محمد ولا عني فيها عن حزاب .
قال أحوه الوليد « . أما بعد فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن
الإسلام ، وعقلك عقبك ، ومثل الإسلام بحبه أحد؟ . »

ثم مضى يقول «سألقى رسول الله ﷺ فأن أئن خالد ؟ فقلت يأتي الله

به فقال - ما مثل خالد يجهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان حيرا له ، ولقد سماه على غيره فاستدرك يا أحمى ما فاتك منه ، فقد فاتتك مواطن صالحة » .

تلك كانت هي الدعوة التي جاءت في أوابها .

وكان إسلام خالد هو الجواب

فهى مراحمه الطبيعية التي لا تد له من عورها بين الجاهلية والإسلام ؛ لم يكن طبعيا أن يلى أول دعوة وهو فى قريش صاحب عقلها المنيع .

ولم يكن طبعيا أن يلى الدعوة فى وطيس الحرب ومحتدم العدا .

ولم يكن طبعيا أن يسكن هبة إلى النواراة وقد انقسم بيته ، ثم انقسمت نفسه ، ثم جاءته الدعوة الكريمة فى حينها فلا يكون الإسلام جواره المظور

فهو قد انتقل من الإصرار إلى القتل ، إلى المواقعة ، إلى النواراة ، إلى الترحيح ، إلى الإحانة ، ولو عجل بوحدة من هذه الخطوات لكنت هذه العجلة هى مكان العجب وهى الأمر المخالف لطباع الأمور .

وقد أسلفنا أن الإسلام كان فى أمر خالد صرعا من التسليم ، فعبيد هما أنه تسليم القائد فى معركة نفسية وليس بتسليم القائد فى معركة حسية وكفى ، وبهذا عماه أن يستعصر له السبى ربه عن ماضيه ، ولم يكن قصده أن يرحب به السبى ويسلكه بين صحبته ومريديه ، فقال يا رسول الله . قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندا عن الحق ، فادع الله يعفوها لى

فأحابه النسي عليه السلام - أن الإسلام يحب ما كان قبله

فعد خالد يؤكد رجاءه ويقول يا رسول الله ، وعلى ذلك!

فدعا السبى ربه اللهم اعف عن خالد بن الوليد كل ما أوقع فيه من صد عن مسلك

مرضى خالد واستراح .

ولا يكون هذا إلا تسليم القلب بضم عن الكفر ، وليس تسليم البدن من السلاح

وأخرى ما أن مرجع إلى كلام خالد ، لبيان تاريخ إسلامه وسبب اهتدائه
وبلخيص الأحاديث التي كشف بها حلفاءه قبل لحاقه بالنبي في المدينة يسلم
عسى يديه ، فإنه أحمل ذلك كله إجمالاً بفصح عن تلك الأطوار النفسية التي
ساورته وإن لم يقصد إلى الإصباح عنها ، ولعل صدورها منه على البديهة أبين لها
وأقرب إلى توكيدها من الشرح المقصود

قال «لما أراد الله بي من الخير ما أراد ، قدف في قلبي حب الإسلام وحضري
رشدى وقت قد شهدت هذه الموطن كلها على محمد ، وليس موطن أشهده إلا
وأصرف وإنى أرى في نفسي أنى موضع هي غير شيء وأن محمداً سيظهر ، فلما
خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية حارحت في حيل لمشركين فلقبى رسول
الله ﷺ في أصحابه بعسافان ، فقمم بإرائه وعرض له ، فصلى بأصحابه الظهر
إماماً ، فهمموا أن يُعير عليه ثم لم يعزم لنا وكان فيه حيرة فاطلع على ما هي
أنصب من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منى موقفاً
وفلت ، الرجل مموج ، وافترقا وعدل على سر حيلنا ، فأخذت اليمين ، فلما
صالح قريشاً بالحديبية ودافعته قريش بالراح قلب في نفسي أى شيء بقى؟ أين
ابدهب؟ أإلى الجاشى؟ فقد اتبع محمداً وأصحابه آمنوا عنده ، فأخرج إلى
هروص؟ فأخرج من ديبى إلى نصرانية أو يهودية؟ أفأقسم في عجم أو أقيم في دارى
فيمن بقى؟

«وبينما أنا كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ في عمرة القصية ، وتعبت فلم
أشهد دحوه ، وكان أحمى الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في تلك العمرة ، فطلى
فلم يحدنى فكتب إلى كتيباً فإذا فيه «بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فإني
لم أر أعجب من ذهب رأيت عن الإسلام وعققت عقلك ، ومش الإسلام بحجته
أحد؟ وقد سألت رسول الله ﷺ فقال : أين خالد؟ فقلت يأتى الله به ، فقال ما
من خالد يحهل الإسلام؟ ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين
لكان حيراً له ، ولعلناه على غيره ، فاستدرك بأحمى ما فاتك منه ، فقد فاتك
مواطن صالحة»

«فلما جاءني كتابه نشطت للخروج ورادى رعة في الإسلام ، وسرتنى مقالة
رسول الله ﷺ ، ورأيت في اليوم كأتى في بلاد ضيقة حدة ، فحارحت إلى

بند أحصر واسع ، فقلت : إن هذه الرؤيا حق ! فما قدمت المدينة فت لأدكرها لأبي بكر ، فذكرتها فقال : هو محررك الذي هديك للإسلام ، والضييق الذي كنت فيه الشرك . فمما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت : من أصعب إلى محمد؟ فلقب صفوان بن أمية ، فقلت : أم ترى يا أبا وهب؟ أم ترى ما نحن فيه؟ إنما نحن أكلة رأس ، وقد طهر محمد على العرب والعجم ، ولو قدم عليه فابيعناه؟ فإن شرف محمد شرف لنا فأبى على أشد الإباء ، وقال : لو لم يبق غيري من قريش ما تنعه أبداً ، فافرقا ، وقت . هذا رجل مورتور يطلب وتر ، قتل أبوه وأخوه بدر . ولقيت عكرمة بن أبي جهل ، فقبت له من ما قلب لصفوان ، فقال لي مثل ما قال صفوان . فقلت له : فاطو ما ذكر بك . . . وخرجت إلى سرلي ، فأمرت برحلتى تخرج إليّ إلى أن ألقى عثمان بن أبي طلحة ، وهو صديق لي أذكر له ما أريد . ثم ذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره ، ثم قلب وما عليّ وأنا راحل من ساعتى؟ فذكرت له ما صار لأمر إليه ، وقلت : إنما نحن بمحلة نعلب في ححر لو صب عليه دبوب من ماء حرج ، وقت له نحواً مما قلته لصاحبه ، فأسرع الإحابة . وأدخنا بسحرة فلم يطلع الفجر حتى التفت بيأح - على ثمانية أميال من مكة . فعدونا حتى انتهينا إلى الهلة ، فوجدنا عمرو بن العاص بها فقال : مرحباً بالقوم قلنا وبك . فقال أين سيركم؟ قلنا : ما أخرجك؟ قال : فما الذي أخرجكم؟ فما الدحول في الإسلام وانتاع محمد . قال : وذاك الذي أقدمي . فاصطحب جميعاً حتى قدما المدينة ، فأنحنا بطهر الحرة ركائبنا ، وأحمر بنا رسول الله ﷺ فسراً فليست من صالح ثيابي ، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ فلقيني أحي فقال : أسرع فإن رسول الله ﷺ أخير قدومك سر بقدمك وهو يتطركم ، فأمرعت المشي ، فطلعت فما رال يتسم إليّ حتى وقعت عليه ، فسدمت عليه بالسوة ، فرد عليّ السلام بوجه طلق فقلت : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . فقال الحمد لله الذي هديك . وقد كنت أرى لك عقلاً ورجوت ألا يسلمك إلا بخير .

إلى أن قال «وتقدم عمرو وعثمان فابيعا رسول الله ﷺ ، وكان قدوما في شهر صفر من سنة ثمان ، فوالله ما كان رسول الله يوم أسلمت يعدل بي أحداً من أصحابه فيما حزنه»

فهذا السرد البسيط قد يحوم ما حول الخالصة الأولى التي حركت قلب خالد إلى الإيمان بالدين الجديد ، وبحسب أنها قد حاله يوم التقائه بالمسلمين في طريقهم إلى مكة قسيل صبح الخميس . يوم ردت سكة الصلاة عن جموع المسلمين وهم مسالمون قاصون إلى جور البيت الحرام ، ويوم بدا له أن هذا البيت العتيق غير حاسر شيئاً بدعوة محمد وعنة أصحابه على البلد الأمين ، ويوم تراءى العت من قريش أن يذودوا ابن عبد المطلب عن كعبة آتته وأحداه ، ويصيحوا طريقها للوافدين من حمير ، كما قال الحليس بن علقمة الكناسي سيد الأحابيش

فمئذ تلك الساعة تباعد ما بين حلد وبين الشرك وبقارب ما بين وبين الإسلام ، وطفق يتباعد من هناك ويتقارب من هنا حتى كانت مبايعته التي على ما تقدم قبل فتح مكة بشهور

وهي تحقيق هذه التاريخ - تاريخ إسلامه - خلاف غير قليل ، ولكن التاريخ الذي جاء في سرده المنسوب إليه أرحح التواريخ حمية لأسباب كثيرة ، ليس بأهونها ولا أوهنها السبب المنسب الذي يفترون بغيره . فإن الوقت المشار إليه آنفاً لهو أشبه الأوقات أن يتفق فيه قائد الحرب وقائد السياسة على انتهاء حولة بين قريش والإسلام ، ولن نجد وقتاً هو أولى باتفاق القائدين على اختياره للتسليم من ذلك الوقت الذي تواردت فيه الحواطر بين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص . وبعد قصي الأمر ولم يبق لمكة إلا أن تفتح أبوابها طائفة من هجرته وهجرها تلك السوات الثماني .

وقد علم النبي عليه السلام جلية الأمر منذ قدم إليه الرفاق الثلاثة . فقال لصحبه رمتكم مكة بأفلاك أكبادها ، وحق للمسلمين أن يحسوا منذ تلك الساعة أن أولئك الرفاق الأعداء قد جاءوهم بمقاليذ الكعبة ومسالك البلد الأمين .

فالواقع أن مكة قد أدت بالفتح منذ فارقتها خالد وعمرو وعثمان بن أبي طلحة ، فأصبحت « المدينة المفتوحة » التي يعرفها في اصطلاح هذه الأيام ، وأصبحت قصبة معلقها في وحه الدين الجديد قصبة عث وحبوط

ويحطون الكتابون الذين يرعمون أنها فتحت بعد شهرين لأنها أخذت على غرة ورحف عليها جيش المسلمين في عشرة آلاف وأهلها معجون عن الأهنة والدفاع .

فإن السبي عليه السلام إنما رحف عليها ؛ لأن قريشاً عدت بعهدا وسطت على حلفائه من حراة ، ثم أشعبت من القصاص فأودت بأب سفيان إلى السبي يستأمنه ويسأله عد العهد الذي أبرم بينهم في صلح الحديبية ، فأبى السبي ولم يجه ، وأحسن المشركون منذ اللحظة الأولى أن المسلمين رحصون عليهم لا محالة ، ولو أن قصبة الشرك بقيت لهم نية من عزم لاستعدوا قبل السطو بحراة أو بعده على الأثر وأراحوا أنفسهم من الوساطة في التآهيل والمراوعة ، ولكنه التسليم الذي بدأ بإسلام خالد وصاحبه قد تراخى به الوقت إلى أحله للعلوم .

* * *

فلما جاءها المسلمون دخلوها أميين على كثرة من بها من المشركين ، وتقدم السبي صلوات الله عليه في كتيبته الخضراء ، وتقدم سعد بن عباد والربيع بن العوام وخالد بن الوليد إلى أبوابها فدخوها كل من الباب الذي وكل إليه ، ونهى النبي أصحابه عن القتال فيها ، فلم يحدث قط قبل إلا من صوب خالد بن الوليد ؛ لأن صفوان بن أمية وسهيل بن عمر وعكرمة بن أبي جهل رصدوا للباب الذي وصل منه وجمعوا له جمعهم فمنعوه ورموه بالنبل وشهروا عليه السلاح ، فطش بهم وقتل منهم قرابة ثلاثين أكثرهم من قريش وأقلهم من هذيل ، وولى السادة والأتباع بعد ذلك في هزيمة نكراء

أهو تدبير أم مصادفة أحكم من التدبير؟

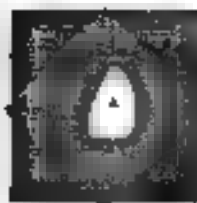
خالد دون غيره تصادفه حدود رفقائه بالأمس في حيوش المشركين فيرموه ويرميهم وقد كانوا معاً يرمون لمسلمين عن قوس واحدة

إنه حارب في صفوف الإسلام عرب الجزيرة وعرب العراق والشام ، وحارب في صفوف الإسلام جيوش الفرس والروم ، وحارب في صفوف الإسلام كل من برز لتلك الصفوف ، فما نال الحاهلية القرشية وحدها ينصرها على المسلمين ولا ينصر المسلمين عليها؟ وأين ينتقى بها إن فاته لقاءها في ذلك اليوم؟ لقد لقيها إذن في ساعتها التي لا ساعة بعده وقتل السبي حين سمع بصيرته ألم أنه عن القتال؟ قالوا - إنه خالد قاتل فقاتل فكان - «قصاء الله خير» ، ثم قال «لا تعزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة . . .»

وغرائب الاتفاق هكذا تكون حيث تكون



مع النبي



أحاط بالنبي عليه السلام بحبة من كبار الرجال محتلفون في الأعمار والأقدار ، محتلفون في البيئات والأحساب ، محتلفون في المرحمة والأحلاق ، محتلفون في مكانات العقول وصروب الكفايات ، محتلفون في فهم الدين وبواعث الإسلام ، فكان اختلافهم هذه آية من أصدق الآيات على رحابة الأفق وتعدد الجوانب في نفس ذلك الإنسان العظيم ، وكان علماً بكل رجل من أولئك الرجال مزيداً من العزم بعظمة هديهم وسيدهم وموجه كل منهم في وجهته التي هو أصلح لها وأقدر عليها ، وهم ينتقون أول الأمر وأحره في ذلك اليسوع المياص من تلك المطرة العلوية التي فطرها الله لهذا آية الأمم وقيادة الرجال ، من لقادة القواديس بروضون الأمم والرجال .

ومن من عظيم من هؤلاء العظماء ، لا كان تقدير النبي إياه بقدره الصحيح آية على عرفه الشامل بخصائص النفوس وسره العميق لأغوار الطبائع والأفكار ، ولكن تقديره لخالد بن الوليد على التحصيل كان آية الآيات في هذا الباب ؛ لأنه عليه السلام لم يكبره ، كسار السياسي الذي يستجمع القوة حواليه وينزل كل رعيم منزلة قومه من الوفرة والجاه والعناد ، وإنما أكبره ؛ لأنه عرف أقصى مستطاعه قبل أن يظهر من مستطاعه كثير ، وسماه « سيف الله » وبينه وبين الوقائع التي استحق بها ذلك اللقب الخليل بضع سنوات ، بل سماه سيف الله وهو قاض من معركة يتلقى مسلمون من عادوا منها بالكبر والتشهير ، ويحتنون في وحوهم التراب ويصيحون بهم أيما وحدوهم يا هرا . يا هرا هرتهم من سبيل الله

لم يكبر النبي حاله ، كما أكرأنا سفيان تألفاً له ورعيًا لمكانه في قومه ولكنه أكبره بصفه التي سيوصف بها في تاريخ الإسلام بعد اهتدائه إليه بضع سنوات أكبره ؛ لأنه « سيف من سيوف الله » والبأس لا يرون إلا الهزيمة والارتداد ، ولم يكن النبي موليه القيادة في المعركة التي ارتد منها بجيش المسممين ، فيقول هائن إنه يصبر استنوب عن احتيائه ، وهو من ثم المستنوب عن ارتداده أو هرا . ولكنه ولي

أحرى و برك اختياره بعدهم بشيئة إخوانه فى الجيش ، فاحتروه بعد ذلك
مجمعين

كثير من رؤساء الأئمة يعرفون موضوع الإكليل من رؤوس العادة وهم متصرون
طافرون ، ولكنه موضوع يحفى حد الخفاء على أنظار هؤلاء الكثيرين إذا لم يندلهم
عليه صيب النصر والظفر ويبقى للعين الملهمة وحده أن تراه فى طلام المحنة
والبلاء .

وقد صحت حادثة السبي ثلاث سنوات ، وعهد إليه السبي فى كثير من الأعمال
الصعبة وأشركه فى بعض الأعمال الكبيرة ؛ ومنها عروة مؤتة ، وعروة حنين ،
وسرية سى حديمة ، فمما من هذه الأعمال الكبيرة عمل واحد سم يتسع فيه المنال
لشايخ والحاسد ولم ينظر إليه انظر من وجهين متعددين تارة إلى جانب العبد
وتارة إلى جانب الملام ، وبوأنه رضى الله عنه قضى بحته فى السنة العاشرة للهجرة
أو بعد ذلك بقليل لعجب المؤرخون كيف سمي «سيف الله» وهم استحق هذا
اللقب الذى لا يعنوه لقب فى الإسلام ، ولكن السبي وحده قد عرف قبل الحادية
عشرة للهجرة أنه تحقيق بذلك اللقب على أوفى مده ، وسماه به قس أن يهرم
المرتدين وقبل أن يهرم الهرم والروم وقبل أن يصون للإسلام حرية العرب ويصم
إليها العراق والشام ، وهى لأعمان لحسام التى من أحلها يدعى اليوم سيف
الإسلام .

وأما هو البصر العلوى الذى يدمج هذه القدرة فى معدنها حيث ينظر الناس
هيرون حالد ، مرتد ، من عروة مؤتة أو مأجوداً مع الخيل وهى تولى هى أول المعركة من
ميدان حنين ، أو صانعاً فى سرية سى حديمة ، يراً منه السبي عليه السلام

ولهذا يسعى أن تورد هذه الأعمال بمبراتها الصحيح ؛ لإقامة حالد نفسه فى
مقامه الصحيح ، وهى ولا ريب من العذل الذى نجمت منه حروب الردة وفروج
العراق والشام .

سرية مؤتة

وأول هذه الأعمال قد اشترك فيه متطوعاً بعد إسلامه شهرين أو ثلاثة أشهر ، وهو سرية مؤتة التي سبقت إلى البقاء .

وكان سبب هذه المعركة أن النسي عليه السلام أرسل وفداً إلى دات الطلح عقرمة من الشام ؛ ليدعوهم إلى الإسلام ، فقتلوا جميعاً وعدتهم خمسة عشر إلا رئيسهم بما من القتل وحده ، وبعثهم أبقوا عليه عمداً ؛ ليحضر بما رآه ، على يدى المنكسرين فى ، بلاغ مثلاتهم إلى من يهددونه بالتمثيل والتكبير

وأرسل عليه السلام الحارث بن عمير الأردى رسولاً إلى هرقل ، فعتنه شرحبيل بن عمرو العسائى وهو فى الطريق

فأشفق عليه السلام من عقى السكوت على كلك المعلنين وهو غير مأمون .
وعلم أن قبائل الحيرة العربية بعسها قد أدعت للدعوة الجديدة ومنها المتربص للعدو متى قدر عليه ، وابوهون الإيمان الذى لا يصبر على الإغراء ، ولا ستثارة ، فإذا استصعب الغسانيون وحيران العسائين شأن السى وأفلنوا من حرائر فعلة كتلك الفعلة اللئيمة حرأهم ذلك عاجلاً على اقتحام الصحراء للقبعة من المسلمين ، فنهت القبائل لنصرتهم فى طريقهم وعدهم الدولة الرومانية بالنال والسلاح تقريراً لهيبتها فى عيون أولئك البدو الذين جهلوا بأسها ووهموا أنهم قادرون عليها ؛ إذ لا مطمع للدولة الرومانية فى مقاتلة المسلمين وإحضاع الحيرة بغير هذه الوسيلة ، ولا سبيل إلى تسيير الحدود الرومانيين بنظامهم المعروف ومعهداتهم الكثيرة لمداولة مسلمين فى عقر دارهم من وراء المفازر والحدود ، وتسييرهم بحراً إلى شواطئ الحجار لا يغيبهم عن الاستعانة بناس من العرب وأهل البادية ، وهم أولى أن يستعينوا على هذا المطلب باتباعهم الأقدمين فى تخوم الشام .

فلم يحد عنه السلام ماصاً من الشار لأصحابه لمقتولين ، وحرد لتأديب المعتدين جيشاً صغيراً لا تتجاوز عدته ثلاثة آلاف ، وكان فى ذلك جيش خالد بن الوليد ونخبة من أقدم الصحابة عهداً بالإسلام ، فلم يتول خالد قعدته ؛ لأنه كان

على الأرحح أحدثهم عهداً بالدحول فيه ، وتولاها ريدس حارثة «فإن أصيب
فالرئيس جعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة ، فإن أصيب
فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم» .

وأمرهم عليه السلام أن يذهبوا إلى حيث قتل الرسول فيدعوا القوم إلى
الإسلام ، فإن أحابوا وإلا فالقتل ، وأوصيهم «ألا تغسروا ولا تغلوا ، ولا تقتبوا
وبيداً ولا امرأة ولا كبيراً ولا صغيراً ولا معترلاً بصومعة ، ولا تقربوا محلاً ولا تقطعوا
شجراً ولا نهلموا بناءً»

ولا شك أن هذا الجيش إنما كان بالوصف العصري حملة بأدسية وبعثة
استطلاع» يقاد على هذا الاعتبار ومن أجل هذه العاية ، ولا يراه به بذاها أن يحطم
قوة الدولة الرومية أو يفتح البلاد التي كانت يومئذ في يديها ..

فمضى لهذه الرحلة حتى برز معاً وأقام بها ليلتين ، وسمع المسلمون هناك أن
هرقل قد عسكر بجأ في مائة ألف من الروم ومائة ألف من قبائل خم وحذام
والقين وبهراء وبنى على أهبة اللقاء

وقد يقع في الخاطر أن الروم علموا بمسير جيش المسلمين فأعدوا هذه الحماهل
الحرارة ثم سيروها إلى تخوم الدولة في مدى الأيام التي مضت من خروج جيش
المسلمين إلى بلوغهم أرض معان ، وهو خاطر بعيد جد البعد لما هو معلوم من
صعوبة جمع الخيوش وتسييرها في مثل هذه السرعة ، وما يبدو من ضخامة هذه
الحماهل بالقياس إلى القوة الإسلامية التي مهدوا للقائها ، ولم يكن لبغوبهم أن
يعلموا بحقيقتها لو أنهم نقلوا الخبر بحروحها عن رآها

والأرجح أن هرقل إنما كان في جموعه هائلت في ريادة الشكر التي بدر الله أن يؤديها
إذا هو طمر بالمرس ورد منهم صليب الكيسة الكبرى الذي حموه معهم يوم فتحوا
بيت المقدس ، وربما كان هرقل قد طرح بيت المقدس في ذلك الحين ونحلت خيوش
ركابه لأداء هذه المريضة معه أو للقيام بمراسم الحفاوة في تلك الريادة التاريخية

ورأى المسلمون أن مدد الروم حاصر على مقربة منهم ، وأن الحرب بين عسكريين
على هذا التفاوت السعد عمل غير محدد ، ولم يكن منظوراً ولا مقصوداً عند مسير
الحش من المدسة ، فرجع بعضهم وتمهل الأكثرون منهم ! ليستأدبوا النبي فيما

يصعبون ، وعدب حماسة الشاعر وحمية الشهيد على عبد الله بن رواحة فانهز
المرددين والمنبطين وقال لهم «يا قوم! والله إن السى بكرهوب لىي خرجم تطلون!
الشهادة ، وما تقابل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما تقاتلهم إلا بهذا الدين الذى
أكرم الله به ، فاطلقوا فأعنا هى إحدى الحسينين إما ظهور وإما شهادة!»

فاستمعوا إليه ولم يشاءوا بأية حال أن يرجعوا قبل الاشتاء إلى مقصدهم الذى
حرجوا من أحبه ، وهو إبلاخ الدعوة إلى قتلى الرسول السوى وبراء الدمة إليهم
قبل القصاص ، إن وجب قصاص .

فتقدموا من معان إلى مؤتة على مسيرة نحو ليلتين ، وفيها حصن للعسائين
يقيم به أمير منهم فى خدمة الرومان .

واحتفى الأمير العسائى منهم بخصمه ثلاثة أيام ، بعله كان يد طر فيها مدد
أو أمراً من رؤسائه ، ثم التقى الفريقان على مررعة فى حوار البلدة ، فاستمات من
بقى من حشش المسممين ، وحاربوا على ما يظهر وهم مفاحأون ! لاسا لم يسمع فى
أحبار الوقعة بتوجيه الدعوة أو الإحابة عبيها ؛ ولأن فائداً منهم أعجل عن طعامه
ولم يدق القوت ساعات ، فلم فوحثوا بالفئصال لم تدع لهم المفاحة من حطة عبر
حطة الصمود للخطر والسات فى وجهه محافة المصاب لأكبر فى هذه الحالة وهو
مصاب الذعر والدهشة والملاحقة بلا هوادة

وكأما استحقى القادة الثلاثة أن يرشحوا للموت ويرجعوا دونه ، فتعاء الحياة ،
فقاتل ريد بن حارثة حتى قتل ، وأحاط القوم بمعمر بن أبى طالب وهو يحمل اللواء
ويشير من حوله بنحو المسممين ، فأنحوا عليه بالصرب الدرك حتى قطعت يمينه ، ثم
قطعت شماله ، ثم ضم اللواء إلى عصديه ولث يصاص عنه إلى أن مات

ودعى ابن رواحة إلى الرتاسة ، فحماه من عم له يعرق من لحم وول له شد
بهذا صليث فإيث ود لقيت فى أيامك هذه ما لقيت ، فأحده من يده فانتشس منه
بهشة ، ثم سمع الخطمة فى ناحية المعرك فألقه من يده وحرد سيفه وهو يشد

يا نفس إلا تقىتلى تموتى هذ حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلنى فعبيها هديت

فظف بصول بين الصفوف ويهدر بالشعر حتى قتل والمركة هى أشدها

فما هي إلا لحظة حتى دبر المسلمون أمر الرئاسة بوحى البديهة ونور العقيدة
وهداية الهدى ، لنرى يهدى إلى المصلحة الكبرى وتعمل كل مصلحة دونها وإد
يللواء يأخذه في تلك اللحظة ثابت بن أكرم من سى المحلان ويساى فى أصحابه :
«يا معشر المسلمين اصطلمحو على رجل منكم» قالوا : «أنت» ، قال : «لا ، ما أنا
بمعلن» ، فانسقت الكلمة على حاند بن الوليد فإدا هو يتولى القيادة فى حينها
ويصنع لساعته حير ما يصنع فى ذلك الحين .

وحير ما يصنع فى ذلك الحين هو الارتداد المأمون .

وهو أصعب من النصر فى بعض المآرق ؛ لأن النصر ميسور مع اجتماع العدة له
واحتمال الشدة فيه ، ولكن الارتداد المأمون غير ميسور لكل من يريدنه وهو فى
أضعف المواقف . لا أن تكون له حبرة بالقيادة تكفى الرححان فى قوة العدو
الذى يرتد بين يديه

وأول شىء ينبغى أن يحتاط به لارتداده هو أن يوقع فى روع عدوه أنه لا ينوى
الارتداد بل ينوى الهجوم أو يقصد إلى الخيلة .

فصمد فى أيدان حتى المساء .

ثم بدل مواقع الجيش تحت الليل فنقل الميمة إلى الميسرة ، ونقل الميسرة إلى
اليمين ، وحل الساقة فى موضع لمقدمة ، والمقدمة فى موضع الساقة ، ورصد من
حلف الجيش طائفة يشيرون العبار ويكثرون البجطة عند طيوع الصباح فلما طلع
الصباح على الفريقين ، إد بكل طائفة من طوائف العسائين والروم ترى قسالتها
وجوه غير الوجوه وأعلام غير الأعلام ، وإد بالجلة مع هذه الاختلاف فى الوجوه
ولأعلام ترهم انقوم أن مدداً جديداً أقبل على جيش المسلمين ، وكانوا قد داقوا
منهم أمراً بالذق بعير مدد وهم مفاجأون ، فلما ذهب حال يدع القوم ويحاشى
بجيشه لم يتبعوه حذراً من الكمى وتوقعاً للإحاطة بهم من ورائهم ، وأبلى خالد
فى هذه المدافعة والمخاشاة بلاء ثم بيده فقط فى عرواته الكبرى على كثرتها فانسقت
فى يده تسعة سيوف ولم تصبر معه إلا صفيحة يمانية ، وكان هذا التراجع المحمى
شجاعة المستعيت عطاء صالحاً للجيش الصغير فى مواجهة الجيش الكبير ففقل
إلى المدينة سلام ، وعرف خالد مددك أنوم بلقنه أنذى أصفه عليه السبى وهو
سب الله ، وعاد الناس يقولون مع السبى إنهم الكوار يردن الله وليسوا بالفرار .

وقد سمعنا في عصورنا هذه بالألقاب الكبار نصفي على القادة لأبهم يحجو في حطة
 إرداد لا محيصر منها . فذلك هي السنة النبوية بسبق العظم العصرية إلى تقدير القائد
 البار قيمة الجاح في إرداده كما تقدره بقيمة الجاح في تقدمه وانصاره . ولو أن
 خالد مكنته فطره المجرفة ولم تملكه فطرة القيادة البصيرة لساءت العقبي أيما سوء
 وعرضت الدعوة الإسلامية لحنة لا تعرف مداها الآن . ولربما تعرضت لهذه الحنة من
 جانب الجبره العربية قبل أن تعرض لها من جانب الروم والعسائين ؛ لأن الجيش قد
 خرج من المدينة تأديباً لأناس مصعبين قتلوا رسولاً واحداً أو قتلوا وهذا لا تجوز عدته
 خمسة عشر . إذا تورط هذا الجيش في الرحف حتى اضطلم^(١) كنه ولم يعد منه أحد ،
 فكيف يكون وقع هذا التأديب المعكوس في نفوس البادية المتحصنة أو في نفوس أهل مكة
 ولما تسلم مفاتيحها للمسلمين ؟ إنه ليسبعث السخرية والاستهانة من حيث أريدت له
 الهيئة راسعة ، وإنه ليثير من القتل ومسوى الطون ما يصعب استنراكه في سنين

ولكن الجيش قد عاد وأبلى في أعدائه ، وتسامعت الحريره بعدد الحصص الهرقية
 التي حسنها مرصدة له وبم تهلر على ثوبه ولا أصابت منه غير أنسى عشر قتيلاً
 منهم القادة الثلاثة الذين بذبوا للشهادة قبل حروجه ، بالسرية إذن قد نهضت
 بأمانتها ، ووقع في نفوس المسلمين من فرط الثقة بأنهم أنها كانت فادرة على جهاد
 أعظم من جهادها وثبات أطول من ثباتها ، وهي معالاة في القوة والبأس حبر من
 المعالاه في الصعف والخور ، ولا صبر منها ما شفيعها تلك البصيرة العلوية التي تصع
 الأمور في نصابها ، ونصف الجاح نصفه ولو بدا البأس في ثياب الإحفاق .

بنو جذيمة

وقد أثنى النسي على خالد في مهمة لم يديه لها ، ولم يرشحها لها مرشح غير
 كفاءته واتفاق رأي المسلمين فيها .

ولكنه لامة وبرئ من عمه حين أخطأ في مهمة يديه لها بعد فتح مكة ، وهي
 السرية التي قادها إلى بني جذيمة ليكشف عن طويتهم ويدعوهم إلى الإسلام

بعد فتح مكة ، توجهت صابته عليه السلام إلى تطهير البوادي المحيطة بها من
 عبادة الأصنام فأرسل السرايا إلى قبائلها ؛ لدعوتها والاستيثاق من نياتها ، ومنها

(١) اضطلم ، أي قتل وأبىد

سرية خالد إلى بني حديعة في نحو ثلاثمائة وخمسين من المهاجرين والأنصار
وبني سليم . . أرسلهم دعاة ولم يأمرهم بقتال

وكان بنو حديعة «شرّ حتى في لجاهلية يسمون لعقة الدم ، ومن قتلاهم لماكه
من البعيرة وأخوه عما خالد بن الوليد ، ووالد عبد الرحمن بن عوف ، ومالك بن
الشريد وأخوته الثلاثة من بني سليم في موضع واحد ، وغير هؤلاء من قبائل شتى

فلما أقبل عليهم خالد وعلموا أن بني سليم معه لسوء السلاح وركبوا للحرب
وأبو السراة ، فسألهم : «أمسلمون أتم ؟ فقبل إن بعضهم أحبه نعم ! وبعضهم
أحبه صيأنا ! صيأنا ! أي ترك عبادة الأصنام ، ثم سألهم : فما بال السلاح
عليكم ؟ قالوا : إن بيضا وبين قوم من العرب عداوة فحسنا أن تكونوهم فأخذنا
السلاح ، فناداهم : صعدوا السلاح فإن الناس قد أسدما ، فصاح بهما رجل منهم
يقال له حخدم : ويلكم يا بني حديعة ! إنه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح إلا
الإسار وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق ، والله لا أصع سلاحي أبداً فما زالوا به
حتى برع سلاحه فبعض برع وتفرق الآخرون . فأمر خالد بهم فكثفوا وعرضهم على
السيف ، فأطاعه في قتلهم بنو سليم ومن معه من الأعراب ، وأنكر عليه الأنصار
واندماحرون أن يقتل أحداً غير مأمور من النبي ﷺ بالقول ، ثم انتهى الخبر إلى
النبي فرفع يديه إلى السماء وقال ثلاثاً : «اللهم إني أنرا إليك بما صنع خالد بن
الوليد» ، وبعث علي بن أبي طالب إلى بني حديعة فودى دماءهم وما أصيب من
أموالهم . قبل إنه «كان يدي حتى ميلعة الكلب» ويسألهم : أنقى دم أو مال لم
يود لكم ؟ فلما اكتفوا ورضوا فرق بينهم بقية المال «احتياطاً لرسول الله» وقد سأل
رسول الله فتنى من حديعة انصت إليه لينبئه بآ خالد مع آل ودويه هل أنكر عليه
أحد ؟ قال : نعم فد أنكر عليه رجل أصفر ربعة ورجل طوي أحمر ، فاشتدت
مراجعتهم . وكان عمر بن الخطاب يحلس رسول الله ، فقال أما الأول يا رسول
الله فاسى عبد الله ، وأما الآخر فسالم مولى بني حديعة

ويعرى إلى خالد أنه استند في قتالهم إلى قول عبد الله بن حذافة «إن رسول
الله قد أمرك أن تقتلهم لا تمتاعهم عن الإسلام» .

وقد عم النكير على الحادث بين أجلاء الصحابة ، من حصر منهم السرية ومن
لم يحصرها ، واشتد عبد الرحمن بن عوف حتى رمى خالدًا بقتل القوم عملاً

ليدرك ثأر عميه اللدين قتلهم سو حديمة مع عوف أمى عبد الرحمن ورحل من سى
 أمية وقصة مقتلهم أنهم كانوا قد حرجوا تجراً إلى اليمن ، ثم عادوا ومعهم مال
 رحل من سى جدعة قصى بحسه هناك يحملونه إلى ورثته وأهله ، فاعترصهم
 حدى فى رهط من قبيلته يُدعى خالد بن هشام ورغم أنه وارث المال وأحق به من
 غيره فمعهو يظروونه أن يصلوا بالمال إلى أهل الميت . فغضب وقبائلهم بالرهط
 الدين معه فقتل عوفاً والفاكه بن لمعية ثم عمد عبد الرحمن إلى خالد بن هشام
 هذا فقتله بأمر أمية . وهما قريش بعرو بى حديمة لولا أن مشى بعصر العقلاء
 بينهم بالصالح فتصاحوا على الدية والمدان .

ومن الإسراف أن يظن بحالد بن الوليد أنه تعمّد قتل أناس وهو يعلم أن دمهم
 حرام ويتحد من مهمة السى ذريعة إلى شفاء ترة قديمة ، فأدى من ذلك إلى القصد
 فى فهم الحقيقة أن ينجب عن دواعى اللبس ودوافع الطبع التى تدفع حالداً خاصة
 إلى مثل هذا التصرف ، وإن كانت هذه الدواعى وهذه الدوافع قائمة مفهومة وهى
 تفسير لما حدث وفيها الكفاية ، وإن لم تكن قائمة ولا مفهومة فهناك يفسح مجال
 الطون والفروض لمن يشاء

وقد كانت دواعى اللبس ودوافع الطبع قائمة مفهومة فى مقتلة بنى حديمة فإن
 البوادر كلها حول مكة كانت ترحر بالشر وتنحصر للوقعة فى تلك الآونة بعد تسليم
 مكة ، فلم يحضر أيام على سرية خالد حتى كانت بطون هوازن وثقيف وجشم وغيرها
 مجمعة فى العدة الكاملة والعديد الوافر لمساعدة السى وجمعه ، فإذا ارتأى خالد فى
 سياط طائفة من أهل البادية مشهورين بالشرسة والعدو وهم يلقونه بالسلاح فله فى
 ارتياحه وجه لا يخفى ، وإذا أصيب إلى ذلك تلحج القوم فى إعلان إسلامهم
 والإفصاء ببياتهم فليس اللبس هنا بعرب عن بل المتوحش فى أشياء ذلك المقام .

وقد يعنى الشعر والفصص فى الكشف عن شعور القوم هنا ما ليس يعنيه
 التاريخ وتسلسل الروية ، فمن كلام أحد الوهيبين فى خطاب بى حديمة بن عامر
 يسوع لما أن بهم أنهم لم يكونوا متفقين على الإسلام والمسلمة ، وذلك يدقون

دعوا إلى الإسلام والحق عامراً فما دبنا فى عناصر إد تولت
 وما دبنا فى عامر لا أباهم لئن سمعت أحلامهم ثم ضلت

وقال أحد الخدميين

فلا قومنا بنهون عنا غواتهم ولا الداء من يوم الغميصاء داهب

وفي قصة رواها محمد بن إسحاق بن يسار - وهو من الثقات - شواهد على إصرار بني حديمة وعنادهم إلى ما بعد الإسر والإمذار ، وفجوى هذه القصة كما أثبتها صاحب كتاب الأعاني حيث نقلت ببعض التصرف ' «أن خالد بن الوليد كان حالسًا عند السي (عليه السلام) فسئل عن عروته بنى حديمة ، فقال : إن أذن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تحدث ، فقال : تحدث ، فقال لقبناهم بالغميصاء عند وجه الصبح فقاتلناهم ، حتى كاد وجه الشمس يعيب ، فمحننا الله أكتافهم فتبعناهم بطلبهم ، وإذا بعلام له دوائب على فرس دروب في أحريب القوم ، فسؤت له الرمح فوضعتة بين كتفيه ، فقال لا إله فقضت عنه الرمح ، فقال : إلا اللات أحسست أو أسماء . فهمسته همسة أدريته وقيدا - أي مشرق على الموت - ثم أحدثه أسيرًا فشددته وثاقًا ، ثم كلمته فلم يكلمني واستخصرته فلم يجبرني ، فلما كان بعض الطريق رأى نسوة من بنى حديمة يسوق بهن المسلمون فقال : أيا حالدا قلت ما تشاء؟ قال هل أنت واقفي على هؤلاء النسوة ، فأثبتت على أصحابي ففعلت وفهن جارية تدعى حبيشة ، فقال لها فاوليى يدك ، فبولته يدها في ثوبها . فقال : أسلمى حبيش قبل نفاد العيش ، فقالت : وأنت حسيت عشرًا أو تسعًا وترًا ونمائيًا تترى» .

قال : «وتأشدا الأشعار حتى قتل ، وأقبلت لحارية ووضعت رأسه في حجره وجعلت ترشفه وتكفى . » إلى آخر القصة في الجزء السابع من الأعاني وهي على ظهور الاحترع في بعضها لا تخلو من دلالة على موقف بني حديمة من سرية خالد

فإذا صح مع هذا أن خالدًا تلقى من عبد الله بن حذافة السهمي أمرًا يقتل بني حديمة نقلًا عن النبي (صلى الله عليه وسلم) فهو حقيق أن يعتمد على الفتوى من أمثاله خدائنة إسلامه ومة علمه بصفه الدين وأحكامه ، وهي على أية حال رواية لا تغفل كل الإفعال في صدد البحث عن أخبار هذه السرية .

والحو كله بعد هذا وذاك - سوء في البادية أو في مكة - هو حو الحرب والريسة وحو التريض والصور ، فلا عجب أن تحتلف فيه الموارع والآراء وأن تستطار فيه دواعي الشر والبقمة ، وأن يتطرق إليه اللبس وتتعذر فيه استبانة الوجه الصراح

وعند خالد دوافع الطمع إلى جانب دواعي الدس واحتلاط الآراء وهي الدوافع التي قد تعد منها حادثة الس في ذلك الحين ، ومنها أنه تناول الموقف كما يتناوله القائد المتصارع على القتال في الصحراء ، ويحدث للقائد في هذا الموقف كثيراً أن يعرف بين صريين من التسليم هم تسليم المرأة والحمل ، وتسليم الإرعان والصبيحة ، ولا سيما تسليم العدو المتهم المررد الذي يعيد عن الصراحة يهد أناس منه مقال أناس آخرين .

ومن دوافع الطمع عند خالد ، تلك الصرامة التي يشأ عليها كل من شأ في مثل بيته من الجاهلية ، وتلك الشدة التي تثيره إليها أعصابه ويومئ إليها نعره في يومه ومشاركة إخوته في عوارضها الموروثة على نحو من الأسحاء ، وهي ولا ريب تلك الشدة التي عاها عمر بن الخطاب حين قال : «إن سيف خالد لرفقاً» وهو من أعرف الناس به وأقربهم إليه ، وهي التي توقعها جحدم أحو بني حديمة حين صاح بقومه محذراً إياهم من إلقاء السلاح ويلكم يا بني حديمة إنه خالد ! كأنها خليقة معهودة منه لا تحتاج إلى تأويل بعيد

ولدت في تاريخ الحروب القديمة والحديثة حرب تدور على العقيدة الدينية أو الحمية الوطنية لا تخص عليها فنة من أشباه هذه الملمات ولا يقع فيها ندير السيف حيث ينبغي أن يقع شير السلام

ولا يعد أن يكون خالد قد ورث من عمومته حموة لسي حديمة فحج به شعوره إلى سوء العطن بهم وقدة الطمأنينة إياهم من حيث لا يقصد الرة ولا يعتمد الانتقام

فكل هذا أقرب إلى تعيين بطشته بالقوم من انهاه بحمل أماته التي على دحل وسوء نية وهو الرجل الذي حارب أصدفاء وأهرب الناس إليه على أبواب مكة ، وله ندحه عن حربهم لو نعد احتديها أو كان قصاراه أن يتعد باللسان ولا يرجع إلى صدق اليه هي إطاعة النبي عليه السلام .

ومهما يلزم اللائمون أو يعدر العادرون في هذه الرة ، فمقطع القول فيهم بين المصعب أنها حصاً وأن الإبقاء على خالد بعده صواب لأن صواب : لإبقاء على خدمته بعد عروة بني حديمة قد ظهر أيما ظهور في حروب الردة وحروب الفرس والروم .

وذلك مثل من نرية النبي عليه السلام لأفداد الرجال

ويجلى تمام هذا المثل بإعطاء الرحال فرص المراجعة والإصلاح في أمر يشه الأمر الذي أخطأوا فيه ، وموقف قريب من لموقف الذي عرضهم للملامة وهذا الذي توحاه عليه السلام حين أرس خالداً دون غيره إلى سى المصطلق وهم من بس حذيفة - ليسنحبر له حبرهم ويتبين الحق فيما نلعه عن اردادهم ، وكان الوليد اس عفة قد أحبره أنهم ارتدوا عن الإسلام ، فذب عليه السلام خالداً فوأمره أن يتشت ولا يعجل ، فاطلق حتى أنهم بيلاً فبعث عيونه ، فلما جاءوه أحروه أنهم متمسكون بالإسلام وسمعوا أديهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أنهم خالد قرأى ما يعجبه ، فرجع إلى السى ﷺ فأحبره .

وهو مثل يسى عن كثير ، وقد يسى فيما يسى عنه أن خالداً لم يتعسف كل التعسف في شكه الأول سى حذيفة على اختلاف بيوتهم ؛ لأن الشك فيهم مارال يتكرر بعد ذلك شهور ، ومارال يدعو إلى تنفى الإشاعة عنهم وإبعاد الوفود إليهم مرتين للتحجيص والاستخار .

غزوة حنين

ولم تحص أيام معدودات على مقتلة سى حذيفة حتى لمس خالد موضع الثقة من نفس السى في حادث من أكثر حوادث الإسلام وهو غزوة حنين .

لمس هذه الثقة في غزوة حنين مرتين ، مرة في إسناد قيادة الخيل إليه على طليعة الجيش ، ومرة في سؤاله عنه وعديته به بعد هزيمة الخيل مولية عند اشتناك لجمعين

وحق خالد في تلك الثقة إنما يستين من عرص العروة كنها لخلاء الأسباب التى أوقعت الهزيمة الأولى بجيش المسلمين ، ولا يد فيها خالد من قريب أو بعيد . بل لعلها توحى إلها أن هزيمة حيله يومئذ إنما كانت كصد الأحسام للأحسام ضرورة مادية لا دخل فيها للعوامل النفسية ، أمام حارقة من الخوارف القوية ، تأخذ ما أمامها من إنسان أو حيوان ومن شجاع أو حنان

فقد فتحت مكة ولأعراب من حولها ثائرون محنقون ، وعلموا يومئذ أنها الواقعة الفاصلة وأنه لا مطمع بعدها في مكافحة السى إدا تطاولت الأيام على قيام دينه في البلد الحرام وموطن الكعبة والأصنام ، فحنمت قبائل همدان من هوارن

ونقيف وحشم ومشى بعضهم لبعض يقولون «إنَّ محمدًا قد فرح من مال هومه ولا
باهية له عنا . فلنعره قبل أن يعروب» واستسعروا القبائل طلبهم من أخربائهم عدد
كبير ، منهم بنو سعد بن بكر الدين تربي سهم السبي وهو رصيع .

وتوسى فيادتهم مالك بن عوف النضري ، وهو فتى حرىء فى نحو الثلاثين بجمع
إلى عطرساة الإمارة وحمية القروسية حدة الشباب ولدد الخصومة والعداء فساق
أموالهم وساءهم وأساءهم ، وأمرهم إذ رأوا المسلمين «أن يكسروا حقون سيوفهم ثم
يشدوا شدة رجل واحد» فإما فور وما هباء . وصفت الخيل ثم الرحالة المقدلة ، ثم
الإبل عليها النساء ، ثم صفت النعم فى حراسة لثلاث نفر والجيش مشتعل عنها

وسأله دريد بن الصمة حكيم القوم ما لى أسمع رعاء السعير وبهاق خمير
وبكاء الصعير؟ قال أردت أن أحسن حلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ،
فسخر دريد برأيه وقال له روى صأن والله! وهل يرد المهرم شىء؟ إنها أى
الحرب - إن كنت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك
فصحت فى أهلك ومالك . فرمى مالك بالخوف ولج فى عباده ولج فى سبي هوارن
مبلاً إلى كلام دريد ، فجمع به غضبه العارم وأقسم: «لتطيعننى يا معشر هوارن
أو لأنكثن على هذه السيف حتى يخرج من طهرى!»

ففى غرمة رحن مسميت لا يبالى ما يصنع بنفسه أو بقومه فى سبيل قهر المسلمين
وعنى الخبر إلى السبي ، فخرج فى ألفين من أهل مكة حديثى العهد بالإسلام
وعشرة آلاف من أصحابه الذين قدموا معه من المدينة ، وقيل إنهم كانوا جميعاً
ثمانية آلاف

وأعوره السلاح ، فاستعبر من بعض المشركين دروعاً فأعطوه ثلاثين أو أربعين
درعاً وقيل مائة درع - بما يكفيها من السلاح ، واستعار من ابن عمه نوفل بن
الحارث ابن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح ، فأعده إياها وهو يقول كاسى أنظر إلى
رماحك هذه تقصف طهر المشركين .

وأخرج خالدًا على طليعة بجيش فى مائة فارس من بني سليم
قال الحارث بن مالك : حرحا مع سول الله ونحن حديثو عهد بالجاهلية هربا
معه إلى حنين ، وكانت تكهار فريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة حصراء

يعال بها ذات أبو ط يأتونها كل سنة فيعقبون أسلحتهم عليها ويدبحون عندها ويعكفون عليها يوماً فرأينا ونحن نسير مع رسول الله سدره حصراء عظيمة ، فتبادينا من حسابات الطريق يا رسول الله! اجعل لنا ذات أبو ط كما لهم ذات أبو ط ، فقال رسول الله الله أكبر فلتنم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم إلهة!

وكان في الخيش كثير من أمثال هؤلاء المسممين المحدثين ، ومعهم في سافة الخيش جمع من المشركين بين رحان وساء يبطرون ما يكون ، وكان فيهم أبو سميان الذي قال حين رأى نواذر الهرمة : لا تنهني هرب عنهم دون السحرا وفيهم كلدنة بن الخبيل الذي صرح شامتاً متعحلاً ألا قد ظل السحر اليوم ، وصرح معه آخرون يقولون . اليوم ترحع العرب إلى ديار أبياتي

وكان الغالب على جيش المسممين في حراجهم قلة ، لاكثرات يعلوهم ، فسال أبو بكر الصديق لمر يعلب اليوم من قلة ويست هذه الكلمة إلى غيره ، ولكنها قببت على التحقيق لما جاء في القرآن الكريم : ﴿ إِذْ أَخْبَأْتُمْ كُرْهُكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّكُمْ لَعَنَ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ لَمَّا عَلِمُوا لَكُمْ أَنَّكُمْ لَكُمْ شَيْئًا ﴾ .

وتقدم الجيش حتى حصرت صلاة الظهر ، فجاء رجل فارس فقال : يا رسول الله ، إني اطلقت بين أيديكم حتى طلعت حبلاً فإذا أنا بهوارن عن بكرة أبيهم نطعمهم وبعثهم وشأنهم حثمتهم إلى حين ، فتبسم رسول الله وقال : تلك عنيمة المسلمين عداً إن شاء الله . ثم سأل : من يحرسنا الليلة؟ قال أس بن أبي مرثد . أو يا رسول الله فأمره عليه السلام أن يستعمل الشعب حتى يكون في أعلاه ، وقال له لا تُغْرَبَنَّ^(١) من قبلك الليلة

فلما أصبحوا سأل النبي هل أحسنتم فارسكم؟ يعني ذلك الحارس المستضعف . قالوا : يا رسول الله ما أحسننا ، فجعل عليه السلام يصلي ويلعب إلى الشعب ، حتى إذا قضى صلاته قال أشيروا فقد جاءكم فارسكم فجعل يطر إلى حلال الشجر في الشعب وإذا هو قد جاء حتى وقف وقال إني اطلقت حتى إذا كنت في أعلى هذ الشعب حيث أمرني رسول الله ، فلما أصبحت طلعت الشمس كلهم فطرت فلم أر أحداً ، فسأله هل برلت الليلة؟ قال لا ، إلا مصلياً أو قاصي حاجة

(١) أي لا يجب أن يلبسنا الأعداء من حينك

وروى مسلم من حديث عكرمة بن عمار عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال «عروبا مع رسول الله حيناً فمما واحدهم العلو تقدمت لأعلو ثيبة ، فاستقلنى رجل من المشركين فأرميه سهم وبنارى عسى مما دريت ما صنع ، ثم بطرت إلى القوم فإذا هم قد طلّعوا من ثيبة أخرى ، فالتقوا هم وصحابة رسول الله فولى أصحاب رسول الله ، وأرجع مهزماً» .

وحدث أبو عبد الرحمن الفهرى قال «كنا مع رسول الله في حين فسرنا في يوم فأنط شديد الحر» .

وروى محمد بن إسحق بسنده «خرج مالك بن عوف بمن معه إلى حين فسن رسول الله إليها فأعدوا وتهيأوا في مصابيق الوادى وأحاثه وأقبل رسول الله وأصحابه حتى نبط بهم الوادى في عماية الصبح ، فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل فشدت عليه وانكفأ الناس مهزمين لا يقبل أحد على أحد» .

وفي روايات شتى أن كميّة من المشركين فاحاً السدمين من شعبة في الوادى وقبلهم نبل كأنه الحراد المنتشر ، «وكانوا رماة لا يكاد يسقط لهم سهم» فأدبرت الخيل وأدبر المقاتلة وراءها لا يلوون على شيء ..

ونلك حملة الأحبار عن بدء المعركة جمعتها من مصادر متعددة وأثنتا بعضها بحروفها ، وتبين من المعارضة بينها أن الهزيمة انكشفت من الهجمة الأولى ؛ لأن الخيل فوجئت في الطليعة بالنبل المنتشر من الكمين المستتر ، فولت مهزومة في حفلة حيوانية معروفة في أشباه هذه المواقف . وقدّم ذكر الرواة عن حرب الإسكندر وأمراء الهند أن حصنة الصينة من الحديد المحمي كانت هي سبب الهزيمة التي أصابت بها الهند ، فانقبت الفيلة وبالأعلى عليهم وقصت وهي مولىة على الكثيرين من فرسانهم ومشاتهم ، تطفأ بعضهم وتوقع الآخرين وتدفع من حاول الثبات إلى الفرار ، ولم تعص على حين صنع سواب حتى لقي الفرس من فيلتهم في حرب المسلمين مثل هذا المصراع ومثل هذه الجفنة الحيوانية ، يوم نعمدها المسلمون بالصرع في الأعين والخيال .

وقد حدث مثل هذا مرة أخرى في وقعة حنين هذه ، حين حاول المسلمون أن يكرؤا بعد الفرس «فصار الرجل بلوى بعيره فلا يقدر على ذلك ؛ لكثرة الأعراب المسهرمين ، فيأخذ درعه فيقلعها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويفتحهم من بعده ويحلى سبيله ويؤم الصوت»

وهكذا بدأت الهزيمة بفرار الخيل وخفاق المشاة بهم واحباط الخيل بالناس بعد ذلك من الفريقين ، وتواتر القول بأن الصلفاء الحديثين في الإسلام أدبروا مهزمين عمدًا بعد الهزيمة الأولى ، فأشاعوا الهزيمة فيمن معهم من المهاجرين والأنصار

ولقد أوشك أهل مكة أن يستسلموا الأعراب المتقدمين على رصا من بعضهم لحسينهم إلى الدين القديم ، وعلى كره من بعضهم لأنعتهم من غلبة الأعراب على فريش ، لولا أن معبر مجرى القتال ودارت الدائرة على المشركين بعد لحظات ، وكان الفصل في ذلك لحركة جاءت من قبل السدمين وحركة جاءت من معسكر الأعراب ، وكان محبتهما في الموعد المنذور

فأما الحركة التي جاءت من قبل المسلمين فهي برور السبي عليه السلام بشخصه الكريم إلى مقدمة الصفوف . فقد ثبت في ذلك الهول الحارف ثبوتًا يحل عن الوصف وأحد رمام المعركة كلها في يديه ليمضي وحده في القتال كيصف تصوير الأمور

وكان قد شهد المعركة على بعلته دلدل أو الشهباء ، فأنحار إلى اليمين سريعًا ، ليستطيع التقدم بين تلك الصفوف المندفعة من مدبرين ومقبليين ، والتفت إلى اليمين وينادي يا معشر الأنصار . ثم التفت إلى اليسار وينادي كذلك يا معشر الأنصار فتسامعوا وتجاوبوا وعظموا كما وصفهم شاهدو الموقف عظمة الإبن على أولادها ، وحتم معهم حور رسول الله مثاث في عجة عين

وتختلف الروايات في وصف هذه الحركة المخيدة من بدايتها ، فيقول بعضها إن الناس أدبروا يومئذ عن رسول الله حتى بقى وحده ، ويقول بعضها بل بقى معه نفر قليل منهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس وأمه الفضل وأبو سفيان بن الحارث وربيعة بن الحارث ومعتب بن أبي لهب وعبد الله بن مسعود وقليلون لا يتجاوزون الاثنى عشر ، وحفل رسول الله يقول .

أنا النسي لا كاذب أنا ابن عمك المطيب

ثم أمر عمه العباس أن يصرخ في الخيش يا معشر الأنصار . يا أهل السمرة يا أصحاب سورة البقرة يا بني الخزرج ، وكان العباس ينادي جهور الصوت تسمع صوته على مسافات بعيدة ، وقبل إنه كان يقف على سبع وينادي عذمانه بلعابة فيسمعونه ويبنه ويبنهم ثمانية أمين

فلما حصل صوته بهذا السدء ، إذا بالأسصار والمهاجرين يسحارويون يالبيث يالبيث ويسرعون إلى ناحية الصوت ررافات ررافات ، حتى تجتمع منهم ثلاثمائة أو يزيد في خطائب ، ثم شاعت بين الألوف المؤلفة قدوة الكفر والإقبال بعد العر والإدبار ، فردد بالحيش بقصه وقصيصه يعدو إلى مساحة القتال ويرسل الخيل والمطايا ليملك كل منهم رمام يديه وقدميه ، وهدب النفوس حتى استهدفت النساء للبعوث غير مباليات ، ومهر من لم نكر على صحة في النظر كالعميصاء أم أس من مالك ، وكنت وهي حامل تحرم وسطها ببرد لها وفي حررها الخجر لدفع من يجترئ عليها

وكان خالد بن الوليد قد ثنى عمان فرسه بعد التوائه في الهجمة الأولى ، فلم يرل يقاتل حتى سقط مثملاً بالحراح لا يقوى على السير من مؤخرة رحله ، وهذا وحده السبي عليه السلام حين حرج يتفقد الحرحى بعد المعركة ، فارك له وروساء أم الحزيمة التي جاءت من قبل المشركين ، فأعاب على هزيمتهم هناك أنهم قد عرثهم طلائع النصر فأقبلوا على العنائم والأسلاب وشغل الكثيرون منهم بالتقاطها وسلباتها عن مطاردة المدرسين ، فتعصب الحركان في وقت واحد لسحويل وجهة القتال

ويتبين من مقدمات المعركة كلها ومن بواردها التي أجملناها أن الهزيمة فيها بعد الهجمة الأولى كانت ضرورة مادية لا محيد عنها ، وأنها ضرورة لم يكن لخالد يد فيها ولا طاقة باتقائها ؛ لأن أسبابها كلها كانت من وراء تديره ومشيتته ، وهي كثيرة مجملها ما وسعنا لإجمال .

فمنها أن الروح التي غلبت على حيش المسلمين في بداية المعركة كانت روح استهانة وقلة اكتراث ، وأن الروح التي عبت على روح المشركين يومئذ كانت روح استمالة وعناد مع تقارب العدد بين الحيشين

وربما رححت كفة المشركين في الدروع والأسلح لما تقدم من حاجة السبي عليه السلام إلى استعارة بعض الدروع والرماح

و«منها» أن حيش المسلمين كان فيه كثير من الطلقاء ، قد يلعبون الألس وقد يريدون ، وكنوا على دخل أو عى صعب يبتوب الية على خذلان النبي فحبلوه وتبعهم الناس و«منها» أن حيش المشركين سبق المسلمين إلى موافقه ، فاحتار وأحسر الاحتيار ، وهجم في الوقت الذي ارتصه

و«مها» أن المسلمين كانوا يوجهون الشمس عند الصباح واليوم قاطط لا تعوى فيه العيون على مواجهة شعاعها ، فحين يسهم وبين التنبؤ والإحكام في مطلع الصباح إلى أن استوت الشمس في كبد السماء

و«مها» أن استطاع المسلمين لم يكن على عادته من الرعاية والتيقن والإسراع ، فقد أبطأ الفارس المسطوع حتى التمسه السي عليه السلام مرات ، ثم جاء ولم يحتر بشيء ، ثم ظهر الكمين المزهوب من حيث لا يرويه فأوقع الخيل وهي لا تحسب له أى حساب ، وهذا مع مهارة المشركين في الرماية حتى قل إيهام لا يسقط لهم سهم .

و«مها» أن سى سليم أصحاب الخيل التي تولاهما خالد كانوا على قرانه من هورن ، وعمر عليهم أن يلاحقهم المسلمون بعد ستندرة المعركة ، فكانوا يقولون : «رفعوا القتل عن سى أمكم . وكانوا مع هذا صعدوا الإسلام فسبقوا إلى الردة بعد موت السى عليه السلام ، وما رالوا في موضع الطلة بعد ذلك على عهد الخلفاء .

تقدير السبي ﷺ خالد بن الوليد ، بما هو التقدير الصحيح لأعمال السرايا وخيوش في مؤتة وبني حديفة وحنين ، وكأما هو تمويم الجوهرى لحبر للجوهر النعيس في معدنه الحمى غير مصروع ولا مصقول ، ولتاريخ من بعده تقويم الجوهر بما يرضى عليه من جمال الصوع والصياء .

وبعودها فهو قول : «تقدير السبي عليه السلام خالد بن الوليد لم يكن تقدير المحاملة مكانه أو لما يرحى من قومه الأقوياء بنى محروم ، فبزه عليه السلام لم يحامله في وضعه الذي طاقته حوادث الأيام ، ولم يحامله حين قدم عليه في القيادة ثلاثة من السابقين في الإسلام وترك اختياره بعدهم لاتفاق كدمه المسلمين ، بل لم يحامله حين حاصم عبد الرحمن بن عوف ، فعصب السى عليه السلام وقال له معرضاً «يا خالد ذر أصحابي لو كان لك أحد ذهباً فأعقته فيراطاً في سبيل الله لم تترك عدوة أو راحة من عدوات أو روحات عبد الرحمن»

إما هو سيد السادة ومرسى الرجال والأبطال ، يفوم الأعمال بقيمتها وينزل العظماء في منزلهم ، ولا يجمعه أداء المحاملة أن يحامل بمصدر على حسب السوابق والأقدار .

وقد تولى خالد للسبي أعملاً أخرى في سنوات صحته الثلاث ، ولكن لأعمال التي احترماها هي أكبر أعماله في حياته عليه السلام ، وهي أقرب الأعمال إلى

ورن كفايه ونقوم معدنه وتغيير حلقه ، ونكنه أريد لكل عمل صغير ، كما أريد لكل عمل كبير ، وكانت لى عبد السلام نظرة فى كل مهمة مقدورة بده إليها .

ومن مهامه الصغيرة نسيره فى ثلاثين فارساً لهدم «العري» بعد فتح مكة نصعه أيام ، وهى الصمم الذى كان أبوه يتمسح به وسحر له الإبل والعجم ، وكان سديته من بطون سى سليم الدين قاتلوا مع خالد فى معام شتى ، وقد كان معبود المسائل التى نصيها المسلمون فى يوم حنين ، وأصله ثلاث شجرات بأرض بحلة يرعمون أن ربهم كان يشتو بها لحر بهامة وبصيف باللات عبد الطائف لبردها . وطلت محوفة إلى ما بعد لإسلام ، فيقول الكسى «إن اللات والعري ومائة لكل منها شبطانة نكدمهم وبراءى للسدية من صبيح إنديس وأمره» وهى السى أرجف من أرجف من المشركين أن القرآن الكريم ينصيها ويساومهم على عاداتها ويحولون منه قولهم . «اللة والعري ومائة الثالثة الأخرى ، تلك الحرايق العلا وإن شفاعة لبرتحى» .

فهى مهمة محوفة من وجهتها النفسية وإن سهلت من الوجهة الحربية ، فخرج خالد حتى انتهى إليها فهدمها ، وحاء فى بعض الأفاويل أنه «لا انتهى إليها حرد سيهه فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة باشرة شعرها ، فجعل السادن يصيح بها «أعزى» إذا لم تقتلى المرء خالدا فسوئى بإثم عاجل أو تصبرى

فأخذ خالدًا واقشعرار فى ظهره» وصرنها بالسيف فشققها ، ثم لقى السى فقال له الحمد لله الذى أكرمنا بك وأبقانا بك من الهلكة ، لقد كنت أرى أبى يأتى العري بحير ما له من الإبل والعجم فيدبحها للعري وبقيم عندها ثلاثاً ثم يصرف إلينا مسروراً ، ونظرت إلى ما مات عليه أبى وإلى ذلك الرأى الذى كان يعانى فى فصله وكيف جدد حتى صار يندح لما لا يسمع ولا يبصر ولا يبصر ولا يرفع» فقال عليه السلام . «إن هذا لأمر إلى الله ، فمن يسره ليهدى نيسر له ومن يسره لصلالة كان فيها»

وكذلك بلعت العرة إلى خالد قبل أن تبغ منه إلى الناس

ومن المهام التى بدت لها فى حياة السى مهمة بمترح فيها الشك بالأمل ، والرفق بالشدة ، والترعيب بالترهيب ؛ لأنها بعثة إلى أناس غلابين مجتمعى الرأى أولى عصبة ويأس وحنكة ولهم سمة يحالفون بها سمة العرب فى معظم أنحاء الجزيرة وهم بنو الحارث بن كعب بنجران

أرسله إليهم وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام ، فإن استجابوا قبل منهم
 وإن يفعلوا فله أن يقاتلهم ، فخرج إليهم وبعث الركبان فيهم يشيرون بالدين الجديد
 ويصرونهم بفصائله وأحكامه ، فاستجابوا له ودخلوا فيما دعوا إليه

وأقبل وفد من عظمائهم على النسي - بأمره عليه السلام - فقال حين رآهم : من
 هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهدى؟ قيل : يا رسول الله ، هؤلاء رجال بنى الحارث
 ابن كعب ، ثم سلموا ، ونطقوا بالشهادتين ، فقال لهم عليه السلام : أنتم الذين إذا
 رحروا استفدموا؟ وأعادها ثلاث وهم لا يحييون ، فلما أعادها الرابعة قال رعيهمهم
 يريد بن عبد المذان وفيه شمس وحيلاء - نعم يا رسول الله ، نحن الذين إذا رحروا
 استفدموا ، وكررها ربعا ، فقال النسي : لو أن حالدًا لم يكتب لي ، أنكم أسلمتم ولم
 تقاتلوا لألقيت رموسكم تحت أقدامكم ، فاطلق أس عبد المذان يقول : أما والله ما
 حمدناك ولا حمدنا حالدًا . قال : فمن حمدتم؟ قالوا : حمدنا الله عز وجل الذي
 هدانا لك يا رسول الله .

قال : صدقتم ، ثم سألتهم : كم كنتم تعبون من قاتلكم في الأهلية؟ قالوا
 متعصبين : لم تكن يعلب أحدٌ ، قال : بلى . كنتم تعبون من قاتلكم ، فعادوا
 يقولون : كن تغيب من قاتلنا يا رسول الله أما كن يجتمع ولا تفرق ، ولا يبدأ أحدًا
 بظلم

قال : صدقتم . وقفلوا إلى ديارهم ، فأرسل إليهم عمرو بن حرم يعقهم في
 الدين ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام ويأخذ منهم الصدقات

وقد شهد حالد مع النسي عليه السلام غزوتين لم يجر فیهما لقاء واشتباك ، وهما
 غزوة الطائف وغزوة تبوك .

وكانت غزوة الطائف تنمة لوقعة حنين ، لادت بها القبائل بعد فرارها وامتنعت
 وراء أسوارها ، وجمعت من بليلة من يكفيتها إلى السنة القادمة ، فأحاط المسلمون
 بالأسوار فرماهم المشركون بالنس كأنهم أسراب الطير ، وقتلوا وجرحوا وهم مسكنون
 في أسوارهم ، فمر حالد لهم بدعوتهم إلى النسي ولا يحسنه أحد ، ثم صاح به
 عبيد بالليل عظيم ثقيف لا يرسل مع أحد ولكن بقيم في حصص ، فإن فيه من

الطعام ما يكفينا سير ، فإن أقمت حتى يصي هذا الطعام خرحد إليك بأسياسه
جميعاً حتى يموت عن آخره»

فصربهم المسمول بالمحقيق وتقدم نهر من الصحابة تحت دبابتين من حلود البحر
يفتحون ثغرة في الحصن ، فأرسل عليهم المشركون سكك الحديد المحمأة فأحرقوا
الدبابتين وصدتهم عن السور

وأمر عليه السلام بكرومهم وبخيلهم فقطعت وهم يصيحون دعها لله
والرحم ، فقال عليه السلام : «أدعها لله والرحم» ، واستشار نوفل بن معدوية
الديلي في أمرهم فأحابه «يا رسول الله ثعلب في حجر إن أقمت أخذته وإن
تركته لم يضرك» .

وفي الطريق ، قسم السبي عنائم حنين قسمة لم ترض أباها ، فعصب رجل من
النافقين وصاح في حصرتة : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، فاحمر وجهه عليه
السلام غصبا وقال له : ويحك ، من يعدل إذا لم أعجل؟ ووثب خالد وعمر
بستأذانه في ضرب عنقه فأبى وقال : لا . لعله أن يكون يصلي ، فقال خالد
وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه؟ فعاد السبي يقول : إني لم أوامر أن
ألقب عن قلوب الناس ولا أن أشق عن بطونهم .

أما عروة تنوك فقد حرج لها السبي عليه السلام إلى حدود الروم سنة تسع للهجرة
في أعظم جيش شهده المسلمون في حياته ومن ثم ، أمر خالد أن يذهب إلى
دومة الجندل ليأتيه بالأكيدر أميرها ، لأنه كان في وسط الطريق بين الحجاز والعراق
والشام عينا للروم وحرثا للقواهل يدين لقسطنطينية بالعقيدة وبالطاعة ، ومن خبرة
السبي عليه السلام بالقبائل وأحوالها والأمراء وعاداتهم أنه قال لخالد «ستعده
بصيد النقر» . . فكان كما قال .

وقد ذهب خالد إلى الدومة في أربعمئة وعشرين فارسا فافتحم الحصن واضطر
من فيه إلى التسليم ومنهم الأمير ، وحاء به إلى اندبنة فصالحه السبي على الحرية
وعاهله على الأمان

وتم نعمة من غير هذا الباب ندب لها خالد ، ولم يندب شيئا قط في عهد السبي

ولا جهود حلفائه ، وتلث بعثته إلى سبي مراد ورييد ومدحح نعيمس ، يدعوهم إلى الكتاب ويعلمهم شريعته وأحكامه

فيل إنه مكث فيه أشهراً يدعوهم فلا يحيونه ، وإنه عليه السلام بعث بعده على بن أسى طلب وأمره أن يفعل حالداً ومن معه ، فإن أراد أحد أن يعقب معه تركه .

ولا عرانة عدى في هذه الذي حدث إن كان قد حدثت على الوحة الذي ذكره الرواة - فإن حالداً لم يسمع من القرآن ولا من فقه الدين كما سمع الصحابة من عاشروا السبي سنين بعد سنين ، وإنما هي سواب قلائل لم يفرغ فيها إلا بضعة أشهر من العروات والبعوث ، وقد أم الناس بالخير في خلافة الصديق - فقرأ من سور شتى ، ثم سلم والنفت إلى الناس معتدراً يقول «شعلنى الجهاد عن كثير من قراءة القرآن» .

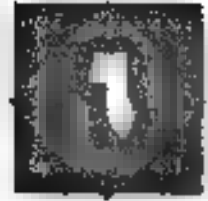


ويحور أن السبي عليه السلام أرسله في هذه البعثة ؛ ليدربه على الدعوة ويصير بعض وقته للمدارسة والمذاكرة بهداية من معه من فقهاء الصحابة ، ويحور أنه عليه السلام تعمّد أن يرصده بلبطل المشهور عمرو بن معد يكرب - فارس ربيد - نداه يكف من غربه ويلزمه التدبر في عاقبة نكته وانتفاصه .

وهي تواريخ السعة اضطراب قد يشكك الفرائ في بعض وقائعها وأعراسها فيجوز أيضاً أن السعة ومقت بعض التوفيق أو كل التوفيق وأن الرواة قد فاتهم في هذا الصدد شيء كثير أو قليل من التحقيق .

لكنها كانت ما كان مصيرها ومصير عشر من أمثالها لو مدت إلى عشر من أمثالها لتسقط من سيره خالد ويبقى له ما هو حسه من الطولة وصدق البلاء وليكون بها أو بعيرها خطيباً بين من مسر التاريخ ، وإن لم يحمله قط مسر التعليم

حروب الردة



لتفصيل الكلام في حروب الردة مكان غير هذا المكان لأن تناول منها في هذا الكتاب ما يتصل بأعمال خالد وتقديم حصائمه ومرايه ، وسدع ما عد ذلك مكانه من الشروح والمطولات .

وقد رجعت الردة كجميع الثورات والأحداث الاجتماعية - إلى أسباب محتتمة ولم تنحصر في سبب واحد ، وربما كان من أسبابها ما خصى على المؤرخين ولا يرون حافياً عينا حتى الآن ، ونكسا يعتقد أن الأسباب الآتية كافية لتفسيرها وتفسير مصيب خالد منها ، على القدر اللازم لفهمها وتصحيح دلالتها

فمن أسباب حروب الردة تمرد القبائل القوية على قريش ، وأقواها القبائل التي تنتمي إلى ربيعة دون مصر ؛ فإنها كانت تنعصب لسيبها وتأبى أن تغلوها قريش بفصل السوء والرتاسة ، وصرح بذلك طليحة النمرى حين لقي مسيلمة رعيمة بنى حيفة ومدعى السوء في اليمامة ، فقال ، أشهد أنك كذاب ، لكن كذاب ربيعة أحب إلينا من كذاب مصر .

وكان مسيلمة هذا يقول : إنه أراد أن يأخذ نصف الأرض ويترك نصفها لقريش «ولكن قريشاً قوم لا يعدلون»

ولم تكن المنافسة بين قبائل مصر أحف ولا أضعف من المنافسة بين مصر وربيعه ، فإن المنافسة هي الأقرب أشد وأيقظ من المنافسة بين الأعداء كما هو المعهود في كل قبيل ، فكانت ديبك وعسن وبوأسد تكره من سيادة الفرشيين ما تكرهه القبائل المعيدة ، وروى عن عيمية بن حصص مثلاً روى عن طليحة النمرى إذ قال يؤيد المتسرع طليحة بن حويلد «بني من الحبيبين أحب إلينا من بني من قريش» ، ويعنى بالخليقيين بني أسد وبني عطفان .

وكانت قريش تقابل مثل هذه النمرة بمثلها في أيام حصومتها للنبي وثورتها عليه . فكان صفوان بن أمية مشركاً في وقعة خيبر ، ولكنه أنكر من أحبه أن يفرح بنصر هوازن وخطائنها ، وصاح به وهزيمة المسلمين على أشده «اسكت فسن الله

فأنت أنتشرى بظهور الأعراب والله لأن يرسى رجل من قريش أحب إلى من أن يرسى رجل من هوارى» .

ومن أسباب الردة ، ثورة البادية على الحاضرة ، فما زال من دأب البادية هي كل زمان أن تنعم على الحاضرة سلطتها وعمتها ، ولم يشد عن هذه السه إلا بصع فئات فيما بين مكة والمدينة كانت تحشى من سطوة القبائل الكثرى ما ليست بحشاه من سطوة المدينتين ، وكانت تحتكم فى حصوماتها إلى وساطة أهل مكة تارة وأهل المدينة تارة أخرى ، فتؤثر مودة لحوار بعد طول الخيرة وطول العشرة على بلاء الفسة فيما بينها إذا زال سلطان مكة والمدينة ، ولم يعص هذه القبائل لحيدة يترقب ما يكون ، وأسرع بعضها إلى تنسية الدعوة ، فحارب فى صفوف المسلمين .

ومن أسباب الردة ، نجاح الدعوة المحمدية بعد فتح مكة . . فإن هذا النجاح أطمع بعض القادة من رؤساء العشائر فى بلوغ مثل هذا المطلب الخليل .

فما هو إلا أن استقر الأمر لمحمد فى الحجاز وما حوله حتى اشتأبت الأعناق للاقتداء به ، وص من طى أنهم قادرون على ما قدر عليه وأن المسألة كلها مسألة كهانة وأسماع وقيادة رأتاع ، وقصرت عقولهم عن إدراك سر القوة الأصلية التى هيات محمد كل ذلك التوفيق العظيم ، وهى أن دعوته مطلوبة لإصلاح الأخلاق والمعاملات ونظم الحكم والمعيشة فى العالم كله وليست مجرد بهرة تنتهر لظهور رئيس مطاع وتحقيق مجد مرموق . فبحم الدعوة فى حياة السى باليمن ، وحيد ، والبحرين ، غمارة الدعوة بالبحران ، وحاءت وفاته عيبه السلام إثر ذلك حراًهم على محاضرة بالعصيان .

ومن الأسباب التى أثارت القبائل ، فريضة الركة التى فرضها الإسلام على كل مستطيع ، فهى آثارهم يصنعهم بلال ، وأنصهم من الإذوة ، وحالعت ما ألفوه حتى من أكاسرة العرس ونياصرة الروم لأنهم كانوا يأحدون من هؤلاء أكثر مما يعطون ، وكانت الإتاوات التى يرصعون منها أقل من الملح لثى يورع عليهم بين حين وحين ، باسم الخلع أو الهبات

بل كان منهم من صاق درعاً بالمرائض فأسقطها لدعاة عنهم جميعاً وأعصوهم من كل فريضة ، ومنهم من أنف من السجود ، فقال لهم طيحة الأسدى «إن الله لا يصح تعصير وجوهكم ، فذكروا الله قياماً ، فإن الرعوة فوق الصريح»

ويلحق بهذا وأشياهه أن الدين الجديد لم ترشح حدوثه بعد فى نفوس الأقصير من أعراب البادية ، ولم تهجر طماعهم بعد عادات جاهلية فى العبادة والمعيشة ،

وقد كان المسلمون أعلم بهم من أن يذهبوا بلفاحاة من قتلهم ، لأنهم عرفوا طويتهم قبل ذلك من القرآن الكريم ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾

وليس أقرب إلى المألوف من مكرهم هؤلاء على أعقابهم بعد موت النبي وشيوخ الفتنة والاضطراب عن أيمانهم وشمالهم ، مع إعراب الدعة وحرط الخير إلى القديم وهو منهم حد قريب .

وثمة سبب لا يعمل ولو لم تذكره التواريخ بالسند القاصع والبص الصريح ؛ وهو الدعيصة المبنوثة من الدول الأحسية . كل منها بما يواظمها وهي قادرة عليه .

وهذا يفسر لنا أب السوة ظهرت من العرب أولياء فارس ولم تظهر من العرب أولياء الروم ، وهم العساسمة ومن حاورهم من قتائل التحوم السورية ، هؤلاء يديون بالمسيحية فلم يظهر بينهم مدع أو مدعة للسوة ، ولكنهم باوشوا المسلمين على التحوم مناوشة الحرب والوقعة ، أما التعديون على مقرية من فارس فلم يكن عليهم حرج من دولتهم التي تحميهم أن يحاربوا دين العرب الحديد دين آخر ، ولم يحدثوا حرجاً من عقيدتهم أن يسمعوا إلى المتنشين والمتنبئين ؛ لأن عقيدتهم هذه كانت مريحاً من لجوسية والوثنية ومسحة من المسيحية لا يرصاه أثناع كتاب ، فهذا ظهرت بينهم مسحاح وسبكت في التشير بدينها العحيب مسكاً لا يستريح العقل إلى تفسيره بغير تفسير واحد ، وهو أنها كانت تعمل لعرض سياسي وبإعراء دولة أحسية ، ولا تعمل لعرض ديني ولا بدافع من عنده وعند دويها .

فسحاح هذه كانت من بني يربوع أقرب بطون بني تميم إلى بغداد فارس ، ثم تزوجت في أحوالها التعديين بالعراق ، ثم انحدرت من ثم إلى أرض بني تميم مبشرة بدين حديد بعد موت النبي عليه السلام ، وانحدر معها حبش كثيف لا يُستهان بأمره ، فلما دعت قومها الأولي بني يربوع إلى هذا الدين طسوا إليها - على ما يظهر - أن تؤلف بطون بني تميم جميعاً إلى دسها قبل الرحف على الخجار غدارية اسلمس ، فلم يتمق سو قم على رأى ، وتركهم إلى اليمامة حيث كان مسيلمة الكذاب بشعر كدك للخروج على الإسلام ، ولم يكن أوفق لهما بهذه

المثابة من التعاهد على عرص و حد ؛ هو الرحف على الحجار ولكنها رحعت إلى قومها وهي تقول «إني وحدته على اخي فتروحت» وأنه سيؤدى لها نصف علات اليمامة وقد استنحرت شطر هذا النصف من مرجعها إلى بلادها .

فماذا خالفها بنو تميم؟ وذاك خالفها مسيئة؟ ولماذا انحدرت ثم عادت إن كان همها التيشير بدين جديد؟ ولماذا هبها مسيئة وأعطاها الحرية وهو يأنف أن يعطيها خيفة المسلمين ويحرد خربه حيشاً قبل إن عدته أربعون ألفاً وقيل من ستون ولم يقل عن عشرين ألفاً هي تقدير أحد من المؤرخين؟

كن أولئك ، لعز سحب لا يقسه العقل إلا على رحه واحد ، وهو أنها كست داعية الفرس لتحريض العرب على الثورة ، ومن ثم أصابت ما أصابت من الإحفاق أو النجاح

ويعر ذلك أنها لقيت في رحلتها عملاء فارس جميعاً من أبناء اليهودى العرقية والسحدية ، وأنها عملت حيث كان الأكاسرة حريصين على تجديد نفوذهم القديم

قال ابن الكلبي . «كاس عير»^(١) كسرى تبرق أى تخرس من المدائن حتى تدفع إلى العمان بن المنذر بخيرة ، والعمان ينفقها بحفراء من بني ربيعة حتى يدفع إلى هودة بن عبي الحصى باليمامة ، فيسرقها حتى يخرحها من أرض بني حبيشة ، وتجعل لهم جعالة ، فسير بها إلى أن تسع اليمن» .

وعلى هذا ، تكون مهمة سجاح قد وضحت على هذه الصورة التى لا لغير فيها ولا تناقض بين أحوالها .

ويكون بنو تميم وبني حبيشة وغيرهم قد عملوها المعاملة الواجبة لمن يعتر بصولة الأكاسرة ويخلف المنارة هي وقت واحد .

فقد هدمت وقعة دى فار ، التى مر ذكرها بأول هذا الكتاب ، هيئة الأكاسرة في الجزيرة العربية .

وساء ظن الأكاسرة بالندارة - ملوك الحيرة - انذيين كانوا صنائع فارس وكانت فارس تعمل عليهم في إحضاع البادية القريبة والبعيدة ، فتكلرو بهم وعصفوا بدولتهم قبل ذلك بقليل ، فأرسل الأكاسرة أميرة نعلية ، لتحلف المنارة في هذه المهمة القديمة

(١) العير القواميل .

وكان اختيارها من بني نعبت أدنى شيء إلى المعقول والمنظور؛ لأنهم أعداء بني بكر الدين تصدوا لحرب العرس وهرموهم في وقعة ذي قار.

ثم كان تردد بني تميم وبني حنيفة في معاملتها أدنى شيء كذلك إلى المعقول والمنظور؛ لأنهم أصدقاء لمبادرة من زمن هدم، فلا هم راضون بهو بهم ولا هم قادرون على إعصاب فارس وعاية ما في وسعهم، أن يصرفوا سحاح راضيه ويقنعوها بأن الثورة على الإسلام حاصلة، ويكون عندهم جميعاً معقولا على هذا التفسير حيث يعوره الفهم والوضوح على كل تفسير سواه.

من نحن نحظر هذا في أحلادنا، فمهم كيف اشتد التعلليون في حرب المسلمين وكيف اشتد المسلمون في حرب التعللين يوم اشتبكت جيوش الإسلام وجيوش الأكاسرة على إثر حروب الردة، فهي شدة لها أوائها وبهاية حاءت بعد بدانة ركاست رحلة سحاح إلى الخيرية العربية هي أولى الطلائع في حرب الأكاسرة والإسلام.

من حملة هذه الأسباب يحور لنا أن نقول: إن المدينة ومكة وحيرتهما كانت تقف وحدها في وجه البادية العربية بأسرها، ومن وراء البادية دول كثيرة تنصرها ولا تنصر المدينتين في هذه المعركة.

وقد كانت حروب الردة طائفاً من الشر لاشك فيه.

ولكنها ولا ريب لم تكن شرّاً محضاً حتى من جانب المصلحة والمائدة؛ لأن هذه الحروب وحدثت عاصر المدينتين وهما وشيكتان أن تفتروا كل مهترق، فاجتمعت منهما قوة تكافئ كل قوة في البادية على افراد، وتيسر لهما من ثم أن تأخذ من البادية قوة تغل قوى الدول الواقعة لهما بمرصد قريب.

ولولا حروب الردة؛ لكان الخلاف بين المهاجرين والأنصار حليفاً أن يشعب ويستفحل، وكان الأنصار فيما بينهم محتلين شيعة كبريتين ثم شيعة صغاراً في كل من الشيعة، وكذلك كان المهاجرون من هاشميين وأمويين ومن سائر بطون قريش، فإن بني هاشم على مردهم لم يجتمعوا بينهم إلى كلمة، ولم يكن لهم مطمع في الوفاق بينهم وبين بطون قريش الأخرى، ودع عنك الوفاق بين طوائف المسلمين أجمعين.

فلما تحصر الجادية للوثوب على المدينة ، أحسن المستمعون جميعاً أنهم فريق واحد ، مهدد بخطرو حد ، فاتفقوا بوحى السداهة التى لا موضع فيها لتعمل التفكير وحيلة الحص والتحصير ، ولبتوا متفقين ما كانوا بحاجة إلى الوفاق ، وما كان لشقاق بينهم مرهوب العواقب محذور الأخطار

وعنى عن لقول ، أن خالد بن الوليد كان فى وسط هذه الخومة بكل داع من دواعيه النفسية والعقلية ؛ بداعى العفيدة الإسلامية ، وداعى العصية القرشية ، وداعى الشاة الحصرية ، وداعى القيادة العسكرية التى قدمته إلى طبيعة المجاهدين فى هذا الميدان

فشهد حروب الردة من أوائلها إلى نهاياتها ، وقسمت له الحصاة الكبرى فى أهم وقائعها وأعصب أوقاتها ، ومنها وقعة واحة ترحح بها جميعاً وتعد من حروب الإسلام الحاسمة فى صدر تاريخه ، وهى وقعة اليمامة التى انتصر فيها بعد هزيمة فائدين .

ونقسم أعمال خالد فى حروب الردة إلى قسمين أحدهما الذى اشترك فيه مع كبار الصحابة بقيادة الخليفة فى المدينة وما حاورها ، والآخر الذى استقل به أو استقل على الأصح بساحته العسكرية ، وهو أعظم عملية فى هذه الحروب .

توفى لى عليه السلام وحيش أسامة بن زيد فى الحرف من أرباص المدينة ، والفتنة على مقربة منها تتطلع برءوسها ، فعاد فريق منه إلى المدينة وأشر بعض الصحابة على الخليفة أن يرحى مسيرته ويستبهبه عنده فتره من الرمن ريثما يطمئن فى عقر داره خلال تلك العاشية ، فأبى أشد الإباء أن يحلف وصية لى أوصى بها فى مرض وفاته ، وقال قولته المأثورة « والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ، ولو أن الطير تحطفتنا والسباع من حول المدينة ، وبو أن الكلاب حرب بأرحل أمهات المؤمنين لأجهز حيش أسامة » وبدى فى مسلمين ليتم بعث أسامة إلا لا يقين بالمدينة أحد من حد أسامة إلا حرح إلى عسكره بالحرف . .

وسار الجيش إلى وجهته كما أراد

فحدث المدينة من أحد إلا بصع مئات من رجال المهاجرين والأبصار ، ودرى قلوب المرندين إليها بحالها من العرلة وقدة الحامية ، فرحصو عليها ، وظلوا أنهم إد

هددوها وهى عرلاء وتوسلوا بالمفاوضة والوساطة فى الوقت نفسه - رجع الخليفة عن عيادته وقبل منهم ما ساءموه عليه ؛ وهو إقامة الفرائض كلها والإعفاء من الزكاة . أو من الحرية كما صموها!

زحمت مئذات من عس وديان وحرارة على المدينة ، وتركوا شجراً من جموعهم فى الرعدة حيث تلتقى طرق كثيرة على مسافة سبعين أو ثمانين ميلاً من المدينة ، وساروا بالشغل الآحر إلى دى حسا ودى القصبة وهى أقرب محنة إليها ، ثم أوفدوا سمرعهم ينزلون بالناس فى بيوتهم ويتوسلون بهم إلى الخليفة أن يقلل منهم ما عرصوا عليه . فأبى إباءه الدى لا يشى وقال لو معوى عاقباً لجاهدتهم عليه

فقبلت الوفود إلى جماعاتها ، وعلم الخليفة بقبولها ، وأحد فى التأهب للأمر بحرم العمل وحرم التدبير والخيلة بعد حرم الإيمان فلم يدع شيئاً قط يسعد به للخطر المنتظر إلا أعده فى أوبه وعلى الوحه الأمثل فى تلك الأحوال .

فأقام كبار الصحابة على الأبواب ، وجمع فى مسجد من استطاع جمعه من المجاهدين ، وأرسل العيون على الطرقات من كل سبل ، وما هو إلا أن جاءوه بسأ القوم ومواضع جماعتهم لمختلفه حتى حرج مع الليل ، يبصرهم من حيث لا يتوقعون فدومهم ، ودومهم من كان منهم بدى القصبة فدعروا بهذه البعثة التى لم تكن لهم على بال ، ولادوا بالفرار حتى لحقوا بأصحابهم فى دى حسا فشتوا هناك للمقاومة ، وقيل إنهم تحيلوا على إبل المسلمين التى لم تروص للفتاب فصرىوها بالأحباء المنهوجة فى وحوها ، فصرت وولت محممة من حيث أتت . فأطمعهم ذلك فى الهجوم على المدينة ، وصنوا أن أهلها لن يعارفوها يومهم على الأقل بعد هذه الهزيمة .

لا أن الخليفة لم يستظرهم معتصماً بالمدينة كما انتظرو ، بل خرج من معه فى هرب من الليل على نعثة كامة ، وهبط عليهم عند طلوع الصبح وهم على غير أهبة فلم يلبثوا قليلاً حتى صرقوا وارتدوا ، ولم تقم بعدهم قائمة فى هذه المحاولة الخاسره ؛ لأن جيش أسامة عاد من وجهته قبل أن يسعهم مدد نافع ، فبشسوا أن أحلوا المدينة عنوة أو عرة بعد ما أعياهم أحدها وهى هيئة الحامية مفتوحة الطريق

تلك كانت هجمة المرندى الأولى على معقل الإسلام طهر فيها المسلمون ؛ لأنهم اعتصموا بحرم الإيمان وحرم التدبير وحرم الوفاق ، وانخلل فيها المرندون ؛ لأنهم كانوا على نصب صئيل من هذه العدد الثلاث ، فحاسبهم عزيمة الدين وعزيمة

الرأى وعزيمة الكلمة الواحدة ، ولعلمهم لو شاءوا أن يتحدثوا كلمةً وفعلاً لفانهم صلاب ذلك ؛ لقلة الكلاء والذى يكههم مجتمعين فكان يفرقهم أعان المسلمين عليهم ، وعوصهم من قلة الجند رجحاناً يقابلون به الكثرة وهى محلة الوثاق

ومن عجائب الخليفة الصديق ، أنه كان يعتصم بالإيمان حتى يقال لم يدع مريدًا للحيلة والتدبير ، ويعتصم بالحيلة والتدبير حتى يقال به لم يدع مريدًا بالإيمان .

ففى هذه الفترة التى شغل فيها أولئك المرتدين بالهجوم والدفاع كانت رسله إلى كل مكان تستنفر القبائل الموالية للحددة ، وغشى بالوقية والتفرقة بين القبائل المعادية أو المترصصة للعداء ، وتأتية بالأخبار من كل صوب فيعمل وهو بصير ، ويعملون وهم متحفظون مصلوبون . .

فلم تنقص هجمة حرارة وعبس وذبيان حتى استنم له جيش كبير من أبناء القبائل الموالية فى حوار المدينة ومكة ، ومعهم جيش أسامة وعدته بضعة آلاف من المدربين على القتال .

ومضى رسوله «عدي بن حاتم الطائى» إلى قومه بنى طيى وهم بترددون : فريق بعضى الخلفة ويلحق بالمتسرى الأسدى طليحة بن حويلد ومعهم فلول المرتدين عن المدينة ، وفريق يحجم عن العصا ويؤثر البقاء والانتظار ، فأرهبهم من معية العصيان وساعده على إرهابهم مصير عيس وذبيان ، وأسدرهم ليهبط عليهم جيش لا قيل لهم يدفعه من تلك الأمداد التى تندفق على المدينة أو يثوبوا إلى الإسلام وإيتاء الركاة فأصعوا إليه ، وسألوه المهلة حتى يستخرجوا من الحن بطليحة من إخوانهم لئلا يقتلهم وهم بين يديه ، ووعده أن يدخلوا بهم جميعاً فى زمة جيش المسلمين

إلى هنا انتهت المرحلة الأولى التى اشترك فيها المسلمون جميعاً بقيادة الخليفة المدافعة المرتدين عن دينه ، وكان شأن خالد فيها شأن غيره من أبطال المجاهدين

وأن أن تبدأ المرحلة الثانية وهى المرحلة التى توزع فيها الأعمام بين القادة فى شتى الميادين ، بعد أن تمت العدة وتوافدت الأمداد من مختلف القبائل ، واستراح جيش أسامة ، وهدأت سورة القبط وبدأ الخريف ، وأصبح من المبسور للخليفة أن يوجه السعوث إلى المتسعين فى مواطنهم ؛ ليعجل كل منهم عن مراده قبل استعجال خطبه .

وفي أول هذه المرحلة ، يرى خالدًا بـ «دي القصة» حيث عقد له الخليفة لواء القيادة على جيش لا تتجاوز عدته أربعة آلاف مقاتل ، أكثرهم من أساء القبائل الموالية وأقلهم من المهاجرين والأنصار ، ووجهه إلى «برحة» من أرض بني أسد حيث اجتمع بنو أسد وقيس وحدثهم إلى المسير القادم بأمر الردة هناك طليحة بن حويد

وربما كان الصحيح أن خالدًا إما استغل في أول هذه المرحلة بعمل القائد العسكري في تنفيذ خطة مرسومة بتفصيلاتها ، إذ كانت هذه الخطة متفقاً عليها بينه وبين الخليفة ، وكان الخليفة انيقطان يأمره بما يصطع خطوة بعد خطوة ، ويسه إلى مواقع القبائل ومراطين الخطر منها على درجاته ، ويصحبه إلى بداية طريقه

قال الخليفة وهو يودع الجيش «أيها الناس ، سيروا على اسم الله وبركته ، فأمركم خالد بن الوليد إلى أن ألقاكم فيني حارح فيمن معي إلى ناحية خيبر حتى ألقىكم» .

ثم خلا بخالد وأسر إليه أمرًا ، ثم قال «عليك بتقوى الله ، وإيثاره على سواه ، واجتهاد في سبيله ، والرفق بمن معك من رعيتك ، فإن معك أصحاب رسول الله ﷺ وأهل السابقة من المهاجرين والأنصار فشاورهم فيما نزل بك ثم لا تحالفهم ، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيدًا من الحملة فإني لا أرى عليك الحوة ، واستظهر بالراد وسر بالأدلاء ، وقدم أمامك الطلائع ترتد بك المارل ، وسر في أصحابك على تعبئة حيدة ، واحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس مه ، واحترس من السيف فإن في العرب عرة ، وأقلل من الكلام وأقل من الناس علامتهم وكنهم إلى الله في سريرتهم ، وإذا أتيت درأ فاقحم فإن سمعت أدأ أو رأيت مصلياً أمسك حتى تسألهم عن الدين تقوم ، ومعوا الصدقة ، فإن لم تسمع أدأ ولم تر مصلياً شرب العارة ، فاقتل وأحرق كل من ترك واحدة من الخمس وإذا لقيت أسداً وعظمان فمعصهم لك ومعصهم عليك ، ومعصهم لا عليك ولا لك متربص السوء يطرأ تكون الدبرة فيميل مع من تكون له العلة ، ولكن الخوف عدى من أهل اليمامة ، فاستعن بالله على هالهم ، فإنه يدعى أنهم رحعوا بأسرهم ، فإن كفأت الله الضاحية فمصر إلى أهل اليمامة . . سر على بركة الله» .

ولم يكن لخليفة على سة المسير إلى حبر كما أعلن أمام الناس ، ولكنه لم يشأ أن يعلن سير الجيش إلى «براحة» بصاً لمقصد متعددة منها أن يحيف بطون طي

حين يقصد إليهم جيش خالد بقصه وقصيصه فيجهر على نقيه الردد التي بهجن
في صدورهم ، وسها أن يقنع طليحة بإرسال من عنده من طيئ لئحدة إخوانهم
والدفاع عن بلادهم ، ومنها أن يدهم طليحة على عرة وهو يظن أن الجيش متحه إلى
عير «براحة» ومنصرف عنها إلى حين ، وسها أن يلزم أهل حيسر أماكنهم فلا
يشتركوا في قتال . .

وقد عمل خالد بهذه الخطة ، فمضى في طريق «برحه» ، ثم عرج إلى اليسار
قبل منتصف الطريق كأنه يريد حمله على ديار طيئ ، وهناك وافاه فوق الألف من
مقانة البطون الطائية من يحلى عن طليحة أو كان على بية اللحاق به بعد قليل

وقبل أن يستوى خالد في طريقه إلى «براحة» جاءه أناس من الطائيين وعرضوا
عليه أن يكفوه حرب قيس ويعصيه من حرب بني أسد لأنهم حلفاؤهم ضد
الجاهلية ولم يكن لدى بن حاتم على رأى قومه فقال لخالد : لو ترك هذ الدين
أسرتى ، الأديى فالأديى من قومي لجاهدنيهم عليه أفأنا أمتنع عن جهاد بني أسد
لجاهلهم ؟ . فتم بشأ خالد أن يكفه أناسا على حرب من يسالوهم ولا يتحمسون
في قتالهم ، وقال لعدي «لا تحالف قومك ، ومض بهم إلى القوم الذين هم
لقتالهم أشد ، والله ما قيس بأوهى الشوكتين امضوا إلى أى القبيلين أحسن»

وأم تعنته لقتال وهو على الطريق ، فجعل القنائل على ميمنته والأبصار
والمهاجرين على ميسرته ، وصمد هو فى القلب مع فئة من هؤلاء وهؤلاء .

أما صليحة ، فالظاهر أنه كان أحذر من أن يؤخذ على عرة ، فإنه قد رصد العيون
على فحاح الصحراء فعلم بمقدم المسلمين قس وصولهم إلى «نزاحه» ، وأعد العدة
لكلنا الخاليتين من غلبة وفرار ، فعزل أكثر النساء فى مكان آمن لئلا يقعن فى
السبى إذا دارت الدائرة عليه ، وأقام حوله أربعين فارسا من أسد فتيان بنى أسد
ليدروا الهجمة عنه ، كأنه كان بعدم أسباب خالد فى قتاله ، إذ كان وكده قبل كل
وكذ أن يحلى بالصبر المصممة على رئيس القوم فسفت فى أعصا القوم حميما
بقتله أو يكفه على الفرار ، ولم يكن ضحكة حيا ، تنحى عن الصبر والصبر و
غيره ، بل كان مشهورا بالشجاعة معروف عنه أنه أفسه لا يدعو أحد إلى صارة ولا
أحده ، ولكنه كان على شجاعة أميل إلى خسر وخسفه منه إلى نجوه

والحماسة ، وكان في هذه الغصلة يقصص منه الذي يصادفه ويبارله بالسلاح والأخلاق ، فكان خالد أقرب إلى المجازفة والحماسة منه إلى الحذر والحيلة .

ولقد كانت لجيش طليحة مريان هما الكثرة والراحة . فقد كان جيشه يربو على جيش المسلمين بألف مقاتل أو زيادة مع وفرة السلاح والركائب ، وكان مستريحاً في دياره على خلاف جيش المسلمين الذي كان عليه أن يلقاه بعد مسير مئات من الأميال في الأودية والجبال .

ولهذا أوشك أن يموز بيومه لولا عزيمة من عزيمات القيادة التي تأتي في إبانها وتلور برحى الحرب من صرف إلى طرف هي ساعات معدودات

فلما التحم الجيشان ، ثبت طليحة وأصحابه ثبات المستميت ، وكرروا على المسلمين كرة عنيفة فكشفوا الميمنة ولحقت بها الميسرة وانقضت هبيهة حيل فيها إلى المسلمين أنهم منكسرون لا محالة ، وجاء بعض بنى طيئ إلى خالد ينصح له أن يترجع يومه ليعتصم بحبان طيئ ويستدح المرتدين إليها ، فأكر عليه نصيحته ورجره قائلاً : لا أعتصم بغير الله !

ثم عول على الكرة في كبة الجمع ليسلح النصر أو يموت دونه ، فأرسل فرسه وترحل مقاتلاً على قدميه ؛ يملك الحركة حيث يشاء ويبعث الفسوف في قلوب أصحابه ، وبأدى بالأبصار كأنه ذكر موقف النسي يوم حنين : يا أبصار الله . فلبوه مدفعين إليه ، وثاب أبناء القسائل إلى مواضعهم واستحرقوا القتل في الفريقين حتى قتل حرس طليحة جميعاً ، واستقر هو في «دثار الكهانة» يؤهمهم أنه يتلقى الوحي أو ينتظر المند من السماء .

وقد كان أتباعه يحبون أن يؤمنوا به محامدة له ومرصاة لكبرياء القسيلة في أنفسهم ، فلما حد الحد أحبوا أن يروا لهذا الإيمان علامة ، وسأله زعيم فرارة عبيثة بن حصص وهو من أعز أنصاره وألد أعداء المسلمين : «هل جاءك خبرين؟ قال لا . ثم رجع له مستعجلاً وحي السماء صائحاً به - وقد سى في غضبه أنه يخاطب على رعمه نبأ من الأنبياء لا أبالك أحباءك صاحبك؟ قال لا . فصاح به حتى متى؟ قد والله بلغ منا . فلما عادته الثالثة جعل أن يحييه حوانه الأول وقال له نعم . جاءني وأوحى إليّ «أن لك رحى كرحاء ، وحديثاً لا نسب .» فسحرمه عبيثة وقال : «نعم . هو حديث لا نسب» ، وبأدى في قومه وهو مؤمن بهزيمة طليحة

وإدبار أمره ، انصرفوا يا بني فرارة ، إنه لكذب ، وجعل طليحة يسألهم من خبرته ما يهرمكم؟ فأجابه أحدهم : «أنا أحدثك ما يهرمنا ، إنه ليس راحل منا إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قلبه ، وإن ليلقى قوماً كلهم يحب أن يموت قلب صاحبه» .

وأدرك طليحة خبره ، وكان قد أعد لهذا الخبر عدده ، فركب فرسه وأردف امرأته النوار عبي راحله وراءه ، ونجا بها وهو ينادي أتباعه .

«من استطاع أن يفعل هكذا فليفعل» ، ومارال في فراره حتى لحق بالشام

وتعقب خالد قبول المرتدين ومن مالأهم من قبائل هوزن وسديم حتى لحق بهم في «ظفر» حيث أحاطوا بسدمي أم رمن وهي كأثمها من قبلها مصروا المثل في العرة والمنعة . كان يقال عن أمها «أعر من أم قرنة» ؛ لأبها تعلق في بيتها حمسين سيف ، كل سيف منها لرحل من ذويها ، وقد سست هو في عهد النبي عليه السلام فأعتقتها السيدة عائشة رضى الله عنها ، فدهست إلى قومها معصية لتلك العرة التي انتهى بها عباد قومها إلى لأسر والخدمة ، واستارت حمية الرجال بهذه العصية التي تنير الطبيعة البدوية ولو لم تجتمع إليها بواعث أخرى للعصب والثورة . فدار بين خالد وبين جيشه أحر قتال ، ووقفت هي على حمل مشهور تصرم السحوة في قلوب جندها ، وترد الشجاعة إلى من أدبر للفرار ، ومصى اليوم وهي تكافح ومن حولها رعماء جيشها بكافحون ، فجعل خالد مائة من الإبل لمن يصيب الجمل . وأرسل بحبه من فرسانه عليه ففقروه ، وفيل إنهم لم يصلوا إليه حتى قتل من دونه مائة رجل من حماتها المستبشرين

وقد تعرفت سرايا خالد في أثر المهر من تصرمهم ونجمع لأسلاب والعائم وتدعو إلى الإسلام

فلم تنص أيام حتى كان قد فرع من مهمتيه الأولى ، وهما : الإذار والتعلب على الفتنة ، وبقيت مهمته الأخيرة وهي القصاص والتأديب ، ولعلها كانت ألرم وأحرم من قمع الفتنة وتمريق الحيوش ؛ لأن المرتدين كانوا قد أسرفوا في التشكيل بالمسلمين الذين أصابوهم بسهم ولم يتورعوا عن مثله من المثالات التي بتورع عنها انقاتل الكرم ، وأصابوا أولئك العزل المفردين في غير ساحة حرب وبغير ندير من قتال ، فكنت أوامر الخليفة إلى خالد صريحة ألا يسي في عقاب المعسدين «ولا يظفرون بأحد قتل المسلمين إلا قتله ويكر به غيره» .

ولم يكن خالد في مواقف الصرامة والبطش بحاجة إلى تأكيد وتشديد ، فلم يقبل من المرتدين إلا أن يأتوه « بالدبس حرقوا ومثبوا وعدوا على المسلمين » ومثل بهم فأحرقهم بالسيوف ورضحهم بالحجارة ورمى بهم من الخصال كصعيتهم بأوثان الأبرياء الغافلين عن عدوانهم الدميم ، وقاد رؤساءهم في حوامع الحديد إلى الخليفة ليصنع بهم ما يشاء .

وذلك درس لا شك أنه عنف محيف ، ولكن لا شك أنه عادل في شرعة الحرب والسيم ، وأنه لارم كل اللزوم في أحوال كنتك لأحوال .

وأيا كانت المثالات بالمرتدين ، فهي على التحقيق لا تنحاور المثالات التي تؤمر بها « حملات التأديب » في عصرنا هذا لمعاقبة أساس لم يقترفوا مثل ما اقترفه المرتدون ، ولم يقربوا فعالهم بحرية الخروج على عقيدة أو شريعة ، ولا بتهديد « المولة » في كتابها وهي أحوال ما تكون إلى الأمن والصمان . .

ومع هذا ، وجد من كسار المسلم من لام حالداً على الإمعان في تأديبه على النحو الذي نجاه ، فقال عمر بن الخطاب للحليفة مكرراً إحراق الناس : بعثت رجلاً بعذاب الله ؟ انزعده !

فلم يستمع إليه الخليفة ؛ لأنه كان في حقه على المرتدين لا يستعظم عليهم صرياً من صروب العقاب .

ومهم يكن من محاربة هذا العقاب لطبع خالد . فهذه البعثة بين بعثاته جميعاً هي بعثة التمهيد المحض الذي لا يشوبه نصيب من الاستقلال ، ألهم إلا استقلال القائد الكفاء بحسن القيام على ما وكل إليه . .

وبما لا عسى عنه قبل الانتقال إلى أعمال خالد المستتقة في بقية حياته أن تتحرى نصيبها من إطاعة الأمر ، ونصيبها من الإقدام على العمل غير مأمور به ولا محمود عليه

فيحور لقائل في هذا الصدد أن يقول إن الخليفة لم يرسم لخالد خطة القتال وبدائرة في بعثة « براحة » وإنما أفضى خالد بهذه الخطة إلى الخليفة فأقرها ووافق عليها

ذلك حائر غير صعب الحوار ، ولكننا على هذا مرجح أن الخليفة هو صاحب الخطة من ألفها إلى يائها ، وأن نصيب خالد فيها هو نصيب الإقرار والموقف ، ويميل بنا إلى

هذا الترحيح أن مصائح الخليفة في بدء المعنة قد شملت الصعائر والكسائر ، وتناولت تفصيل الحركة كما تناولت تفصيل البدن الصحيح عن مواقف المرندين في كل قبيلة وكل ميدان ، وأن الخطة قامت على التورية والسوق بالهجوم ، وكلاهما مما تعلمه الخليفة الأول بعد طول الصحة من النسي عليه السلام ، إذ كان مأثوراً عنه أنه كان إذ قصد وجهة ورى بعيرها ، وأنه كان لا ينتظر الهجوم بل يسبق الهاجمين إليه ، وقد جرى الخليفة على ذلك في دفاعه عن المدينة قبل مسير البعوث وعقد لألوية للقواد

كذلك تواترت بعض الأقوال بمسير خالد إلى بني عيم - بعد معركة البراحة - فس أن يأتيه أمر الخليفة بالهجوم قيل إن الأنصار أنكرو عليه المسير إلى بني عيم وقالوا له . ما هذا عهد الخليفة إلينا ، إذ عهده إن نحن فرعنا من البراحة واسترنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا ، فقال لهم خالد . «إن يكن عهد إليكم هذا فقد عهد إلى أن أمصى ، وأنا الأمير وإلى تنتهي الأحبار ، ولو أنه لم يأتني كتاب ولا أمر ، ثم رأيت فرصة إن أعدمته بها فانتني لم أعدمه حتى أنهرها»

بل قيل أكثر من ذلك ، إنه أعار على الإمامة قبل أن يأتيه الأمر من الخليفة بالإعارة عليها وهي أهول حروب الردة بل نعلها أهول من معظم حروب الفرس والروم

فرعم قوم أنه قال لصحبه بالطاح : والله لا أنتهي حتى أناطح مسيلمة ، فأبى الأنصار وقالوا . هذا رأى لم بأمرك به أبو بكر فارجع إلى المدينة ، فأصر على رأيه وقال . لا والله حتى أناطح مسيلمة ، فرجعت لأنصار فسارت ليلة ثم قالوا : والله لئن بصر أصحابنا لقد بدما ، ولئن هرموا لقد حنلناهم ، فرجعوا إليه ومضى بهم إلى الإمامة .

والذي لا روع منه أن الخليفة لم يبعث أحداً غير خالد إلى بني عيم ، ولو بعث غيره لصح أن يقال إنه سار إليهم غير مأمور ، ولكنه قال عند مسير جيشه من ذي القصة «إذا هرع سار إلى مالك بن نويرة بالطاح إن أقام له»

أما الإمامة ، فقد بعث إليها الخليفة عكرمة بن أسى جهل ثم رأى حاجته إلى المدد فوجه في أثره شرحبيل بن حسنة ، وأمرهما أن يتلاقيا ولا يفردا بالهجمة على الإمامة ، ثم بدا لعكرمة أن يستأثر بالنصر وحده ، فهجم على مسيمة قبل أن يوافيه المدد فكبت كربة شديدة ، ونقى الحبيصة نبأ هذه التكة ، فكتب إلى شرحبيل يأمره بالتوقف حتى يأتيه أمره ، ولم يقل أحد إن الخليفة وجه قائداً غير

حالد لخدمة شرحبيل ، ولا كان معقولاً أن يكفى شرحبيل بعد هزيمة عكرمة وقد كان كلاهما عنده فى حاجة إلى التعزيز والإمداد .

وفد تقدم أن الخليفة قد نصر خالدًا شأن الإمامة قبل خروجه إلى السراحة .. وبسعة من داع إلى الشك فى سسه ذلك المقال إليه ، ولا إلى الشك بعد هده جميعه فى تولية خالد قيادة الجيش الذى سر إلى الإمامة ..

ومن المتواتر جدًا أن خالدًا لقي الخليفة بعد مسيره إلى بسى تميم وقبل مسيره إلى بسى حبيفة ؛ لأنه استدعى لسؤاله عن مقتل مالك بن نويرة ورواحه من امرأته ليلى ، فهو قد توجه إلى الإمامة ماديًا مأمورًا بعد وقعة السراحة وبعد وقعة بسى تميم وعدده كاله ، يكاد يستحيل على العفل أن يقل أن خالدًا قد تولى حربًا كحرب الإمامة ، شترك فيها أعظم الصحابة واستهدف المقادير فيها لأكبر الأهول دون أن يندب لذلك بأمر صريح .



وعادة ما يفهمه الآن من ورود ذكر الإمامة عند عقد الألوية فى ذى القصة أن الخليفة عرف خطرها ؛ فأراد أن يجمع لها أكبر قوة من حيوشه المختلفة .. وأرد فى الوقت نفسه أن يشعر بسى حبيفة بأنفسهم ، فوجه إليهم عكرمة أولاً ثم وجه شرحبيل بعده لبتلاقيا معًا ، ويكون خالد قد فرغ فى خلال ذلك من أمر بسى أسد فيدرك سابقيه معزز لهم إن تعدر عليهم أن يقهروا بسى حنيفة قبل قدومه ، وهى حطة ثلاث ما عرف عن حطط الصديق من حرأة وحطة وسرعة ، ولا يبع هذا أن الخليفة أمر خالدًا أن يرجع إليه بعد كل مرحلة من مراحل هذه السعة لعله قد استحدث شىء فى غيابه .

وفحوى الأقوال الكثيرة التى تتفق بالدهاء على هده السق أن خالدًا قد تولى التنفيذ فى ترتيب أعماله وتولاه أيضًا فى أوائل حططه ، ولكنه قد وكل إلى نفسه فى الأمور التى يعلمها الشاهد ولا يعلمها العائب ومنها مرعد المسير وطريقة الهجوم واللقاء ، فقام بما وكل إليه جميعًا على أكمل الوجوه وأقمها بموافقة الخليفة ، لا فى موضعين لكل منهما لرباط مسألة رواح أحدهما فى البطاح ، والآخر فى الإمامة فقد تعرض فيهما لمؤاحدة الخليفة ومؤاحدة كبار الصحابة ، ولم يرض فيهما عرف الجاهلية أو عرف الإسلام .

وطاهر من مقال الحبيبة في دي القصة أنه لم يكن على بعين من عداء بني
نميم ، أو من ضرورة القتال في أرضهم ، وإنما كان يعلو الأمر على موقفهم عند وصول
جيش المسلمين إليهم ، وبخاصة بعد وفود رعماء منهم بإعلان الطاعة وإيتاء الركة .

وليس أدل من هذا على أن الصديق عليه السلام قد كان يعمل عمله في حروب الردة
جميعاً وهو على استطلاع وثيق وعلم واف بأحوال كل طائفة من المرتدين ، وإن من
دواعي انتصاره وفاء أحباره بحاجات القتال ، ونقص أحبار المسلمين عند القائل
للمرتدة بعيدها وقريبها على السواء .

فتقديره لموقف بني أسد ضد المدينة كان أصح تقدير .

وكذلك كان تقديره لموقف بني حبيشة في اليمامة . .

ومثل هذين في صحة الإلمام بالأحوال المختلفة شكه في ضرورة القتال بالسطاح ،
وتعليقه القتال مع مالك بن نويرة على شرط ، وتخصيصه مالكاً بالذكر دون
الأحرار من رعماء بيوت بني نميم

هالواقع في أمر بني نميم - كما نعلمه اليوم - أنهم لم يبطروا على حطرح جسم ،
وإن احتلفت في بيانهم الطون

وتاريخهم قبل الإسلام بعشرات السنين ؛ يؤكد هذه الحقيقة ، ويوحى إلى
الخليفة رأيه الذي ارتأه .

كانوا في أجهل أيام الجاهلية في طليعة العرب كثرة ومنعة وسعة بلاء ووفرة ماء
ومرعى .

وكانوا يحترقون على المغامرات التي تفرق^(١) منها القبائل الأحرى ، فيطشوا مرة
بقافة عظيمة من قراهل العرب التي تسير في رعاية الدولة الفارسية وحراسة أناس
من بني حبيشة وفارس دولة ضخمة يهانها العرب ، وسو حنيفة قوم من المنعة
والعزة بمكان . فلما استشار كسرى بعض رعماء بني حبيشة في عقوبتهم قال له
« إن أرضهم لا تطيقها أساورتك وهم يتبعون بها ، ولكن احبس عنهم الميرة ، فإذا
فعلت بهم ذلك سة أرسلت معي حرداً من أساورتك ، فأقيم لهم السوق ، فربهم
يأتونها ، فتصيبهم عند ذلك حيلك » .

(١) تفرق بفتح التاء والراء أى تخالف

وكذلك لم يتمكن منهم كسرى حتى مع عنهم حاجياتهم من أرض اخصارة
في سنة محدبة ، واستعان عديهم بمن يستدرحهم إلى مكان يسألون فيه

ولكن سى تميم عسى هذا كانوا مثلاً من الأمثلة البادرة على عجائب لخطوط في
هذه الدب فقلما ظهر للمعتبرين أن الكثرة والسعة والمعة والوفرة تنقبت أحياناً إلى
نعمة تشبه القنعة والصك والخوف كما ظهر ذلك في شأن سى تميم

فقد كانت كثرتهم وسعة بلادهم وكتفاء كل بلد منها بمراعيه وأموره سبباً
لتمزقهم وتصدع وحدتهم وتعذر الإجماع بينهم على رئيس واحد فتشعبوا بطوناً
يدين كل طي من لرتيس من بيوتنا في البطن الواحد يبلغ من تنافسهم أن
ينحاربوا ويتوارثوا الترات^(١) ، ويصح التوفيق بينهم أعسر من التوفيق بين أحدهم
والعرب الطارئ عليهم من الأعداء والأصدقاء

وكان هذا شأنهم يوم ظهرت الدعوة الحميدية ، فلما بلغهم حواف كل منهم أن
يرفضها فيكون منفسوه الوهمون له بالمرصاد حرباً عليه ، فأجاب رؤساؤهم الدعوة ،
وأفرهم السى على رئاستهم ، ومنهم البروف بن بدر عسى الرباب ، وقيس بن عاصم
على مقعس والبطون ، ووكيع بن مالك عسى سى حنطه ، ومالك بن بويرة عسى
بى يربوع وهم بيت من بيوت بنى حنظلة الكبار .

وكن أولئك رجال من دوى الرأى الراجح والقول الناهذ والمناقب «الشخصية»
ويشار من بينهم مالك بن بويرة بما أحرى لم تتفق لواحد منهم ، وهى الساقة
والطرف والمصاحبة وحسن الغاصرة ، مع الوسامة والصاحبة وأناقاة الرى والشارة ،
وهى فى حملتها تلك الصفات التى ترشح صاحبها لمأسى البطولة فى قصص
الحياة ، من واقع أو خيال .

كانت فيه حيلاء وحيلة ، وكان متلافياً لا يبقى على مال ، وكان فارساً شاعراً
محدثاً ظريف المدخل على من يعرف ومن لا يعرف ، ومن داك أنه كان يقصد الحى
من أحياء لأعداء وله فيه أسرى يريد فكاههم بالمدبة المصطلح عليها ، فلا يحدث
أهل الحى ههنا حتى يحلبهم بحديثه ويأسرهم بطرقه وحسن سمته ؛ فيردوا إليه
أسيره بغير هدية ، ويمترقوا وهم أصفياء

(١) الترات جمع ترة وهى التوتر أو النار

وكان مالك هذا أول من قصدت إليه سجاح أنثى عند منحدرها من الخربة .
فصرفها عنه بلبافته إلى ملاقاته البطون لأحرى من نبي تميم ، ولعله رى به أن
تجمعهم إليها عصه واحدة ، لعلمه باستعصاء ذلك عليها وعلى غيرها وأن
وشبكة أن تنتقم له منهم إن هي دعتهن إلى الالتفاف بها فسم يحيوه .

ولم ترل الأبناء قبل مقدم سجاح وبعد مصرفها يتابع بعضها بعضاً
بانكسار المرتدين وعبية اسلمين عليهم ، إلا ما كان من هزيمة عكرمة في اليمامة
وانتصار بني حنيفة عليه ، وهو انتصار لا يسر بني تميم لشدة المرافقة بينهم وبين
بني حنيفة .

فلما أحد الخبيثة في عقد الألوية وتسبير السعوث كان سو تميم على حانهم
المعهود من التفرق والراقبة بعضهم لبعض على نوحس وحذر ، فسبق بعضهم إلى
المسبة بحصته من الزكاة ، وتأخر بعضهم حتى رل خالد بأرضهم فدفعوها إليه ،
وتحير مالك من نورية ، فلم يعزم على الحرب ولم يؤد الزكاة

وأعلت الطل أنه بدد ما جمع من الصدقات في هباته وملاهيه ، ثم ليم في ذلك
فأجاب لائمه بأبيات قال فيها

وقلت خذوا أموالكم غير خائف ولا ناظر نيم يحيى من الغد
فإن قام بالأمر الخوف قائم منعنا وقلنا الدين دين محمد

يعنى أن محمداً هو صاحب الدين وصاحب الزكاة ، وقد مضى محمداً فليس
لأحد بعده أن يتقاصاه .

وهو على الحملة موقف رحل مسرف « لا ينال ما يحيى من الغد » ، كما قال
وليس بموقف عناد وتحمل لقتال .

فلما رل خالد بالبطاح لم يجد أمامه أحداً يلقاه بزكاة أو يلقاه بقتال فعسكر
حيث نزل وأرسل السرايا في أثر هذا البطاح ، فحاءته بمالك بن نورية في نمر من
بني يربوع ، فحبسهم ثم أمر بقتلهم ، وحدث بعد ذلك أنه تروح بأمرأة مالك لبلى
أم تميم ، وكانت من أشهر ساء العرب بالجمال ، ولا سيما حمال العيسين
والسافين يقال إنه لم ير أحسن من عنيتها ولا سافيتها

وتضطرب الروايات هنا أبعد اضطراب وأنصعبه أن تهتدى منه إلى مخرج متفق عليه

ومن قاتل إن أناريا وحدث من يربوع يصلون وسمعت الأذان ، ومن قاتل من
نر صلاة ولم تمنع بأذن

ومن قاتل إن الأسرى قتلوا لأن الليلة كانت باردة وبأدى من قتل خالد أن
«دفعوا أسراكم» ، ففهم الحراس أنه يريد القتل ؛ لأنهم من بني كنانة والمدفأة
بهمجنهم كناية عنه .

ومن قاتل إن مالكاً قتل بعد محادثة حامية جرت بينه وبين خالد . ثم
تضطرب الروايات في نقل حديثهما ، فلا يدري له نص صحيح فقبل إن مالكاً
صرح بأنه لا يعطى الركاه وإنما يفيم الصلاة ، فقال خالد أم علمت أن الصلاة
والركاه معاً لا تقبل واحده دون الأخرى؟ فقال مالك قد كان صاحبك يقول ذلك ،
فانحد خالد قوله دليلاً على تبرئه من السبي وهذا له . أو ما تراه لك صاحباً ، ثم
حمى ، لحدن بينهم حتى أمر بهتته ، وسحت الخرفة بعد ذلك سيحها الذي لا
يتماسك نوهيه ، فزعموا أن خالدًا أمر برأسه فجعل مع حجرين وطح عسى الثلاثة
قدراً فأكل منه ، وأن شعر مالك جعلت النار تعمل فيه إلى أن نصح اللحم ولم يهرغ
الشعر وهي حرافة تروى ؛ لندنا على شيء واحد . وهو وجود المحققين الراعين في
الشهير بخالد وشيخ أعماله وإيعار الصدور عليه

وقيل إن مالكاً لمح في عيسى خالد الإعجاب بامرئته فصاح به : هذه التي
قتلتني ، فقال له خالد بل الله قتلك برحومك عن الإسلام

ويذهب بعضهم إلى أكثر من هذا ، فيزعمون أن هوى خالد لها سابق لحرب
الردة ، وهي ذلك يقول أبو غير السعدى

قضى خالد نغماً عليه بعمره وكان له فيها هوى قل ذلك
وقيل إن خالدًا توعد مالكاً بالقتل ، فقال له مالك أو بذلك أمرك صاحبك؟
قال خالد : وهذه بعد تلك؟ ثم تكلم أبو قتادة الأصبري وعبد الله بن عمر في أمره
فكره خالد كلامهما ، وعاد مالك يقول له : يا خالد : انعشنا إلى أسى نكر فمكون هو
الذى يحكم فيه ، فقال خالد لا أقالى الله أن أقتلك ، وتقدم إلى صرار بن الأرو
أن يصرب عنقه . ويريدون على ذلك ، أن خالدًا دعا أبا قتادة الأصبري وعبد الله
ابن عمر إلى حضور عقد الروح بليلى بعد مقتل زوجها فأبوا وأشارا عليه أن يكتب
إلى أبي بكر ، فلم يستمع إليهما .

وغضب أبو قتادة ، فأقسم لا يجمعه بعد السوم وحالداً لواء واحد ، وقص إلى المدينة حير مستأذن من قائده ، فلقى الخليفة ولقى عمر بن الخطاب ، فكانت عصبة عمر أشد وأعنف ، وطلب إلى الخليفة أن يعرله وأن يقيمه قتيلاً إن سيمه فيه رهق ، فلم يحبه الخليفة وقال له يا عمر ، تأول فأخطأ أرفع لسانك عن خالد . فإني لا أشيم سيفاً لله على الكافرين .

وبكاه ودي^(١) مالكا واستدعى حالداً إليه ، فلما قدم إلى المدينة رأى عمر منه ما رده عصياً وشدة في طلب القود^(٢) منه . رآه قد دخل المسجد وعليه هاء وقد عرر في عمامته أسهماً فهض إليه فزعها وحطمها وصاح به . « قتلتم امرأة مسلماً ، ثم تروون عني امرأته ، والله لأرحمكم بأحجارك » . .

فتركه خالد ولقى الخليفة فاعذر إليه فعممه الخليفة وأمره أن يعارق ليلى ثم عما عنه واستبقى خدمته ، فعاد خالد إلى المسجد وفيه عمر . . فبادره حين رآه مناحراً هدم إلى ابن أم شملة ، فعرف عمر أن الخليفة قد عما عنه ، فلم يكلمه ودخل بيته .

وحسبنا من هذه الأقوال حميماً أن يقف منها على الثابت الذي لا يراعى فيه . والثابت الذي لا نزاع فيه أن وجوب القتل لم يكن صريحاً قاطعاً في أمر مالك بن نويرة ، وأن مالكا كاد أحق بإرساله إلى الخليفة من رعماء فرارة وغيرهم الذين أرسبهم خالد بعد وقعة البراحنة ، وأن حالداً نروح امرأة مالك وتعلق بها وأحدها معه إلى البهامة بعد لقاء الخليفة

وأوجب ما يوحى الحق عليها بعد ثبوت هذا كنه أن يقول : إن وقعة البطاح صفقة هي تاريخ خالد كان خيراً له وأحسن لو أنها حدثت ولم تكسب عني قول من جميع تلك الأقوال ؛ لأنها لم تضف إلى فخاره العسكري كثيراً ولا قليلاً ، وأهدفته لئلام أحمد ما يحمد منه أن له عدواً فيه ، يقبله أدس ولا يقبله آخرون

يجب تقرير هذا عند تقدير خالد ؛ لأنه الحق الذي لا يعلو على ميرانه ميران في ترجيح الرجال والأعمال . .

(٢) القود أي التعويص

(١) ودي أي دمع الدية .

ولأن الرجل الذي يحشى على قدره من تقرير أخطائه رجل لا يستحق أن يكتب له تاريخ إذ معنى الخشية عليه من أخطائه أنه قصير في الحسب والعظام ، وأنه من العقر في هذا الجباب بحيث تعصف لأخطاء بغطائه وحسانه ، ولم يكن خالد بن الوليد كذلك ، بل كانت له في ميروا العظمة والعنقرية كفة راجحة ، ولم يكذب برجل عن البطاح حتى اتصلت له حلقات من كبار الأعمال تورع على عشرة رجال ويحد كل منهم في نصيبه كمايته من الفصل والرححان

حرج من البطاح إلى اليمامة

حرج من وقعة لا خطر لها إلى وقعة لها خطر الأكبر في حروب الردة وفي حروب الإسلام كافة خلال أيام الخلفاء الراشدين

ويرجع هذا الخطر إلى قوة سبي حبيفة أصحاب اليمامة ، ودهاء رئيسهم مسيمة ابن تمامة ، ومعة بلادهم بالخيال ولأودية ووفرة الماء والثمار

هاتها أصحاب سحاح ، وقلوا لها حين حدثتهم بعروها - بن مسيلمة قد استمحل أمره وعظم . فم نهون عندهم خطيها حتى استبرلت لهم سحجات من وحيها المرعوم تقول فيها . «عليكم باليمامة دفوا ذهب الحمامة ، فإنها غروة صرامة ، ولا تلحقكم بعدها ملامة» .

وكان مسيمة هذا رجلاً قصيراً أحسن لألف أمطيه شديد الصبرة يرى الهيئة ، ولكنه على ما يؤخذ من أحباره كان على ذكاء مفرط وحيية نافذة ، وكان من أولئك الدهاة الذين يعوضون بالخييلة ما فاتهم من الهيئة والرواء ، فاشتهر بالخلابة والقدرة على استهواء النفوس من الرجال والنساء ، فمن حالاته أن السبي عليه السلام أرسل إليه رجلاً من قرء القرآن ، ليعلم أهل اليمامة أحكام الإسلام ويبصرهم بالمرائص والعبادات وهو نهار الرجال ، مما لبث الحبيث أن استعواه حتى شهد له أنه يوحى إليه وأنه سمع النبي عليه السلام يقول إنه قد أشركه معه وشهد له بالنبوة - وقد استعوى سحاح - وهي تدعى النبوة - حتى شهدت بشيوته وتزوجته وانصرفت من بلاده بنصيب من الهدايا بقعها بالذهب ولا يصمن لها التكرار ، وكأنه كان على حظوة عند النساء وحبرة بأهوائهن وأساليب مرضاتهن ، فقد كان سائوه يحبيه ويحرج على ، وصاحت إحدى ساعته أن قتله وحشى بن حرب مولى حنير بن مطعم «والأمر الوصاءة . قتله العبد الأسود ..»

وحديث بهذا أن يظن به السحر وسنظر منه الخوارج بين الجهلاء ؛ لأنهم يرون
سلطانه ولا يعلمون مآلناه ، فيحيل إليهم أنه سر من العيب أو معونة من الحنة
والشياطين ، وهو على هذا كان يعين حينته بما استطاع من صناعة الشعوذة
ولأن العيب الذي كان يحدقها بعض الكهان في بلاد العرب والعجم ، فكان قبل
ادعائه النبوة يطوف بالأسواق ويعلم «البرعيات» حيث سمع بأفادتها المبررين
فيها ، ولم يكن في طبيعته عرل عن طبائع السحرة وأدعياء العيب . فقد قبل في
وصفه وهو ينكهن «إنه إذا اعراه شيطانه أريد حتى يخرج الربد من شقيقه» .
ولأغلب الأرجح أن به صرع كأولئك الذين بشبهوه في الخلاق والدعوى ،
وسهم الذين يعالجون «الاستهواء» من استهوين أو الوسطاء

ولسلطانه على أبناء قبيلته أحبوه ورثقوا به وأطعوه ، فتأني له أن يجمع منهم
أربعين ألفاً أو ستين ، وهو عدد ربما ارتفعت به المبالغة أو الخهل بالتقدير ، ولكنه لا
يهبط إلى ما دون العشرين ، فبما على ما وصفت به معركة اليمامة من الهول
وكثرة القتلى والخرحى بين الفريقين .

وقد كان مسيلمة يحسب الحساب لأمر كثيرة يوم تصدى لدعوى النبوة ومقاومة
الإسلام فكان يقاتل ثمانية من أنال ، ويناوش بنى تميم بما بينهم من الذحول
والمافسات ، ويتوقى شر سجاج وقومها التعلبين ودولة الأكاسرة من وراء
التعلبين ، ويعلم أن أشياعه من بيوت سى تميم قد يحدونه ، وأن الذين دانوا
بالإسلام بين قومه عيون عليه ، وأن الخليفة لا يمهله ولا يحهل أحاره . فتحيل
على مهادة حصومه ، وفرغ جهده حرب المسلمين وحدهم ، وحشد كل ما وسعه
من حد وسلاح ، ثم تقدم بهم في عجة إلى موقع يقال له عقرباء في حرف بلاده
على مقربة من بلاد بنى تميم .

ولم يكن خالد يجهل خطر الرجل الذي سيلقاه ، ولم يكن يحصى عليه أن الحرب
في العراء غير الحرب في بلاد كتفها لحبال ، ويقام فيها لأسية والأسوار ، فتوجه
إلى اليمامة في أهنة كافيه بالقياس إلى أهنة المسلمين لأعدائهم في صدر الإسلام .
ولا يعلم على التحقيق عدد الجيش الذي كان معه في عقرباء ، ولكنه على
التقريب تجاوز ثمانية الآلاف ولا يقل عنها ؛ لأن حشده بالمزاخنة نحو خمسة
آلاف ، يضاف إليهم جيش شرحبيل بن حسنة الذي سبقه ولبث في انتظاره ، ولا

يقل عن ألفين ، ويضاف إليهم الردء الذي أرسله الصديق وراءهم بقيادة سليط بن عمرو ، ليحمي سافقتهم ، وغير هؤلاء من تطوع للحرب مع المسلمين من بني تميم وبني حنيفة ، فهم في حملتهم يحاورون نمابية الآلاف ولا يقصرون عنها ، إن بقصوا ، إلا بقليل .

لكن مكان القوة من هذ الحيش الصغير إنما هو كثرة الصاديد من أبطال الصحابة المشهورين فيه فقد كان حيش المسلمين لا يحاور في عدده نصف حيش اليمامة ، ولكنه كان في عدة رافية من أعداد الرجال الذين يقومون بالألوف . . فهم وأعداؤهم بهذه المثابة كهؤان مناطران

وكانا كهؤين مناطريس في صدق البية واتقاء العار من الهزيمة . هذ تأخذ غيرة الحرم وهذ تأخذ غيرة الدين ، وقد قال ابن مسيكة لقومه وهم يتقدمون إلى المسلمين هذ يوم العيرة اليوم إن هزمت تستكح النساء سيئات ويكحن غير حطيات ، فقاتلوا عن أحسابكم ومنعوا ساءكم»

فليس تغور الخصمين حرارة الخصومة ، ولا شواحد العيرة ، ولا صلاة الحرم ، ولا تؤسم الأمل هي السجاح .

ولم يرل حاله يتقدم إلى وجهته على تعبئة كاملة كعادته في معظم عزواته . وكان يتلقى الأخبار عن مسيكة وحركاته في كل مرحلة من مراحل الطريق ، ولعله استعظم القوة التي حشدتها مسيكة في عقرب داره فحج إلى الأحد بالأحوط وكتب إلى الخليفة في طلب المدد عسى أن يحتاج إليه بعد اخولة الأوسى من حولات القتال ، فأمدته الخليفة ببحرير بن عبد الله البجلي ، ولكنه التحم بجيوش مسيكة قبل أن يصل إليه ، فبقية منصرفاً من اليمامة .

ولما دنا من أرض مسيكة مرت مقدمة حشده في الليل بكوكبة من الفرسان بين الأربعين والستين عديهم مخاعة بن مرارة من عماء بني حبيمة وأصحاب الرأي والمردة فيهم ، وكأنه كان خارجاً لاستطلاع أمر المسلمين ، ولكنه أنكر ذلك ورعم أنه ذهب «لأخذ ثأر له في بني تميم وبني عامر» ، فلما سئلوا عن ديبهم قالوا . ما بني ومنكم بني ، فأمر خالد بصرب أعناقهم حميماً واستبقى مخاعة عسى أن يستفع بمنزلته في قومه أو يعلمه بالحرب والمكيدة ، كما قال بعض الرواة

ونزل خالد على كتيب في مواجهه مسيلمه ، ثم التحم الفريقان «وفاتمت بنو خنيمة قتلاً لم يعهد مثله» واندفعت في هجمتها حتى دخلت حيمه خالد من وراء العسكر وفيها امرأته أم نعيم ومخاعة بن مراره مفيد بالأعلال فهم بعض الحميمين عندها لولا أن حماها منهم مخاعة وأوصاهم بها خيراً وهو يعور نعمت الحرة هذه ، وعليكم بالرجال .

شرهد في كثير من المعارك بين المسلمين وأعدائهم في الصدر الأول أن الكرة الأولى غالباً ما تكون للمشركين ، ولا سيما حين تجتمع لهم مزية العدد والراحة حيث يختارون مكان القتال ، وهي مشاهدة لا تستعرب ولا تحالف المعهود ؛ لأن «الدفعه الحيوانيه» أبد لها الوثبة الأولى مع لعدد الكبير وراحه الجسد ، وإما الثبات للعقيدة التي يلود بها الإنسان بعد ان رجعه ، وللصمير الذي يشوب إليه المرء بعد الامتحان ، وليس من شأن العصيدة أن تكون كالدفعة الحيوانية وثبة عاجلة وهجمه سواره فاشه ، وإما شأنها أن تخاسب النفس وتستعيد هواها وتستخرج دحيرها من أعماقها ، فهي لهذا سمع صاحبها في الخنة وبعد تبين الشدة ، وبخاصة حين يحتاج إليها بعد الجولة الأولى

وهذا الذي حدث في عقرباء كما حدث في وقائع شتى

بعد الجولة الأولى التي فارت بها «الدفعه الحيوانيه» برت العقيدة إلى الطليعة وجاءت بمعمراتها ، وهي معمرات لا يتحيل العقل أن نفساً إنسانية تقدم عليها بغير اعتقاد .

انكشف الأعراب أولاً في أول صدمه ، وترلزلت أقدام أناس من الأنصار والمهاجرين من طغيان الحموع الهارمة والمهزمة على السوء

فبادر خالد إلى تنظيم جيشه على وضع جديد ، فمير المهاجرين ومير الأنصار ومير الأعراب كل بنى أب على رية ، وصاح بهم : أيها الناس تمايروا حتى نعرف من أين نؤتى .

ثم عول على الموت كما وصاه أبو بكر ، فوهبت له الحيلة ووهب النصر . . حمل على القوم حتى تجاوز الصفوف وحمل يحاطب مسيلمه وعرض عليه النصف والرحرور إلى الحق ومسيلمه يروع منه ، ثم نادى بشعار المسلمين يا محمداه ودعا إلى المبادرة وهو يصول دات اليمين ودات الشمال ولا من يثبت له في مجال ، ولم يبال أن ينظر إلى ما وراءه ؛ لأنه ترك كل شيء في تلك الساعة إلا أن يتقدم

أمامه ، ولم يرد على أن فال لخبرته أو من سميهم اليوم أركان حربه . «لا أوتين من حنفي» ومصى إلى تقدم بغير رجوع ، إلا رجوع طائر مختار .

وظهرت في مقام الهول فصيلة الصاديد من كسار الصحابة ، فحفر ثدت من فبس لقلميه في الأرض إلى أنصاف سافيه وهو يحمل لواء الأنصار بعد ما تحط وتكمن ، فم يرل ثاشا حتى قتل في مكانه

وصاح ريد بن الخطاب أيها الناس غصوا على أصراسكم وأصربوا في عدوكم وامصوا قدام . ثم أقسم والله لا أنكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحنفي . فكانت آخر ما فاه به في ذلك اليوم .

وحمل السراء بن معرور وأحدثه العروء التي كانت تأخذه حين تتعالى الوعي ويحتنم القتال ، فكان كأنما يبحث عن الموت ويهرب من الحياة

وتحاوت الساحة بأصوات الأبطال يوصون بعضهم بعضا ويظهر بعضهم إلى بعض وهم ينقضون على أعدائهم ويتنادون بينهم يا أصحاب سورة البقرة . . يا أنصار الله . كما ناداهم النبي عليه السلام في يوم حنين فاستحى كل منادى مطور المكان منهم في ذلك المشهد العظيم أن يكسر على عشيبه ، ولم ير منهم إلا فتيل في موضعه أو زحف إلى الأمام

وما هي إلا سويعات حتى انكشف أصحاب مسيلمة منكسرين ، وهروا مسيلمة نصره إلى حديقة مسورة من ورائه . وقد سميت في ذلك اليوم بحديقة الموت ؛ لكثرة من قتل في طريقها وكثرة من قتل فيها ، ولاحت من البراء نظرة إلى حاب الباب فإذا هم قد أوشكوا أن يعلقوه عليهم ، فصاح بإخوانه : يا معشر المسلمين ، ألقوني عليهم من فوق سورها ، فاحتملوه فوق الخجف^(١) ، وفعوها بالرمح حتى بلغت أعلى السور فسقط منه على القوم بعد تردد ، ولم يرل يعالج باب الحديقة حتى فتحه ، وقد نواثب أفراد من المسلمين إلى حابه فأعانوه

وقتل في هذه الهجمة مسيلمة ، كما قتل محكم بن الطفيل أكبر أعوانه ومشيريه ، فاضطرب بنو حليفة ووقعوا في خيرة وهم في هزيمة لا يشار فيها برأى ، ولا يصعى فيها إلى مشير ، فشعلوا عن باب الحديقة وأعين سيمون على اقتحامه من داخلها وخارجها فحق لتلك الحديقة في ذلك اليوم أن تسمى حديقة الموت ؛

(١) الخجف هي الثروم من جند بلا حشب

لأنها اشتملت في يومها على ألوف من القتلى ، وبلغ عدد القتلى جميعاً في ذلك اليوم بين مساحة القنديل وحديقة الموت عشرات الألوف ، أُنقِهم في تقدير المقدرين عشرة آلاف من بني حبيفة وستمائة من المسلمين ، وأكثرهم في تقدير المقدرين يرتفعون إلى سبعين ألفاً أو ثمانين ألفاً جنميين وألفين مسمين وهم رغم لا يدل على بساً صحيح ولكنه يدل على هول صحيح سرى في الأفاق من أساء تلك المعركة التي دعت فيها نخة من أجل الصحابة وأفقها المفهاء . ومن حراء مقتلهم في هذه المعركة أمر الخلفاء بجمع القرآن في المصحف بعد أن فنى الكثيرون من حافظيه ، وخيف أن يفنى آخرون .

ثم بعث خالد الحويل حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مد و سى ، وعزم على غزو حصونها جميعاً ولم يكن بقى فيها إلا النساء والصبيان والشيوخ والكبار ، فاقترح عليه محاجة أن يذهب إليهم ليسرلهم صلحاً عن معاقبتهم ، ثم حذعه وأخلص لقومه ؛ لأنه أمر النساء والكبار أن يلسوا الحديد ويبرروا من رموس الحصون ، فطر خالد فإذا الشرفاء بمتدنة من رموس الناس ، فأثر المصاحبة لما رأى بالمسمين من الجهد «وقد كلو من كثرة الحروب» واشترط أن يسلموا وأن يكون له نصف السبي والعنائم ، ثم برل من النصف إلى الربع حين ألوههم مجاعة أن القوم قد رفضوا ما قبل منه

فلما اطمأن المعتصمون إلى لخصون من بنى حبيفة فتحوا أبوابها فلم ير فيها إلا امرأة أو صبي أو شيخ فان أو رحل هربل لا يرجى لقتال

وقد يتوقع من خالد أن يعصب على محاجة ويبطش به بطشة خالدية بعد هذه الخدعة التي احتراً عبه بها علابية وهو في قبضة يديه .

لكسا في الحق لا يعجب إذا هو لم يعصب ؛ لأن عمل محاجة لا مرأ عمل سيل يكره في النفوس السيلة ، ويبعث به فيها الإعجاب الذي يكفك من شرة كل عصب سريع . فهو عمل ينصح بالمروءة ولعيرة على العشيرة ، وكنتاهما فصيلة يعرفها خالد ، ويعرف للمتصف بها قدره فلا يدلله ولا يحريه شر الحراء

وقصارى ما يدغ من عصبه أنه بطر إليه نظرة شزراء وصرح به ويحك . . . خدعتى ، هم يحسن مجاعة ولم يعتذر ، وما دل - هم قومي

وما يحسب إلا أن الإعجاب بمحاجة قد حبب إلى خالد أن يصهر إليه ويوثق الصلة بيه وبينه . رعيم شجاع حميل الرأى حسن التدبير عيور على قومه عليهم

كما وصفوه بمكيدة الحرب والسلام ، فهو حير صهر في بلد القميلة التي يصحر
«سيف الله» بدحولها على يديه في الإسلام ، ويطيب له أب يعرر صلبة الدين بصفة
البيت والسب ، وقد طاب له المقام بتلك البقاع المحصنة التي يريها له البصر كما
يربها له طيب الهواء ، فاحتار له وادياً من أودنها لحميلة يسمى الوبر ليقيم فيه
حتى يؤمر بوجهة أخرى ، وخطب إلى محاجة فاه به موصوفة بحمالها ، وهي حطة
لا تُرخص ولكنها قد تهبل وتوجل ؛ لأن محاجة قد علم من «اليلي» مد كان مسجياً
في حسمتها كيف تلقى الخليفة وأصحابه خبر زواجها بحالد في ساحة القنل
فأشمو هذا الرجل المحك النضير بالعواقب من عافه تسوء وتسوء بته ونسوء
حالاً هي حيريه ، فاستمهله وبم يعجل تنبيه طله ، وقال له «مهلاً . إلك
فاطع طهري وصهرك معي عند صاحبت» ولكنه لم يلبث أن علم بصرار حالد
حتى أجابه ورأى أن عافه القبول أسلم من عافه الإء

وكان حالد قد تبقى من الخليفة أمراً باستئصال كل من يحمل السلاح من سى
حليفة ، فعادت الرسل إلى الخليفة بنخر الصلح ونخر الرواح ، فحسب أن الأمرين
مقتربان واشتد به السخط على عمل حالد بما وقع في نفسه من حسان ، فكتب
إليه أعنف خطاب وجهه إلى فائد من قوده أو ول من ولاته ، وسماء « بن أم
حالد . » وقال له هي حطاه إلك لفارح ، وبعى عليه أنه «يكح النساء وبهاء
بيته دم ألف ومائتى رجل من المسلمين لم يحفف بعد»

وقد كتب خالد إلى الخليفة يعتذر في أمة وعرة «أما بعد ، فعمري ما تروحت
النساء حتى تم لى السرور وقرت سى الدار ، وما تروحت إلا إلى امرئ لو عمدت إليه
من المدينة حاطاً لم أبل دع أسي استثرت حطتى إليه من تحت قدمي ، وإن كنت
قد كرهت لى ذلك لدير أو دنيا أعبتك ، وأما حسن عرائى على قتلى المسلمين
هو له لو كان الحرر يبقى حياً أو يرد ميب لأبقى حزبي الحى ورد الميت ، ولقد
اقتحمت في طلب الشهادة حتى يثست من حياة وأيقست بالموت ، وأما حدة
محاجة إياى عن رأيى فبى لم أخطئ رأى يومى ولم يكن لى علم بالعيب ، وقد
صنع الله لمسلمين حيراً ، وأورثهم الأرض وجعل لهم عاقبة اسقين» .

وقال في رسالة أخرى «بى لم أصالحهم حتى قتل من كنت أقوى به ، وحتى
عجف الكراع وبهك الحف ، وبهك المسلمون بالقتل والجراح»

وهد طى خالد أن الخبيث لم يكن ساخطاً عليه ذلك السخط لولا إصعاقه
«لأعسر» كما كان يسمى عمر بن الخطاب ، ويحين أيضاً أن سخط الخبيث لم
يكن ليلع به هذا الملع لولا أن روجه بنت مجاعة سقه ذلك الروح الذى حطت
فيه الظنون بعد مقتل مالك بن نويرة

وعنى هذا ، انقصى واحب خالد بن الوليد فى حرور الردة كأحسن ما ينقصى
هذا الواجب ، وفام وحده بأوفر منهم فى هذه الحروب ؛ لأنه فمع أخطر الفتن فى
الحريرة العربية من أفصاها إلى أفصاها ، فمع فتنه سى أسد وخلفائهم ، وحظرها
أبها كانت أقرب الفتن إلى المدينة ومكة ، فمع فتنه سى حبيبة ، وحظرها أبها
كانت فتنه القبيلة القوي والعديد الأكثر بين العرب قاطبة . وحقق كل ما ندبه له
الخليفة ، وكل ما اتفقا عليه ، سواء من الخطط التى نظرا معاً فى تفصيلاتها ، أو من
الخطط التى عرف خالد عيانيها وبتدع لها ما أراه من أساليبها فى أماكنها وأوقاتها .
ولم يخالف رعية الخليفة إلا فى موضعين لهما ، كما أسلفنا ، علاقة بمسألة رواح

أما الأولى وهى رواح ليلى امرأة مالك فقد تقدم تلخيصها وحملته الرأى فيه
كما أسلفنا أنه عمل يحوج خالد إلى الاعتذار والتفسير ، وأنه صفحة كان حيراً
له لو طويت من تاريخه ، فب فيها مريد فتحار ، وفيها عنى أهون القويين مقام اعتذار .
وأما لأخرى فلا يسع أحداً أن يسهر فيها عن عجلة خالد إلى الرواح عنى غير
عادة القوم فى ميادين القتال

ولكن لا يسع أحداً كذلك أن يتعدى هذا إلى مظنة نمس بية فرحس أو نحمل
صحة لنس حبيبة متصلاً برعبته فى الرواح بسن مجاعة رعيم الحصين فى صلح
اليمامة . . ذلك بعيد ، حد بعيد . .

لأن بنت مجاعة كانت بين يديه ، وكان فى وسعه أن يقتل أباه ، بقمة من
حداده إياه ، ومرصاة لدخيلة الذى أمره باستئصال من يحمل السلاح فى القبيلة ،
فهو يقتله ولا معتة عليه

ولم يصلح خالد بسى حبيبة وهم مجمعون على قبول صلحه ، بل كان منهم
رعيم له أنصار وأتباع . هو مسيلمة بن عمير - أبى أن يذعن لشروط مجاعة ومضى
يهتف فى قومه «يا سى حبيبة ، قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شىء» ، وإن
الحصن حصين والطعام كثير ، وقد حصر الشتاء

فما عارضه محاجة وذهب برأى الأكثرين من قومه ثمادى مسيئمة بن عمير في الحاح لخصومه وأسس إلى فسطاط خالد يريد أن يفتك به ويشيع بجنه الفتنه التي لا تؤمن عقائدها في معسكره ومعسكر بني حنيفة ، فتسه خالد إليه وسأل من هذا المقفل ؟ فعرّفوه به فقال أخرجوه عني ، فمما أخرجوه وحدثوه يحضى السيف في ثيابه ، فلعنوه وأوثقوه في الخصر وأحدوا عليه عهداً لا يعربس بعدها من فسطاط خالد حتى تنتهي بيعة قومه على الإسلام ، ولكنه عذر بعهدده وأفلت بالليل إلى عسكر خالد مصراً عني قتله ، فلما أدركوه دون بعثته أحل السيف على حنيفة فقطع أوداجه وأثر الموت على التسليم

ومع هذا ، بقيت بدة «القرية» وودى العرمص في اليمامة لم يشمها الصلح الذي شمل العسكر في عقرباء فلم تكن مطاولة القوم حراً من المصالحه في حالة كنتك الحال ، ولم يكن في طاعة المسلمين أن يهضوا للمطاولة بعد أن قتل منهم من قس وجرح من جرح ومضى على أكثرهم عدة شهور بين مشقة السفر ومشقة الهول والبلاء ، ولم يكن إرجاء التسليم مأمون المعنة إذا استثبرت بحوة الخفيتين وفيهم من يعاند في الخصومة تلك العناد ، ولقد يكون المستسلمون منهم أسرع إلى الكسة يوم يشهدون بأعينهم منى النساء «غير حظيات» وقتل القادريين على الحرب من هية وكهول .

فدواعى خالد إلى الصبح أظهر وأرجح من أن يعتسف معها داع آخر غير معقول ولا مستساع ، وإن الداعى الذي لا يعقل ولا يستساع هذا لهو التعليل برواجه من فتاة اليمامة ، وأيسر شيء لديه أن يسميها بعد قتل ذويها ، ثم يكون ذلك أدنى إلى رضا الخليفة وتحقيق ما أمر به ، قل أن يطلع على الموقف في اليمامة من حملة بواحيه

وبعد ، فبحسب روح خالد كله في أى سحل يشاء أن يحسه الخاسيون ، وهي سحل المفاخر لإسلامية شيء بحسب له بعد حرب اليمامة لن يطول فيه خلاف . فتدك أول حرب ظهر فيها للمسلمين مصداق قول النبي عليه السلام أنه سيف من سيوف الله ، كان الخطر على الدين الخديد من العرب أنفسهم ومن أم «الأعاجم» التي تحيط بالبلاد العربية .

وقد رأينا نصيب خالد من وقاية لإسلام في أرضه ، وهو أوفى نصيب ومسرى نصيبه من مراس الخطر لأحروما هو بأكبر خطرين ، ولكن نصيب خالد في مراسه كان أوفى النصيبين .

الفتوح



في سبع سنين فصار فتح العرب كل ما فتحوه من بلاد العرس والروم
منقوصت في الشرق دولة الأكاسرة ، وداعب في الشمال والعرب دولة
القياصرة ، ورأى سبطاها من الشام وفلسطين ومصر وإفريقية الشمالية ، وشعلت
نفسها زماناً عن الفاتحين وما فتحوه .

عجينة من أعظم عجائب التاريخ .

لا يشرح المؤرخون حتى أيام هذه يأتون في تعييلها كن يوم يعلن جديدة ،
ويقصون في شرح السواق ولو حق على النحو الذي يفسر العجب بالملوف ، ويرد
الدهشة الخامخة إلى قرار البحث والدليل

وهو جهد لا يعرض به في هذا الكتاب ، ولا يبرهن ما أن يستقصيه ويحاول
البت فيه .

وما يعيننا منه شيء واحد هو تقدير عمل خالد ، وتفسير الكيفية التي تصطلع
بنك العمل ، وليس تقدير ذلك بعسير ولو بقي التاريخ منشعب اللسان في
استقصاء علل الهزائم التي نرت بالعرس والروم

فالأصابت التي فصت على العرس والروم بالهزيمة كذته ما كانت ليست
هي الأسباب التي فصت للعرب بقدام دولة وانتشار عقيدته ، لأن استحقاق أناس
لروال لا يشترع بعيرهم حق الطهور والبهمة .

كذلك لم يكن انتصار العرب على الفرس والروم لأنهم عرب وكفى ، ولم تكن
مسألة في لبابها كفاً من الأحاسس والاعتصام بها من انريا وما فيها من العيوب

فقد كان في أرض البوستان عرب كثيرون يديسون بهم بالصناعة ويصطرون إليهما
بطرة لإكبار والمهانة ، وكان القادرون منهم على القنار توفر من مقاتلة المسلمين
عدداً وأقصى سلاحاً وأقرب إلى ساحات العراق والشام من أولئك الملاحين إليها
من جنوب الجزيرة العربية .

وقد كان هناك عرب كثيرون بهرموا أمام المسلمين وهم كذلك أوفر في العدد
والسلاح وأصفي بالخيال والإنس والأموال
فهى بصرة عقيدة لا مراء . .

ويسعى أن يذكر المؤرخون هذه المسألة من جانبها ولا يقصروا النظر فيها إلى
حاسب واحد .

فاستحقاق الظلم القائمة للصياغ هو فى وقت واحد سبب ضياعها ، وهو حجة
العقيدة التى تحملها ، وتنتصر عليها فى ساحة الرأى
إذ كان أدعى الدواعى لظهور عقيدة جديدة أن الظلم القائمة قبها لا تنماسك
ولا تصلح لحماية دمارها .

هكذا قيل إن العقيدة الجديدة قد انتصرت لتدعى الظلم التى اصطدمت بها
فليس هذا تعليلاً وكفى ، ولكنه كذلك شفاة وحجة للظهور ، ودليل على أنها حق
صالح كأصلح الحقوق الكونية ، وأنها علاج عانى مطلوب جاء فى الأوان .

لكن القول بانتصار العقيدة هنا لا يعنى عن كل قول

أفكل ماضل متدرع بالعقيدة صالح فى تلك الآونة للانتصار؟

ينعى أن يكون الأمر كذلك لو كان تعديل النصر بالعقيدة معيماً عن كل تعديل

ولكن الواقع أن الدين انتصروا بالعقيدة كانوا رجالاً أولى خبرة وقدرة يؤمنون بها
ويعرفون كيف يتغلبون بها على أعدائها

وقد أفلح أناس وأحقق آخرون

وبهم عكرمة بن أبى جهل وشرحبيل بن حسبه حيث انتصر خالد فى اليمامة

وحرق خالد وعياص بن عزم لفتح العراق من طرفيه فى وقت واحد ، فسار
خالد من نصر إلى نصر ومن توفيق إلى توفيق ولست عاصم يتردد ويقدم خطوة
ثم يحجم أخرى حتى أدركه خالد بالمعونة فى دومة الجندل

وسبق خالد بن سعيد خالد بن الوبيد إلى الشام ، فعز به الروم حتى استنصرحوه
إلى مرج الصفر ، فأوعى وراءهم ونم سطر حتى يدركه أمدد الخبيطة التى أرسلها
إليه تناعاً بعيدته عكرمة بن أنى جهل والزبيد بن عتبة ودى الكلاع خميرى ،

فأحدثت به جحافل الروم وأوشكت أن تسف به من ورائه ، ولولا يقظة الخبيمة وتلاحق أمداده في أوقاتها لقصوا عليه . .

فلا انحلال الدولتين الفارسية والرومانية عن الاعتراف للعقيدة لمشيته بحقها في العلب وحاجة العالم إليها في تلك الأوبة ولا العقيدة المنشئة بمعينة عن فصل رجالها وحمايتها ، وكماية سوايسها وقادتها .
وهي عقيدة مشنة يدود عنها حماة قادرون ، وكان خالد بن الوليد في طليعة هؤلاء الحماة .

* * *

سمعه اسمه إلى أطراف الدولتين ، فحارب أعداءه بهيته قبل أن يحاربهم بسيفه ، وكانت هذه أول مرة لاحتباره ، وأول فصل يحسب له في ميراثه وبصافه إلى قيادته ، ويعمل عمده في نفوس أعدائه كما يعمل عمده في نفوس أتباعه .
قال صاحب دومة الجندل لقومه حين سمع بمسيره إليه : «أنا أعلم الناس بخالد ، لا أحد أيمر طائراً منه ، ولا أصمد في حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً ، قتلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه ، فأطيعوني وصالحوا القوم .»

وكان الرجل من العرب يعيش في الشام ويهجر موضعه الأول ولكنه يسمع باسم خالد ، ويتلقى أنباءه من وراء المهامه والدروب ، فما هو إلا أن يضجوى إليه حتى يوقى بمن طائره ويسرع إلى طاعة أمره ، عليماً بأنه لا يأمر إلا وهو قادر على إنجازه ، كما قال الشاعر الفارسي عمرو بن الحمرد

إذا قال سيف الله كروا عليهم كررت بقلب رابط الجأش صارم
ويساقل الرواة قصة لقائد من قادة الروم لا تقل فيها دلالة الخيال عن دلالة الحقيقة ، إن كانت القصة من توليد الخيال

فيل إن فائداً من قادة الروم اسمه جورج برره في أكبر وفائع الشام وسأله - أحق أن الله أبول على سيكم سيفاً من السماء ، فأعطاه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟
قال خالد : لا

قال : فبم سميت سيف الله؟

قال تابعاءه فقال «أنت سيف من سيوف الله سله على المشركين» ، ودعا
لى بالنصر فسميت سيف الله ، فأنا من أشد المسلمين على المشركين
وكن هذا ضيقه بأن يكون .

فإن لم يكن بأ حاله قد وصل إلى كل عدو من أعدائه ، هالدي لا ريب فيه أن
أتباعه كانوا على علم بسببه ، فكانوا على ثقة بسدد رأيه ومضاء عزمه ، وكانوا
يطعمون إليه فيعملون معه عمل المظمن إلى نجاح سعيه ، وهذا هو فصل القيادة
الصالحة فى نهوس الأتباع .

حرج خالد برملاؤه للقاء الفرس والروم بعد وفاة النبي عليه السلام بسنة
واحدة ، وبعد حروب طالت فى الجزيرة العربية عدة سنين
فلو كدت الفتى وموت الرعماء فاصية على كل أمة كيما كان السب وكانت
البيئة نكان مصاب العرب كنصاب الفرس والروم فى تلك الأعوام . فتى وهنى
ونى مات أرقيصر شاخ . فهؤلاء وهؤلاء فى العلة سواء .
لكن حركة العرب حركة إنشاء وناء .
وحركة الروم والفرس حركة احتلال وتقويض ..
وحسم الفتى اليافع مضطرب لا يستقر على حال ..
وكنلك حسم الهرم الداهب ، ولكن شتان اضطراب واضطرب .

كانت عدل الفاء قد اصطلمحت على سية الدولة الفارسية يوم قصد خالد إلى
نحومها من ناحية السواد .
وكانت علل مشها ، وإن كانت أحف منها قد اصطلمحت على سية الدولة
الرومانية الشرقية ، يوم قصدها ملاؤه المواد من شتى بواحيها قبل الشام واللقاء
وهذه خلاصة وجيزة عن الحالة يومئذ فى الدولتين :
يقول شراح الحصار إن الحصارا تبندى بمعى روحى قليل المظهر ، ثم تنهى
إلى مظهر صحم يتراخى نه الرمن حتى لا تبقى فيه بقية من المعانى الروحية

وهذه هي الحالة التي كانت عليها دولتا الفرس والروم عند اصطدامهم بالدعوة الإسلامية في نهضتها الأولى

نصى بلاد الفرس ، حفت صوب الدين ومضى على ظهور «زادشت» مصلحهم الدينى الكبير زهاء أربعة عشر قرناً ، فرث الصالح من مذهبه وازداد الطلح سوءاً على سوء

وخلف فى بيت الملك أمراء صعباء بعد آبائهم الأقوياء فشغوا بالنراغ بينهم وأسقطو هيبتهم فى بلادهم وعير بلادهم وبهكوا قوة الدولة فى قن وبيلة وحيمة وترف أولى وأوحى ، وما برحوا فى صعيانهم ونهاهم حتى ولى الملك أردشير فرأب صدعه وأوشك أن يعيده إلى سابق محله وتركه فى القرن لثالث للميلاد وهو موحد بعض التوحيد بالمفباس إلى ما كان عليه قبل ذلك من التفرق بين العشائر والرؤساء .

ثم بكس الكسة الأخيرة وشاع فيه الفساد علواً وسفلاً قبيل ظهور الدعوة الإسلامية ، وكان الملك لمعاصر للنبي عليه السلام كسرى أبروير ، فثار به ابنه شيرويه فقتله وكل بدوى قرباه ، وأعقب طفلاً صغيراً فلم يلبث أن قتل وتولى بعده قائد الجيش شهر يراز ، ففسد عبه القواد والعظماء منزلته ، المفصوبة فقتلوه ووروا عليهم بوراى بنت كسرى أبروير ، فلم تتم فى الملك سنة وبضعة أشهر حتى ماتت وحلها فتى من بنى عمومته لأعدى ، ثم قتل وحلته بنت أخرى لكسرى أبروير فقتلت ، وقتل من بعدها ، إلى أن تولى الأمر يزدجرد بن شهر يراز والدولة تتربع من فرط الإغيا

وميت فى أيامها الأخيرة نصرة قوية فى حروبها الخارجية - وهى غلبة الروم عليها وانتزاع مصر والشام منها ورد حدودها إلى دجلة والفرات بعد أن طعت على حردد أسيا الصعري ، وقبل هذا ميت نصرة دون هذه النصرة فى القوة والصحامة ، ولكنها أشد منها أثراً فيما نحن بصدده من أحوال الدعوة الإسلامية وتلك هى نصرة الهرمجة - «دى قر» التى تقدم وصفها فى أول هذا الكتاب . فإن هذه الهرمجة أطمعت فيها العرب بعد محافة وهيمة ، ولا سيما الحرب الميمية بحوار دى قار وأربص السواد ، ومنهم جند خالد ورملائه الذين صدموا لمسللة الفرس فى العراق

وسدب من حرء ذلك كله شتول الأمة فى الديار الفرسية ، فتهالك العلية على أنظاها ونعمسوا فى الترف واستكثرو من البهائس والأموال ، وشعلوا عر سود لأمة ، فساع بينهم الفقر والصب والتدمر ونعص الحكم ، ولم يعلموا قسم هم

موقوف وعلى أى شيء يقاتلون ويتعاونون ، وهى حال تؤدى بالتصدع والانهيار لأول صدمة تهز الأركان والحجران

ومن أعجب العجائب أن يفتن رجل كالمعيرة بن سعدة لدلالة هذه الحال ، وهى معدودة فى عصرنا من دروس علوم الاجتماع والتاريخ التى لا يصل إليها الباحث إلا بعد معارضة وإصلاح واسع مستفيض ، ولكنه العجب الذى يفسر لنا ما هو أعجب منه ، وهو وفرة نصيب العرب يومئذ من أقطاب الرحال دوى الحسكة والنظر البعيد ، وأنهم قد طهروا ؛ لأنهم كانوا على أهبة فى هذا الباب حرمتها كذا الدوليين ، على كثرة من بهما من الرعماء أصحاب المظاهر والشارات

دخل المعيرة بن شعبه على رستم بطل الفرس المشهور فى التواريخ والأساطير فحس معه على سريريه ، فاستكر أعونه هذه الحرة من ذلك المدوى «المعرو» وحتدوه من مكانه على السرى فى عصف شديد ، فما هتر المعيرة ولا استكان ولا راد على أن قال لقد كنت تبلى عنكم لأحلام ولا أرى أسفه منكم ، إنا معشر العرب لا يستعبد بعصنا بعضاً ، فطست أنكم بواسون قومكم كما تتواسى - أى تتسوى - فكان أحسن من الذى صنعتوه معى أن تحزرونى أن بعصكم أرباب بعض ، إن هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يصعبه أحد . وزنى لم أنكم ولكن دعوتكم . اليوم علمت أنكم معونون ، وأن منكم لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول كلمات من ذهب . .

لو كان فيمن سمعها من الفرس من يصارع المغيرة يقال فى جوابه . «اليوم علمنا أنكم عالون ، وأن أحق ابنك أن تقوم له قائمة لهو الملك الذى قوامه من هذه السيرة وهذه العقول» . .

على أن الأمم لا تقفر من لأحلام كل الإقصار فى أطلم ظلمات الجهلة والإدبار ، فقد وزن «يردحرد» شأن العرب والفرس «الميران الصحيح» ؛ حين قال لرستم «إما مثلهم ومثل أهل فارس كممثل عقاب أوهى على جبل يأوى إليه الطير بالليل ، فتبيت فى سمحه فى أوكارها ، فلما أصبحت تجلب الصير فأبصرته يردنها ، فإن شد منها شيء ، احتطمه ، فلو نهضت نهضة واحدة ردت ، وأشد شيء يكون فى ذلك أن تحو كنها إلا واحداً ، وإن احتضمت لم نهض فرقة إلا هلكت ، فهذا مثلهم ومثل الأعاجم»
وصف صادق من جملة أطرافه . .

وعلامه من علامات الانحلال ألا يسمع الوصف الصادق ولا يهدي العارف به إلى رأى متفق عليه ، كما يعرف المرض ولا يسمع عرفانه فى العلاج ؛ إذا شارب الحسم المضاء ؛ وبهذا ، تنق يرد جرد ورستم على الصفة ولم ينفقا على العمل البمع مع العرب ، ههترقا محتلمين .

وكما بقيت هى أهل فارس يومد ك مسكة من حلول بقيت لهم كذلك مسكة من مروءة الفرسان ، أو على الأصح مسكة من المراسم والمأثورات ، الحربية ، وهم أولع أمة بالمراسم والمأثورات كافة . .

وهذه المسكة شرف للقادر ولكنها نلاء على العاخر المتحادل ، كأنها الوثنة التى تعجل بالهلاك إن وثنها المريض الهزيل ، وإياها فى الأقوياء لمعوان على التمد والطموح .
فربما أقلموا على القتال وهم يحسون أنهم مقدمون على مباراة فى حلقة صراع ، ينظرون عدوهم حتى يصل إليهم كما ينظر المصارع نده حتى يأخذ بعضديه فى أمان .
ففى وقعة الحسر أقبل بهم من حادويه ومعه رية الفرس الكبرى من حلول السور طولها عشر أذرع وعرضها ثمان ، وبين يديه جيش يربو على جيش المسلمين مرات فأرسل إلى أسى عبيد قائد المسلمين يقول له : إما أن تعبروا إلينا ومدعكم والعبور وإما أن تحلوا ببنا وببنا ، فتعجل أبو عبيد وعبر للنهر على حسر مصوبه ، والفرس ينتظرون .
مثل هذه المراسم جهن بحقيقة الحال ، وحقيقته أنه صراع حياة وموت بين أمتين ، وليس بحلبة ساق أو حلقة رهان بين لاعبين فى مهابة

أما دولة الرومان الشرقية ، فقد كانت فى حال لا تفصل حال حارتها وعبوتها فى محبة العقيدة ومحبة الصراع على الملك والولاية

صرب اش بالحدل الميزنطى فى التريخ القديم والحديث من حراء الخلاف على انداهب الانبيى فى الدولة الرومانية الشرفية ، وكان معظم أبناء الولايات من الساطرة واليعاقبة يخالفون مذهب الدولة الرسمى ويقتون رحاله ويرمونهم بالهرطقة^(١) والوثنية ، وكان القائلون منهم بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح أقرب إلى الإسلام منهم إلى المسيحية .

() الهرطقة هى الاتحاد فى حق الله

أو غير مطموح منه هي شيء على الإصلاخ ، وإنما هي العريضة والصراوة
ولاستحقاق ، ثم جاءهم قوم لا يعتدون على عرص ولا يقربون الخمر ولا يعصون
عمن يقربها منهم ولو كان من عليتهم ، ويقيمون في المدينة ثم يرحلون عنها فيردون
الخبرة إلى أهلها ؛ لأنهم إنما أخذوه لحمايتهم وحمايتهم ، فكنت أمانه بين
حكيم مدعاه إلى السراحي في الدفاع عن الحكم القديم وعلى العلة للحكم
الحديد ، وقد تتجاوز ذلك إلى المساعدة الظاهرة كما حدث من بعض العرب
لنسيحيين والوثنيين على السواء .

بل ربما تجاوزت كل هذا إلى إزعاج ثقة القادة بأنفسهم عند المقابلة بينهم وبين
قادة خصومهم . فمما يروى في هذا الحى وهو كثير أن أحبا القيصر وقائده سأل
رجلاً من فصاعة عن شأن المسلمين بعدما أقام بينهم أياماً ، فقال له : «هم رهبا
بالليل فرسان بالنهار ، لو سرق ابن ملكهم قطعوا يده ، ولو رمى رجموه إقامة للمجد ،
فقال للقائد : لئى كنت صادقاً لبص الأرض خير من لقاء هؤلاء على طهرها » .

ولم بدأت المعارك بين العرب والدولس كان العرب ربما أخطأوا فهم يصرون
صرتهم في موضعها فيتسع لهم الوقت لإصلاح الخطأ والرجوع إلى الخليفة لطلب
السحة والمشورة ، لأن أعداءهم مشعوبون أنداء سرع أو فتنة أو ربة أما الروم والعوس
فلم يكن لهم منسع لإصلاح خطأ يحطنونه وكثيراً ما كانوا يحضنون ، فبدأت معارك
بن الفريقين وعند أحدهما كل مظاهر لأسباب التى تدعو إلى النصر ، وعند الآخر
كل حماق الأسباب التى تدعو إليه

وقد انعقت كدمة الصحابة على حرب فارس والروم ، وسيف نه نواذى الوبى هي
اليمامة لم يطل استقراره في عمده بعد وقعة عقرباء .

وهناك حلقت من الحوادث تسرع لنا أن نعتبر حرب فارس الثانية امتداداً لوقعة
الأولى بدى قار ، أو استئنافاً لتلك الواقعة بعد فترة لا تحسب طويلة في تواريخ النزاع
بين الأمم ، وهى سبع وعشرون سنة ، فلعنن التى ارتدت بالبحرين وفبائل تغلب
التي انحدرت مع سجاج من لحريرة كانت كدبا من أتباع الدولة الفارسية على
صورة من صور التبعية هي ذلك الرمان . وكانت تعيش كلها في ظل تلك الدولة من
أيام اسادة إلى روال ملكهم بعد وقعة دى قار .

والبطالان الذين تعودوا صرب الفرس والإغرة على دهاقهم في تلك الأصقع كانوا من بني بكر الدين بهمنشرا بالعساء الأكر في وقعة دي قار ، وما مرج العداء بينهم وبين الفرس والقبائل التي تواجدتهم على أشد ما يكون . وهما المشى بن حاضرة الشيباني ومويدي بن قطبة العجلي ، وكلاهما على ذكر من هزيمة الفرس وعلى حيرة يقالهم في أصراف العراق ، وقد صحبت المشى الشهر في عاراته حتى بلغ القطيف وهجر ولم يقف له أحد في طريقه ، فهذا مع عجز الفرس عن تأديت رعاياهم في اليمن لدحولهم في الإسلام قصيا على تردد الخليفة في أمر البعثة الفارسية ، فصحت عريته وعريته أصبحانه على تحريدها بعد الفراع من حروب الردة بأسابيع معدودات .

* * *

وقد علما من دأب الخليفة الصديق أنه كان لا يبرم أمراً إلا أحكم بديره مرحلة مرحلة من طريقه إلى منتهاه .

وهكذا كان شأنه في البعثة الفارسية ، فإنه دب لها فائدين هما خالد بن الوليد ، وعياض بن عثم ، وأمر خالد أن يتجه إلى الأبدية ثغر الهد كما سمى ، وأمر عياضاً أن يتجه إلى المصيح شمال العراق ، فأيهما بلغ الخيرة من الآخر كان هو قائد الجيشين معاً ووحيت طاعته على رميله ، وقال لهما : « إذا اجتمعتما بالخيرة وقد فصصتما مسالح فارس أمتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم فليكن أحدكما رداً للمسلمين ولصاحبه وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم » .

حطة محكمة يطلع بها الخليفة مقاصد شتى في وقت واحد . ففيها دكاء المنافسة بين القائدين ، وفيها شتيت جهود الفرس في الدفاع عن بلادهم ، وفيها تدبير الحجة سبها لمن يحتاج إليها من الجيشين . وفيها تيسير أمر الماء والكلأ في الطريق للجيشين معاً ، لأن أمواه الطريق ومراعيه تصيق بالجيشين مجتمعين إذا سارا في طريق واحد .

وكان الصديق وإخوانه يعلمون أن المسألة في هذه الحرب مسألة يقين وعريية وليست مسألة كثرة وهيئة .

فحرص لهد على أن يحب الحشوش الإسلامية محافو المرتدين وبكسانهم ، وأوصى القائدين ألا يقللاً أحداً منهم ، وألا يكرها أحداً من غير المرتدين على المسير في جيشهما ما لم يقل على الحرب برضا منه ورعة ، ولما نظر خالد إلى من حوله يرفض كثيرهم ويسقى قليلهم كتب إلى الخليفة يستمنه ، فأمد به رفس واحد

هو القعقاع بن عمرو التميمي فحسب أصحابه وقالوا له أئمنه برجل واحد؟
قال : نعم؟ لا يهرم جيش فيهم مثل هذا؟

ولم تحص أيام حتى ظهر للمسلمين أنه مدد كف وأي كفاية ، فبأن ثقة الناس
بحيـش يكون القعقاع فيه ويؤلى قيادته خالد بن الوليد قد حارب بالمتطوعين للقتال
من كل صوب وحسب فبلغ جيش خالد يوم ثمار مبدان القتال قرابة عشرة
آلاف عدا جيش المشي بن حارثة وهو يبلغ ثمانية آلاف ، ولم يتقدم المسمون خطوة
في مبدان القتال حتى كانت للقعقاع وقعة لعلها أنقذ الجيش كله وأنقذت السمعة
كلها من بدايتها ، ولم يكن أحد ليعلم ماذا تكون العاقبة لولا تلك الوقعة التي تعين
بها الكثير من مصير جيش الفرس ومصير جيش المسلمين

ففي الوقعة الأولى ، دعا القائد الفارسي - هرمز - خالدًا لمبارره قبل التحام
الجيشين ، وأصعق بية العذر به حين يخرج مفرقًا بين الصفيين ، فوكل به شردمة
من فرسانه يعضون عليه وهو مشغول بمبارره فبراع الجيش العربي يقتل قائده كما
سبق إلى وهمه ، وبطبق الجيش الفارسي بعده الكسر على الجيش العربي بعده
القليل ، فتكون العلة لأكثر الجيشين وأكمل العديين .

وأرشدت هذه المكيدة أن تتم على الحو الذي دبره هرمز لولا أنه أخطأ الحسب في
اعتباره بقوته وجهه بصولة خالد في مبارره ، فطر أن الحولة سبها تطول قبل أن
يخرج فرسانه لبغدر بحالد ، ولكنه صرع في حولة واحدة وفوجئ أصحابه بهذه
السرعة ، فاقتربو من حالد على عجل وهو مشغول بالإحهار على فئدهم ، وإذ
بالقعقاع أسرع إليهم من لمح البصر ومن ورائه جيش المسلمين بحمته بصرب في قطع
مدعور مأخوذ بالمأخاه ومهاه هذه الصوبة العاخله ، فكبت وقعة اليوم وقعة رحين في
حولة واحدة ، تلتها الحولات اللاحقات التي ترسمت خطاه وسارت على هداها

سار حالد إلى العراق في أو ثل السنة الثانية عشره للهجرة النبوية ، وأتم في سنة
واحدة مما أعجب الرومان أن يتموه في أحيان

وقد تكسب في شرح وقعاته بالعرق محذرات طوال يسعرق بحثها ومعارضة
روايتها منات الصفحات ، ولكنه لا يتوسع في ذلك الشرح هـ ؛ لأن أعمال حالد
تعب في هذا الكتب قصص واحد ، وهو الرجوع بها إلى مصدرها من نفسه وعقبه
ومقومات شخصه

وهي هذا حسنا أن نقول على الإجمال قل الإشارة إلى وقعاته إنه لم ي المرس وأولياءهم في خمس عشرة وعة لم يهرم ولم يحطى ولم يحقق في واحدة منها ، وأن قوادا من المسلمين ، حطوا في حروب الردة وحروب المرس والروم كما حدث من عكرمة وشرحبيل وأبي عميد وحالد بن سعيد ، وبكس حالد لم يحطى قط عن حدة أو عجلة أو قنة أهية ، وكان يسير بحيشه أندا على تعثة كملة ؛ ليقاتل عدوه حيث لقيه مهاجنا أو غير مهاجني ، وكان أندا كما وصفه عمرو بن العاص «في نة القطة ووثبه الأسد» فلا يهمل الحيلة ولا يجعل التعويل كله على الشجاعة دون الحزم والحيلة ، ولا يعر عليه أن يتحامي لقاء عدوه في بعض الساحات ليستقل به إلى المكان الذي هو أصبح لحر كاته وأعوان له عليه ، ومن عدمه يعون القتال أنه كان يحارب شمالية عشر ألفا وكأنه كان يحارب بحمسة أصعاف هؤلاء فبدأ أرسل أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف إلى مكان يعون فيه ، فذاك أحدي من تسيير الجيش كله أو تسيير عدد منه يربو على الحاجة الصورية فإن حرا في خلال مسيره ما ليس في الحسان ، فمعه في هذه الحالة على سرعة حاطه كسرعة الباشق وهو يقض على فرسته ، فلا تشعر الفرقة التي أشحصها إلى مكاني بالحاجة إليه حتى يكون معها كأنها لم تعارفه ولم يعارفها

فهي شجاعة ويقطه وحرة وسرعة ومعرفة به هو لارم في وقت لرومه ، ولم تحمله حمله من هذه الخصال قط في ساحات فارس ولا في ساحات الشام مع اختلاف الميادين واحوال واحتراف الأعداء

وقد كانت تعثة خالد في المسر تشبه التعثة التي جرى عليها العرف في أيامه ، وهي قسمة جيش إلى ميمة وميسرة وقب وطليلة نسقه ورده يلحق به ، ليحمي ظهره أو يلبث في موضع من الموضع كمنسأ يزل إلى الساحة على غير انتظار لتقوى به سوءا ، أصبح به وتحدد به عرائم أعدائه وبكه كان عند القتال يمتن بانحد طريقة الهجوم أو الدفاع كما توحى بها ضرورة الساعة ، فيقاتل بالصعوف كما يقاتل بالكر ديس ، ويواجه خصمه أو يدور عليه ، ويتراجع أمامه أو يجمع في الهجوم على كة حمعه ، ويحصره أو يحل له سبيل الهرب ، حسما تدور به المعركة في أثانها أو توحى به حوالها قل استدتها

ولم عقدت له القيادة على التعثة العرسية أرسل حيشه على فرق ثلاث من

طرائق مختلفة ، فقدم لمسي على رأس فرقة ، ثم أخفى به عدى من حاتم صاحبه في حرب بني أسد ، ثم خفى بهم على رأس حبيشه وواعدهم موصعاً إلى الجنوب العربي من البصرة الآب ، ولعله توحى تسهيل السقى والمرعى بهذا التقسيم ، ثم احتسب الطريق بقيادة الرجل الذي كاتب له مساقة الدراية بهذه الدروب

وكتب إلى هرمر قائد الفرس يخبره بين الإسلام والخرية أو الحرب ويقول له في حتام كتابه الوحيز : « حثنتك تقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » ثم عدل إلى كاطمة بعد أن كان مواعده لأول « الخفير » ؛ لأنها كانت على ما يظهر أوفق لتعشة حبيشه

وهناك التقى بحيوش الفرس : وعلى رأسهم هرمر - فوقعت بينهم الوقعة التي مسقت الإشارة إلى السه وتعرف باسم دات السلاسل ؛ لأن الفرس كانوا يوثقون أنفسهم فيها بالسلاسل جماعات جماعات لشتوا في القتل ولا يتأني لهم الفرار إن أرادوه ولش صح هذا لقد كانت محاولات الشك به أظهر من صدق العزيمة والطمأنينة إلى السنة القوية .

ولما تبدد جيش هرمر تعقبه المشى بن حارثة وعمر الفرات ؛ ليأخذه متصرفاً فل أن تتجمع قبوله حيث تأمر احشاث الملاحقة وراءها ، ولكن الفرس علموا بعد مقتل هرمر وتفرق حبيشه أنهم مهلدون في « المداثر » عاصمة ملكهم وحشدوا الملاقاة لمسلمين جيشاً عظيماً بقيادة قارن بن قرياس يعاونه أميران من بيت أردشير فأدرك فلول هرمر في « المداثر » وصممهم إليه ، وكان المشى قد علم بحروح هذا الجيش العظيم وجماع العنول المنفرقة إليه فكتب إلى خالد يستأمره ويستتمده ، فكان خالد هو الجواب . .

ووصل خالد إلى مدار وهو كامل النعبنة ، فتصدى قارن لمبارته على عادتهم فل بداية القتال ، فهض إليه خالد ومعقل من الأعشى يسبقان وأراد معقل أن يحصي خالداً من مثل مكينة هرمر فيلقى الصربة دونه أو يسقه إلى قتل قارن ، وبرر عدى اس حاتم وعاصم من عمر لمبارلة لأميرين . فظفروا بهم جميعاً ثم اشتبك المصريقان في ملحمة حاربوا فيها ، كما قال المزحجون حرب حق وصعبة ، وبع بغصهم بعدد القنبي من الفرس ثلاثين ألفاً ، ولولا النهر وبياد الفرس بالسهم كانت الفتنة أعظم من ذلك ولم يكذ يقلت من الموت أحد

وراست الخيره بعد وقعه المذار على عقوب الفاده من الفرس ، فحيل إليهم أن في هؤلاء العرب سرًا لا يدركونه ، وأحبوا أن يحاربوا أنفسهم بأفة من حسنها ، فاستعانوا بأوليائهم من أساء القاتل العربية فيما بين الفهرين ، واشترك هؤلاء في كثير من الوقائع التي دارت بين الفرس والمسلمين بعد وقعه المذار ، وصابوا المسلمين عبر قليل في الوقعتين التاليتين بالولحة وأليس

وكان خالد كعادته في الخيطة وبسادة ، فاستبقى طئفة من حبشه في البلاد التي فتحها حمادة لظهره واستعدادًا لمن يحترق عليها بعد مسيره ، ونقسم إلى الولحة على تعبئة كاملة من معه جميعًا ، ثم فصل طائفتين من الجيش في أثناء الطريق ؛ لكما على مقربة من الولحة وينها في ساعة الخرح باخش الفارسي من ورائه . فطالت المدفعة والمراوغة بين الفريقين قبل أن يظهر الكميات ، وتردد البصر بين الفرس والمسلمين ناره ها وبارة هناك حتى طر الفرس أنهم من البصر فاب قوسين أو أدنى ، ثم صهر أحد الكميتين وظهر الكمين الآخر قبل أن يفوق الفرس من دهشة الكمين الأول ، فتولاهم إعياء اليأس بعد إعياء البصائر والمجاهدة ، وولوا مدبرين وهم يتحصنون من السلاح والعتاد في مهربهم . فكثر منهم القتلى والأسرى كما كثر صيب المسلمين من العنائم والأسلاب

وحالت بعد وقعة الولحة وقعة «أليس» وهي أعجب الوقائع في حرب العراق عما اتفق فيها من صفوف الخيلة وصروف المقادير ومعارض النعمة وعواقب الرجاء مع العائب وعواقب اليأس والقنوط مع المعلوم ، ولعلها هي الوقعة الحاسمة في الصراع بين المخومية والإسلام

راع الشاهنشاه تلاحق الهزائم على حيوشه ، وعاط العرب لمواليه له أن يؤخذوا في حماهم ، وأنفوا أن يهتوا ولا يراهم الناس كفاء لئلا القاتل للوعدة عليهم ، فتلاقوا في الرقعة الوسطى بين ديارهم جميعًا وهي «أليس» ، وانظروا هناك حجاج من الفرس وعدوهم أن ترسي في العدد والعدة على كل حبش برلوا به إلى الميدان في المعارك المصيبة .

وهما تتراءى في الموقف أصعب المقادير .

فإن «بهمم حدوديه» قائد الفرس الذي أمره الشاهنشاه بالسير إلى «أليس» أتاه عه فائدًا آخر بدعى حبيب ، وشخص هو إلى الملائك ليلقى مولاه ويقلب معه لأمر

على وحوهه فى مسائل منتى لا تعمى فيها دراسله عماء الحديث والشاهده ، وليأتى من المدائن بمدد آخر بصف إلى حيثه الأول وإلى حموع الصائل العرسه عند الفرات ، وقال حنان وهو يودعه « كمكف نفسك وحدك عن قتال القوم حتى ألق بك ، إلا أن يعجلوك » .

وبع المدائن هاد ، موله مريض بخود بنفسه ، وليس بطام الوراثه عنى عرش فارس فى ديث الحين من الوصوح والاستقرار بحيث يطمأن إليه إذ مات الملك والحيش بعيد والمتربصون كثير والشيع فى البلاد أكثر من لترصين

فقى « بهم » فى المدائن ، ووصل حنان إلى « ألبس » قبل أن يصل إليها خالد فألقى أثقاله وأمر نتهته الطعام ، ووصل خالد وهم مقبلون على طعامهم لا يتطرون وصوله ، فبثو على طعامهم ؛ لأبهم أمرو ، من جهة ألا يعجلو إلى القتال حتى يوافهم فائدهم الكسر ، ولأبهم من جهة أخرى لم يحسبو أن خالد ليس بالذى يلقى أثقاله وهو على نعشة كاملة مستعد للبرال فى كل لحظة ؛ ولأبهم على ما يصهر كانوا يواجهون القتال أبدأ كأبهم يواجهون ساحات الصوالج والأكر^(١) أو ساحات المباراة فى « الألعاب الرياضية » إنما تبدأ فيها المباراة باتفاق الطرفين

ولكن خالدًا صرب صرته الأولى فى الجموع العربية ، فقتل فائدها وأنجز القتل فى صمومها ، وثار العرس إلى السلاح مكرمين ؛ بثلا يمهلو خالدًا حتى يفرع من الجموع العربية ويتحول إليهم بين خطة وأخرى .

فثبتت الجموع العربية حين أسعفتها السجده ، وثبت العرس وطال بهم الشات لعلمهم أنه صبر ساعات ثم يدرکہم فائدهم الكبير ، وانتلى المسمون من هؤلاء وهؤلاء ببلاء لم يجهلوه من القوم قبل ذلك اليوم ، فاشند الأمر بحالد وثب إلى الله يستدہم العرم للمسمين ويذر له الصحايا إن منحه أكتاف أعدته ، « فلا يستقى منهم أحدًا يقدر عليه حتى يحرق نهرهم بدمائهم » وفى هذا السر بقبة من البدوية المحرومية لا تحمى على اللبيب .

وطال صبر العرس همد . .

وتساقط رموس العرب الموالين لهم فحزعو . .

(١) الصوالج جمع صولج ، والأكر جمع كركرة

ولاحث لحال لوائح النصر الذي سلّاه الله ، فتم يسر بذره وبأدى في المسمين
«الأسر الأسر لا تقتلوا إلا من امتنع» لأنه بذر ليحريين النهر بالدماء ،
عليه جرد بالدماء

وأمر بضرب أعناق القوم في النهر وقد حبس ماءه ، فلم يحرق بالدماء! لأن السماء
تترقق ولا تسيل ولو قبل أهل الأرض ، كما قال له أصحابه . فأطلق الماء فسدن
بالدم أحمر قانياً ثلاثة أيام .

وحمدى ما يقال في الاعتذار لحالد من هذه النعمة المفردة في تربيته صدر
الإسلام أنها كانت شرعة الحرب في تلك الأيام ، وأنه كان يدين بها أماماً صنعوا
بالمثل لأخرى مثل ما صنع بهم في هذه المعركة ، وعاملوا أسرى الحرب ومن لم
يحاربوهم قط مثل هذه المعاملة في حروبهم مع العرب والدولة الرومانية ، وأن حالداً
حسب أن هذه الذنائب قربان إلى الله . ودماء المشركين أشبه القرايين بميادين
الحروب ، وهو حسبان يوثم صرامة طعنه ويحبك في صدر رحل الحرب وسليل
رجال الحرب مد أمد بعيد ، وأكبر الظن عندنا أنه لو كان قائد الجيش رجلاً ممن
طالت صحتهم لمسى عليه السلام كأبي عبيدة أو سعد بن أبي وقاص أو عمر بن
الخطاب لتوسل إلى الله بغير هذه الوسيلة حين أزم الموقف وحد الحدد في معركة
«أليس» . فقد صمغ عمر بن الخطاب عن أسرى السواد وضمهم المسلمون بألوف
لأسرى في معارك العراق والشام ومصر ، فسرحوهم وعاملوهم بحكم الأسرى في
القرآن الكريم ، وقد اختلف فقهاء المسلمين في جواز قتل الأسرى من غير مشركي
العرب ، فلم يحره من أحاره منهم إلا الحسم مادة الفساد ، إن حيف إلا تحسم بغير
هذه السريعة ، وقد كانت مادة الفساد في أعقاب الدولة الأساسية حقيقة ولا
بكران بصرية من أمثال هذه الصدمات . فقد أعيت فيها خيلة من دعوة وإقناع
ومصابرة ، وكانت المكسة بدوم هذه الدولة أشد على الفرس أنفسهم من نكسة
القتلى في تلك المعركة الشعواء ، وهي في عراة صروفها أدنى أن تحسب من معارك
الأقدار ، وتلك هي المعارك التي يراد فيها العالب والمعلوب على الأمر ، ولا يريدان
فيه

وقديماً علمت من طورق الحرب والسلام أن الشر لخص والخير لخص في هذه

الديب عريزان أو مستحبلان ، ههذه القصة الخالدية جاءت على عمر النوف في حروب صدر الإسلام ، ولكنها عجلت بحكم عهد موبوء كان لابد له من ختام ، فحللت القلوب وصكت الترك ورثلت سلطات الطغاة في بلاد الفرس من بلاد الروم ، وكان من حرائها أن الأمصار التي كانت تفرع من حصار خالدها كانت تلقى بأسمها في أحصان عبره من قادة المسمين ، كما أسرع أهل دمشق إلى أن الحرح يتمسون مصالحتة ، مخافة الفتح عوة على يد ابن الوليد

كانت هذه الوقائع تتوالى يوماً بعد يوم وتتوالى معها الترد إلى المدينة بأخبار النصر وعشيم القتال ، فلا يفرج الناس من حديث بريد حتى يتسعه ما وراءه نصر حديد . وسبقت صرمان خالد كل أمام الأميين في سرعه النصر بدولة الأكسرة ، فقال أبو بكر وهو يسع الناس أساء المطهر ليرفوا شراها إلى الخيرة العربية . «يا معشر فريش عدا أسدكم على الأسد فعله على حراذيله»^(١) . أعفمت النساء أن يلدن مثل خالده؟ .

ثم سلمت الخيرة بيد النعمان وموئل تابعة نى ديان - فكان لتسليمها صدى بين أساء العروبة لا يعمله صدى الفتح في بلد من البلدان ؛ لأنها كانت في عالم الشعر والبلاغة حديثاً على كل لسان .

إلا أن الخليفة الذي عرفه رجلاً حصيف الخراة ، حريء الخصافة ، لم يسر اليقين مع الخيطة ولم يسر الخيطة مع اليقين . وأدركه الخدر في هذه المرحلة من مراحل الحرب الفارسية ، فحج إلى الأناة والتريث وأخذ بعنان خالد فلم يأذن له أن يطلق وراء الخيرة حتى يوافيه رميله عياض بن عزم ويأمن كلاهما من ورائهما عدرات الطريق ، وحنة الخليفة في ذلك أظهر من أن تحصى فمن تجاوز الخيرة أحاط به الفرس من اليمين والروم في الشام من اليسار ، ثم إن السواد نفسه إقيم حديث العهد بالإسلام لم ترسخ فيه قدمه ولا يؤمن بركه والتطوح بعده إلى حمى الدولة الفارسية في عواصمها من وراء السهريين ، وقد نى إليه ولاشك أن حلول العرب المهرومين هجرو حوص العراق وأوغلوا في الصحراء إلى دومة الخندل يتجمعون ويتربصون ، وفي الشام أراحيف عن نعتة القيصر لجيوشه لا تعمص

(١) الترد بصمتين جمع البريد (٢) الخراذيل جمع خردوبة وهي لقطعة الكبيرة من لحم

عنها المعيون قبل أن نستقر الطرق وتتمهد مواطئ الفتوح ، فإن لم يجرح عياض بن
عسم من معاقل دومة الجندل بين العراق والشام مالكاً رماها ورمام م حولها ، فكن
خطر هناك محتمل ، وكل عجيبة قد تجر إلى وبال

ولكن الفرس الكرم الذي يحسن في الخطة يعنى من أمان الحسن ثقة لا
بعانيها من معجل الحوقب ومكادحة الأحطار فحر في طبع خالد حذب العباد
وأقام في انصار رمية قرية عام وهو يسميه سنة نساء ، ولو كتب لرحل غيره أن
يظفر في هذه السنة المسريحة بمثل ما ظفروه لارتصاه نفسه سحل عمر كامل ،
لأنه حاصر ثمانى وقائع فيما يليه من البلاد لم يحسنها وقائع تخصى ، وله في كل
وقعة منها نصر يعبر به قائد محور

وقد عرست لخالد في هذه السنة وما فيها عورص شتى ندخل في حساب
أو تأتي من هنا وثم عني غير حسبان فتصرف فيها جميعاً تصرف الرحمن الذي
خلق لتقلب في أخوة الحرب كما خلق السمك لتقلب في الماء ، فلا تفحوه حاة
من حالاتها بما يربكه أو يعيبه .

السوى لاعهد له بسمية غير سمية للصحراء - وهي اخمل - ولكن حالداً
عسم السمر الفارسية بعد وفعة «أليس» فأركب جيشه فيها ليكفيه ويكفي مطايه
مشقة السير ، فلم تنقه السفن إلا قليلاً حتى حفر الماء وبصقت بالقاع ؛ لأن
الفرس تسامعوا بمسيره في النهر فأوصدوا قاطر خيرة وحسوا الماء عن مجراه ، وبو
بدوى غير هذا البدوى فخرج بهذه الخيلة الحصرية وهذه اللعبة الهندسية لوقع في
«حيص بيص» وترك السفن في قاعها ورجع إلى مطايه - وبكه أنى إلا أن يلغ
بالسفن إلى حيث شاء ، فامبعث في نفر من أصحابه كالرؤة إلى القاطر وأطلقوا
ماءها ولسوا هناك في حراستها وفي انتظار السفن التي رتعت براكيها كأنهم
يشهدون عريبة من غرائب السحرة تعث بالسفينة بين بر يأس ونهر عرير . .

وحفروا له في الأنبار حديقاً ، ثم احتموا وراء الخندق بحصن ينظرون إليه من
أعلاه ، كأنهم يهراؤون به ويسعجرونه أن يعبر الخندق وأن يفلح في علاج الحصن
إذا وصل إليه ، فلم يلبث أمام الخندق كثير ولا قليلاً من أمر لسوء سحر الإنس
العجاف وألقى بها في الخندق فسدت وددى جيشه إلى العور عليها ، فأصبح من
في الحصن سجناء في يديه ، ونوسوا إليه أن يرسلهم في سبيلهم مجرد من

السلاح والتماع ، وهم يحمدون الله على النجاة من يوم كيوم «أليس» ، فأحسبهم إلى ما ظنوه .

وعلم أن عمة من عمة يحشد له في عين النمر حشوداً من نعلب وإياد وأصحاب المتبسته سجاح ، ويوهم الفرس بأنه يد للعرب ؛ لأنه أحبر بهم من غيرهم ، فوثب على معقله بالصحرَاء وهو كدأه على بعثة كاملة ، ونصر بد «عقة» حين دنا من الموقع فدل لصحبه اكتمونا ما معه فإني حاس عليه بنفسى . ثم احتضنه وحمله أسيراً وهو لا يتوقع أن يؤخذ من أساليب القتال العربى بهذا الأسلوب العجيب فى كل قتال وقد كان خالد يعتمد إليه كلما بدا له أن يرجو فى الحركة ويضرب قلب أعدائه بضرب عميدهم المطاع فيهم ، فيصيب ما أراد .

وأعطى الدعوة حقها كما أعطى القتال حقه فى كل معركة بما تقتضيه وتوجيه إليه . فكان إذا لقي العرب سألهم مدكيا فيهم نحوه العروة «ويحكم» ، أنتم عرب؟ فما تقومون من العرب؟ أو عجم ، فما تقومون من الإصاف والعدل؟ .

وكان يعين الحمية الدينية فى حيوشه بما يعرى النفوس من نعيم الدنيا ومتاع الحياة ، فأباح الأسلاب من سلبها بالما ما بيع قدرها ، وربما قسم للمقاتل الواحد فى بعض الوقائع ألف دينار فلا يستكثرها عليه ولا يستترع منه عيمة وقعت فى يديه وقال لهم يوماً بعد وقعة المدار «ألا ترون إلى الطعام كرفع التراب؟ والله لو لم يلزمنا الجهاد فى الله والدعاء إلى الله عز وجل ولم يكن إلا المعاش لكان الرأى أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولى الجوع والإفلال من تولاه عن أثاقل عما أنتم عليه» .

وأحكم الصلح كما أحكم الحرب ، فكان عهده مع أهل الحيرة غودحاً للعهود من قبله ، وكان يصلح المستسلمين صلح من يعنى كل حرف يحطه بيمينه ، فلا يريد ولا ينمض . قال فى عهد أهل الحيرة : «هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد بقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به ، عاهدتهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل فى كل سنة حرأ على أيديهم فى الدنيا ، رهباهم وقسهم إلا من كان منهم على غير دى يد حبساً عن الدنيا ماركاً لها . وعلى المنعة ، وإن لم يجمعهم فلا شىء عليهم حتى يجمعهم وإن غدروا بعد أو قول فالدمه منهم بريئة وكانت كثافة هذا العهد فى شهر ربيع الأول سنة اثنتى عشرة هجرية» ، وعلى قدر

سقطته الخائفة بحاربه ومعانديه كانت رعايته ورعفه بأولئك النطاليم الخالدين من
 رراع تلك السلاط - فلهمة لأولى هي التاريخ من قل نابل وبيوى ، رأى فلاحو
 السواد حاكمًا يحفظ لهم علاتهم ويصنعهم من دهقنتهم أو مستعليهم
 ويستمتع شكية صعيقتهم من قويعهم ويشرع بينهم شرعة المساواة و الأمان ، وبلغ من
 رفق الحكم الحديد برعاياه مسمين وغير مسمين أنه تكمل بالعمد إذا تحرر ،
 وبالعمى إذا اعتقر ، وبالعائل إذا انقطع عائلوه ، وهذا مثل بما تكمل به الحكم لحديد
 هي كتاب خالد . قال : « سى دعوتهم إلى الله وإلى رسوله فأبوا أن يجسوا ،
 فخرضت عليهم الجرية أو الحرب ، فقالوا لا حاجة لك بحربك ، ولكن صالح على
 ما صالحت عليه غير من أهل الكتاب فى ، عطاء لجرية وإنى بطرت هي عدتهم ،
 فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل ، ثم ميرتهم فوجدت من كانت به رمانة ألف
 رجل ، فأخرجتهم من العلة ، فصار من وقعت عليه الحرية ستة آلاف فصالحوا
 على ستين ألفاً وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذى أحد على أهل
 النوراة والإنجيل ألا يحالوا ولا يعينوا كافرًا على مسلم من العرب ولا من العجم ،
 ولا يدبوهم على عورات المسلمين ، عليهم ثلاث عهد الله وميثاقه ، أشد ما أحده
 على سى من عهد أو ميثاق أو دمة ، وإن حالوا فلا دمة لهم ولا أمان ، وإن هم
 حفظوا ذلك ورعوه وأدوه إلى مسلمين فلهم ما للمعاهد وعيد المنع لهم ، فإن فتح
 الله عينا فهم على دمتهم ، لهم ثلاث عهد الله وميثاقه أشد ما أحد على سى من
 عهد أو ميثاق ، وعليهم مثل ذلك ألا يحالوا ، وجعلت لهم أياما شيخ ضعف عن
 العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غيبًا فاعتقر وصار أهل دينه يتصدقون
 فيه ، طرحت حزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقام بدار الهجرة ودار
 الإسلام ، فإن حرحوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام فليس على المسلمين النفقة
 على عيالههم وأما عبد من عبيدهم أسلم أقيم فى أسواق المسلمين فبيع بأعلى ما
 يقدر عليهم فى غير وكس ولا تعجيل ودفع ثمنه إلى صاحبه ، ولهم كل ما لبسوا
 من الزى إلا زى الحرب ، من غير أن يتشبهوا بالمسلمين فى لباسهم ، وأما رجل
 منهم وحد عليه شيء من زى الحرب مثل عر لبيه ذلك ، فإن جاء منه بمخرج
 ولا عوقب بقدر ما عليه من زى الحرب ، وشرطت عبيهم حابة ما صالحتهم عليه
 حتى يؤدوه إلى بيت مال المسلمين ، عما لهم منهم ، فإن طلبوا عونًا من المسلمين
 أعينوا به ، ومؤونة القواد من بيت مال المسلمين » .

وقد عزلت هذه الرعاية من جانب ويست السطوة من جانب آخر عزلاً فاصلاً بين
الرعاة والرعية في السواد وهي الديار الفارسية ، فطرت الازدهاء إلى الحرب كأنها
حرب على الرعاة وحدهم لا دقة لهم فيها ولا جمل ، فلا هي بعيهم ولا هم
يحشون من عواقبها العاحلة أو الآخرة ، بل هم بهذه العواقب يعمون وإليها
يشوقون

وكنت وقعة الفراعن آخر أعمال خالد الكبار في العرف وأوفها دلالة على عجز
الدولتين معاً ، دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية ، عدا ما فيها من حوادث التي
هي أصلح ما تكون لتصرف بين معبة العمل الواحد تأتية الأمة في عهد إقبالها
وتأتية الأمة في عهد إدارها ، فهو صرة موت من ناحية وهو من الناحية الأخرى
كالصرة التي تشدد عريضة المضروب وترد السوار إليه

الفراعن في أعلى العراق بين مسالح الفرس والروم يوشك هؤلاء وهؤلاء فيها أن
يساطروا ، منقابلين ، وقد هبط عليها خالد في وثنة من وثباته ، فتألب عليه هنالك
عرب البادية وحيش الروم وكان وشيكاً أن يتألب معهم حيش من الفرس لولا ما
شعلوا به من أمر العرش وورائته والمتارعين عليه ، وقال الروم لخالد كما قال الفرس
بعد ذلك لأبي عبيد : إما أن تعبروا إلينا وإما أن نمر إليكم ، فلم يصنع خالد صبيح
أبي عبيد بل قال لهم : اعبروا أنتم إن شئتم ، وتركهم حتى يعبروا ليحصرهم بيه
وبين النهر فلا يهرب منهم هارب ، وأرسل الفرس والرامحين ليعزلوهم قطيعاً
ويصيفوا عليهم مسالكهم ، ثم يحصدوهم حصداً وهم أشبه بالمحكوم عليهم في
ساعة التنفيذ منهم بالمقتنين .

على أنه لم يشب على الفراعن وثبته تلك حتى كان قد «ظهر» خوف الصحراء
من حموع الأعراب التي تكونت إلى دومة الجندل وعوقت عندها رميله «عباصاً»
هزابة عام ، فلم ترامت أباء فتوحه إلى عياض كتب إليه يستشير ويستنجد ،
فكان هو عني عادته أو حواب بعد رجوع الخطاب ، وكتب إليه يقول :

لبث قليلاً تأتاك الحلائب يحملن أسادا عليها القاشب^(١)

كتائب تتسما كتائب

(١) السيف اللامع المقاطع

وكانت تفصله من دومة الحنبل مسيرة أسبوعين فقطعها هو في أقل من عشرة أيام ، ووجد حصص الدومة مكتنأً بين فيه وحوله زرافات صاق بها الحصص فمسكرت بالعراء ، فحعل القوم جميعاً بينه وبين عياض ، وتوسى عياض حرب من قبله فهرمهم لما حاش في نفسه من بحرة المايسة وما حاش في نفوسهم من الوحش وخيرة . وقدافع المهرمون إلى الحصص يريدون نابه فسبقهم خالد إليه واشترعه وحال بين البارليين في الحصص ومن حوله ، ثم سبى كل من أصابه من رحان وساء . ومن هؤلاء السبايا ابنة الخودي بن ربيعة ، أسنداه خالد لنفسه وقبل إنه اشتراها ، ثم سى بها وأقام معها في دومة الحنبل أيام مقامه فيها .

وكان أهل الدومة قد عاهدوا المسلمين غير مره وبكثوا بعهودهم فأمنعن القتل فيهم وجعلهم كالأعيرهم . ثم فعل إلى العراق وهو مطمئن إلى عروة المراض بأعلى الحرب ، فعراها وفرع منها كما تقدم ، وبقيت له في العراق عزمة خالدية أخرى ولكنها من نوع غير هذا النوع ، فلم يلبث أن قصاها

بقي على موسم الحج أسرعان وهو أول حج حان بعد تلك العروات المتلاحقات التي أمده الله فيها بتصره وعونه .

أيقوته قضاء الشكر في هذا الموسم وأداء المريضة في موعدها؟ ولم؟ الخوف من الأعداء؟ العائق من بعد الشعة ووعورة الطريق؟ العذر من الأعذار التي يعتصم بها القاعدون عن الحج برخصة من الفقهاء؟ كل أولئك عوائق لا يستهان بها ولكنها حلت ليبللها لا ليكص عنها . وفي حطمة الريح العاصفة نخرج من أعلى العراق إلى أقصى الحجر وأدى المريضة وعاد إلى معسكره دون أن يعلم أحد من الأعداء ولا من المسلمين إلا أقرب خاصته المقربين ، بل دون أن يعلم الخليفة نفسه وقد كان على الحج في ذلك العالم .

ويروق بعض المؤرخين أن يحسب هذه العزمة الخالدية من معامراته التي تنم على فرط الثقة بنفسه ولا تنم على شيء غير ذلك ، ولكنها في الواقع دلت على ثقته بعيره كما دلت على ثقته بنفسه . فقد علم أن معه بالخييش من فيه عى وكفدية إذا جد في غيبته طارق داهم أو خطب حارب . وكفى بشئ رائده المقدام ، وبالقعقاع صاحبه القديم وموضع ثقته الحميم

علم الخليفة بمغامرته هذه فحماه منه ملام ، وإعجاب ، وتكليف ، ووصاية أمره بحرب الدولة الرومانية بعد هذا النصر الذي أفضاه في حروب الدولة انقارسية ، وأن يسارع إلى مرضاة الله وقتال أعداء الله ، ويكون كمن يجاهد في الله حق جهاد .

وقال له «سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك ، فربهم قد شحوا وأشحوا وإياك أن تعود إلى مثل ما فعلت ، فإنه لم يشح الجموع من الناس بعون الله شحيك ، ولن يسرع الشجاء من الناس ترعك فليهنك أما سليمان البية والخطوة فأتمم يتمم الله لك ولا يدخلك عجب فتحسر وتدخل ، وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن ولي الجراء .

وكتب إلى أمي عبيدة في الشام يحضره مقدم خالد إليه ، ويقول له في كلام صريح «سلام الله عليك أم بعد . فقد وليت خالدًا قال العدو في الشام ، فلا تحالفة واسمع له وأطع ، وإني لم أبعثه عليك ألا تكون عدو خيرًا منه ، ولكسي صست أن له قطنة في الحرب لبست لك . أراد الله بنا وبك خيرًا والسلام»

فأرسل خالد إلى أمي عبيدة رسولاً يبلغه قبل مقدمه بكتاب يقول فيه «أتاني كتاب حليمة رسول الله يأمرني بالسير إلى الشام ، وبالقيام على حدها والتولي لأمره ، والله ما طست منك قط ولا أردته إد وليته ، فأنت على حالك الذي كنت عليه لا نعصيك ولا نحالفك ، ولا نقطع حولك أمرًا . فأنت سيد المسلمين لا تنكر فصلك ولا تستعنى من رأيك» .

وأول خاطر سبق إلى ظن خالد حين حوله الخليفة من حرب فارس إلى حرب الروم أنه عمل من أعمال «الأعيسر» كما يسميه ويعنى به عمر من الخطاب ، وأنه نفس عليه أن يصرده بفتح فارس فأرسله إلى ميدان له فيه شركاء من أعلام الصحابة دوى الخطر والسابقة الملحوظة بين المسلمين

وهو طر بعيد يخطر على بال خالد ، لأنه يتوقع شيئًا من صوب عمر ولكنه لا يحظر على بال غيره . إذ لا ينس عمر على خالد أن يفرد بغلبة الفرس ، ثم يرسله ليقلب الروم بعد أن تأخر الفتح على أيدي كبار القواد من أحلاء الصحابة ، فهذا مرشد من الصحر يتناول إليه المتناول ، وليس سقص منه يتعمده لخالد من بناءه

عنه . وإنما اختار الخليفة حالداً ، لأن العراق كانت هي هدأة من جانب الفرس بعد هزائمهم الكثيرة ، وكان هي جيش المسلمين وفواده بالعراق كفايه للمثابرة على الفتح بعد أن تم التلويح والتمهيد ؛ ولأن حالداً كان أقرب مدد إلى الشام ولم يكن باحتار بقية من قوة هاضمة تضاف إلى قواتهم في حرب الرومان . فاختاره الخليفة وهو يقول «لأسين الروم وسلاوس الشيطان بخالد بن الوليد» .

وليس من عادة خالد أن يصيح وقتاً . قل أو أكثر . إذا سيطر به أمر من الأمور ، فلما بلغ لجهاد بالشام نظر فإذا بيه وبين الشام يومئذ من خمسمائة إلى ستمائة ميل على حسب الطرق التي يسلكها ، وهي أربع يختار منها أصلحها لإحراز العمل الذي وكل إليه .

من هذه الطرق الأربع ما هو سهل موفور للماء والكأ ولكنه من أجل هذا موفور الحراس والسكان ، فهم يعوقونه بالمقاومة عن الإسراع بالمطوب دون أن تكون للعبة عليهم فتدة تذكر في القتال الحاسم بين المسلمين والرومان

ومنها ما هو قليل الحراس والسكان وفيه الماء والكأ ، ولكنه بعيد يطول السير فيه

ومنها ما هو وعز قليل الماء والكأ مخيف غير مطروق ، أو كما قال الدليل الذي سأله خالد «بك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال ، والله إن الراكب المهرد ليحاربها على نفسه ، وما يسلكها إلا معرور . إنها خمس ليل حياء لا يصاب فيها ماء مع مضلتها . »

وأيسر شيء على القارئ الذي عرف حالداً أن يعلم أي هذه الطرق يسلكه خالد ، فما هو بسالك حيث سلك إلا الطريق الذي هو أحوج إلى قسرة القائد وأدل على العزيمة والمضاء وأبعدها جميعاً أن يتوقع العدو هجومًا منه فأجمع عزمه على طريق من الطرق الأربع هو أصعبها وأقصرها ، وهو الذي حووه الأدلاء منه ، وقال لنديله لأكر رافع بن عميرة الطائي ولا أحد يعنى عباءه في السير تنك المعارة المهلكة وإن كان يومئذ من حسر النظر كالمكحوف الضير

«ويحك إنه والله إن لي بد من ذلك» إن القوة تأتي على قدر الية ، وإن المسلم لا ينبغي له أن يكثر شيء يقع فيه مع معونة الله

ويروى الرواة أن الدليل قال لهم بعد دبت أكثر من الماء، من استطاع منكم أن يصبر أدنى ناقته على ماء فيجعل، فيها لمهانت لا ما دفع الله .

ثم قال لخالد : اغتني عشرين جزوراً عطشاً سمناً مساناً فأتاه بهن فظمأهن حتى إذا أجهدن عطشاً أوردهن فشربن ، حتى إذا ثلأل عمد إليهن فقطع مشافرهن ثم كعمهن لثلاً يجتررن . .

وأشار عبي خالد أن يقتط أربعاً من هذه الحزور كما نزل مرلاً ليسقى خيل ، وأن يشرب الحمد بما حموا من الماء ففعلوا ما أشار به حتى كان آخر يوم في المسارة . . فقال له خالد . وبحك يا رافع ما عندك؟ فأرسل رافع جماعة يبطرون شحيرة من عوسج في موضع كان يعهد فيها ويعهد فيه الماء على مقربة منها فلم يحدوها . فصاح الرجل بالويز واسترح قائلاً . «اهلكتم والله إحدن وهكت لا أبا لكم . انظروا انظروا» فلما نظروا ومعو البصر رأوا حدراً قد بقى منها وقصع سائرهما ، فكروا فرحاً وشكراً وحفروا في أصلها فسع لهم الماء ، فشربوا ونجوا من هذا الخطر الأليم الذي دونه كن خطر من لقاء الأعداء

وفي ذلك يقول أبو أحيحة القرشي

في مهمه مشتبه إلى سوى	لله عينا رافع أنى اهتدى
معصوبة كأنها ملأى ثرى	والعين مه قد تغشاها الردى
من الصوى تترى له بعد الصوى	هو يرى بقلبه ما لا يرى
والسير زعراع فما فيه ونى	فوز من قراقسر إلى سوى
فى اليوم يومين رواحا وسرى	حمس إذا ما سارها الجيش بكى
هذا العمري رافع هو الهدى	ما سارها من قبله إنس يرى

وسواء صحت رواية الحرور المعصاة أو كى فيها شيء من توسع الحيان ، والطريق الذى سلكه خالد معروف ، والقدرة عليه هى موضع العبرة والتأمل فى هذا المقام أما نحن فمالئى براه أن حاله لم يكن لينظر حتى تظماً الإبل وهى لا تحمد من الطمأ إلا هى أيام ، وأن الإبل لا تحرن الماء فى خوفها وإن لم تجتره دون أن يصرف منها ، وأن عشرين جزوراً غتلى كروشها بالماء لا تسقى الخيل فى الجيش كله وعدته عشرة آلاف ، فلاند من تدبير آخر مع هذا التدبير تجتمع فيه السرعة إلى النحيف إلى الإقدام

والأمر الذي لاشت فيه بعد هذا كله أن حالداً سار بحيشه وعدته عشرة آلاف من عين الثمر إلى فرافر ، ثم من فرافر إلى سوى ويسهما تلك المدة المهلكة ، ثم إلى تدمر والعوصة فيبصرى ، فقطع هذه المسافة في ثمانية عشر يوماً ، لأنه كما قال الشاعر كان يطوي مسافة اليومين في يوم واحد . .

« في اليوم يومين رواحاً وسرى . »

خرج من الحيرة في أوائل صفر من سنة ثلاث وعشر للهجرة ، وطوى تلك المسافة في تلك الأيام بعد أن قمع كل مقاومة لقيها من المسالح والحصون وراء المفازة الخاوية من كل ديار .

وتفق حروجه من الخيره وحيوش المسلمين في الشام تشرع في حطة جديدة للتراجع إلى جنوب وملافاة الحيوش الرومانية الحرارة في جمع واحد يهص لها ويحول دون الإحداق بكل جيش منها على أفراد

وكان الخليفة قد سيرها - بعيد منتصف السنة الثانية عشرة للهجرة - مع أربعة من كبار القواد في طرق مختلفة إلى وجهات متعددة

فسير يريد من أمى سفبان على رأس ستة آلاف أو سبعة آلاف إلى دمشق ، وسير شرحبيل من حسنة على مثل هذا العدد إلى الأردن ، وسير عمرو بن العاص على رأس حش يريد على ذلك قليلاً إلى فلسطين ، وسير أنا عبيدة بن الخرح على رأس خمسة آلاف أو ستة آلاف إلى نخابة ، وأمدهم بعكرمة بن أمى جهل في جيش صغير ليحمى ظهور من يحتاج منهم إلى الحماية وسرع باللمحة إلى من يطلب منهم المعونة .

ولا نعم على التحقيق حكمة التعرف بين هذه الحيوش في طرائقها ووجهاتها ، ولكنها على ما يظهر مسألة الماء والكأ من جهة ، ثم رعة الخبيعة في تشتيت حموع الروم وتوزيع أعراضها ، ولا يتخلو الأمر من الخبيطة لمنع الالتفاف بالجيش لو حد إذا أو عل في البلاد كما حدث قسب ذلك جيش خالد بن سعيد ، فإن الحيوش الأربعة يكون كل منها مدد لصاحبه وماعاً للالفاف به أو منقذ له من الالتفاف إذا وقع ضحاة ، وهذا مع علم الخليفة يومئذ يتفوق الحميات الرومانية في

مواقع السلاسل الحربية ، إذ كان الرومان على ما يظهر قد اطمأنوا من جانب الفرس بعد انتصارهم عليهم ، واطمأنوا إلى جانب العرب بعد رجوع حملاتهم الثلاث على البحر المعروف ، وهي حملات مؤتة وتبوك وحيش أسامة ، ورادهم اطمئناناً أنهم علموا الحملة الرابعة وهي حملة خالد بن سعيد ، وأنهم عرفوا إشغال العرب بحرب الفرس ، فوقع في روعهم أن العرب أضعف من أن يشعروا أنفسهم بحرب دولتين عظيمتين في وقت واحد . فمن هنا حلت ربوع الشام من جيش كبير لرومان ، وعلم الخليفة ذلك فاعتقد أن تعرفه الخيوش في رحلتها إلى الشام أقرب إلى توزيع العمل والإسراع فيه ، فإن تعير الموقف وعمد الرومان إلى حشد الحشود الكبيرة فقد أوصى العامة بالنشاور والتعاون في مصابة هذه الطوارئ ، كما أوصاهم بالرجوع إليه

وقد عجلت هذه الخيوش في وجهاتها وتقدم بعضها إلى دمشق وبعضها إلى حمص وأرغل بعضها إلى فلسطين

ثم ملى إليهم أن القيصر يستعد لهم بجيش كبير في أنطاكية وجيش آخر في حوار بيت المقدس ، وبلغت عدة الجيش الأول على تقدير بعض المؤرخين مائتين وأربعين ألفاً ، وعدة الجيش الثاني سبعين ألفاً أو نحو ذلك ، ولو برلنا بعدة الجيشين إلى النصف حساباً للمسألة وحمل الحقيقة لما كان نصف هذا العدد بالشيء القليل ؛ لأنه يربى على ثلاثة أصعاف الجيش العربي كله بعد قدوم جيش خالد إليه ، ولم يرتفع به أحد إلى ما فوق الخمسين ألفاً على أعظم تقدير

فتشاور القواد فيما يصنعون ، واستقر رأيهم على التراجع إلى الجنوب ؛ ليتجمعوا قبل أن يتلاقى الجيشان الرومانيان ويشتبكا بهم وهم متباعدون متفرقون ، كل منهم في بضعة آلاف .

ولعلمهم يصبحون في تراجعهم أقرب إلى الأمن إذا حاربوا وظهورهم إلى الصحراء ، وقد علموا بالأمثلة الكثيرة أن الخيوش الرومانية تحجم عند حدودها ولا تجسر على حوضها في أعقاب جيش كبير أو صغير .

والمؤرخون محتلمون هيمس هو صاحب المشورة الأولى بالتراجع إلى الجنوب منهم من يقول إنه أبو سفيان بن حرب ومنهم من يقول إنه عمرو بن العاص وهذا القول الأخير أدنى إلى الواقع ، لأن عمرًا كان يتراجع في الجنوب قبل أن تصل

الخيوش الأخرى إليه ، وكان من الموافق لخططه أن يوافيه الأمداد في ميدانه
فلسطين .

وأيًا كان صاحب الرأي الأول في هذا ، فقد تم السرح بإقرار الخليفة وكان شعوره
بحرج المسلمين في أماكنهم هو الباعث له أن يستدعى حالداً من العراق إلى
الشام ، فكتب لقواده بالشام يقول : «اجتمعوا فتكونوا عسكرياً واحداً والقوا زحوف
المشركين بزحف المسلمين ، فإنكم أعوان الله والله ناصر من نصره وحادل من كمره ،
ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وإنما يؤتى عشرة الآلاف والريادة على عشرة الآلاف إذا
أتوا من تلقاء الدنوب ، فاحترسوا من الدنوب واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل
كل رجل منكم بأصحابه » .

ومن المتعذر جداً تمحيص التواريخ في ترتيب الوقائع بعد وصول خالد إلى
الشام ، ولكن الأرجح فيما يرى أن المعركة الأولى بدأت مع الجيش الأصغر في
«أجناديس» بالحسب ؛ لأن البدء بأصغر القوتين وإحلاء الخوف قبل الانتقال إلى
الشمال أولى وأوفق من ترك هذا الجيش الأصغر وراء ظهور المسلمين ومراحتهم
الجيش الأكبر بين عدوين ، ولأن معركة «أجناديس» لم يشترك فيها معظم القواد
المسلمين ، مما يرجح أنها وقعت قبل اجتماع هؤلاء القواد في صعيد واحد ، ولو أنها
وقعت بعد المعركة الكبرى في اليرموك ما كان مفهوماً أن يترك أولئك القواد جيشاً
كجيش الرومان في فلسطين دون أن يتعقبوه جميعاً ، مع فراعهم من أسر الجيش
الكبير في اليرموك

وعلى أية حال ، هرم الروم هي «أجناديس» وكانت الواقعة الحاسمة بينهم وبين
المسلمين في اليرموك ، على اختلاف كثير في التواريخ ، واتفاق في تصوير حطة
القتال .

ويحسن بنا قبل أن نستطرد إلى الكلام على المعركة أن نجمل حالة الجيشين
المتقاتلين عند اللقاء ..

والجيش الروماني كان أوفر عدداً وأكمل عدة بعير حلاف ، ولكنه حليط من
عناصر عدة منها الروم والأرمن والعرب وأحسب أخرى ، وقد يطر لأول وهلة أنه
امسر بالنظام والخطط الفنية على أعدائه ، ولكنه في الحقيقة كان أبعد الجيشين عن
النظام الصحيح إذا أردنا بالنظام وحدة الحركة والتوجيه ؛ لأن المتطوعين فيه من أساء

القنائل كانوا يحاربون على ديدهم وأخوند الطاميين يحاربون على ديد آخر ،
وتعوقهم العدد الكثيرة والشكك السابعة الى حسب من مريهم ، فهي إلى
النقص ما أقرب منها إلى المزية

وقد أثبتت فيهم حمية الدين ولكنهم ثاروا لها منشككين متفرقين ، وجعلتهم
حماستهم الدينية يترقبون من الله عقاباً يرله بهم على خطاياهم وخطايا قصيرهم
ورؤسائهم المتهمين عندهم بالربيع ومضاوغة الشيطان . . . فحمية الدين تثيرهم من
ناحية وتصيرهم من ناحية ، وليست هي من قوة اليقين المكين

أما جيش العرب ، فقد كان من أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة وتروح إلى قيادة
واحدة ، وفي صدورهم من حمية الفتال كل ما يحمر القلب لإسائ إلى الشات
ولاستئصال ، غيرة على الدس وغيرة على العرض وناهيك بالعيرتين ، وبقين من
نعيم الآخرة وبعيم الدنيا إذا كتب له الفلاح ، وكفى بإغراء النعيمين

كان في جيش المسلمين أصون كرائم السيوات القرشية ؛ ثبت أبى بكر وأم
معاوية وروح عكرمة بن أبى جهل وعقائل أناس من جند والقادة ، وقد أمرهن
أبو عبيدة قبل المعركة « أن يأخذن بأيديهن أعمدة البيوت والخيام ويجعلن الحجارة
بين أيديهن ، فإن كان لأمر للمسلمين أقمن على ما هن عليه ، وإن رأين أحداً من
المسلمين مهزماً صربن وجهه بأعمدتهن وأرجعه بحجارتهن ، ورهن إليه أولادهن
وقلن له قاتل عن أمك وعن الإسلام » . ولم يقع خالد يهد بل قال لهن يا
ساء المسلمين أيما رجل أقبل عليكم مهزماً فاقتلنه

ومن أجل هذا ، لا يعجب أن يكون هرقل قد ورد القري وفكر حقاً في عرض
الصالح على المسلمين وقال لطنته ودري شورا « لأن تعطوهم نصف ما أخرجته
الشام وتأخذوا نصفه وتقربو من حبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام
كلها ويشاركوكم في حبال الروم » ، ولكنهم استصعفوه وكبر عليهم أن بحيوه .

أما المسلمون ، فالصالح الذي فكروا فيه قبل الفتال هو الصالح على شرطهم
المعلوم ؛ الإسلام أو الحرية ، فإن لم يقب شرط من الشرطين فالحكم لسيف .

وقد أفادهم عرض هذه الشروط على قوة وزادهم في نفوس أعدائهم مهابة
على مهابة ، فلما ذهب وفدهم يعرض هذه الشروط قبل القتال على القائد تيودور -

أحى القيصر حسب هذا أنه يهولهم بالذبح والثراء ويكسر نفوسهم بما يريهم من
حلل الأنهة والنعيم فأقام لهم سر دقا من حاجر خربير يسقلهم فيه ، فوقعو عند
بابه ولم يدخلوه فائلى «إن دينا يمعنا أن نعرش ، خربير والديناح»

فها لوه برههم أكثر ما هالهم نتره . . وأعسر شىء على حدوده بعد ذلك أن
يؤمنوا ، حق الإيمان أنهم - وهم العارقون فى الماعم واللدات يقاتنون فى سبيل الله
قوماً ، هذا صلح رهدهم فى الماعم واللدات ، وهذا صلح استعلانهم على الدنيا وما
تسطه لهم من عواية

ولم يحف على أحد من قادة الرومان والعرب حصر المعركة الكبيرة التى هم
مقلون عليها ، هى معركة فاصلة فى مصير الشام ما فى ذلك رب وقد يكون
لمعركة الفاصلة ، أبصاً فى مصير الدولة الروماسة ومصير الأمة العربية ، فإن هزيمة
الدولة الرومانية فيها تنزع من مده الأماكن المقدسة ويعقبها صياح مصر وثورة
التريصين بالقيصر وأهل بيته فى بلاد الآسيوية والأوربية ، وإن هزيمة الجيش
العربى معها هزيمة الجيش ، الأكبر الذى لا يسع الوقت ولا تتسع الطاق لتجريد
جيش غيره على أثر الهزيمة ، وقد نعى القيصر الرومى بإرسال قبائل الشام فى
أعقاب المسلمين إلى المحجر والجزيرة العربية ولا بعد أن تشير أساء الجزيرة العربية
أنفسهم على حيفة الإسلام من لا تزال لهم نراب معنى فى حايا الصدور .

فاستعد الفريقان عاية ما فى الوسع من استعداد .

وارتضى كلاهما موقع اليرموك للوقعة الفاصلة بينهما ؛ لأنه يوافق طللة القيصر
من مكان «واسع العطر ، واسع المنطرد ، صيق المهرب» ولا يكرهه المسلمون ؛ لأنهم
رأوا أن مرل الروم فيه مرل محصور بين النهر والبحيرة والوادي وحيش
المسلمين . أو كما قال عمرو بن العاص حين رآهم «أيها الناس أشروا
حصرت والله الروم ، وقلما جاء محصور بخير» . تخاجر الجيشان أشهراً لا يشتكان
إلى جمادى الآخرة أو رجب على قول بعض الرواة .

وكلاهما بطر كيف بدأ لآخر هجومه بربت به لقاءه ، وكلاهما قد عا طاقه
من سلاح الأيدى ولم يزل يعنى طاقته من سلاح النوس ؛ سلاح العنقيدة
والهداء

واسعدان الرومان بالفسييس يلهبون الحمية ويصرمون الحفيظة ، ويهوبون على
أشاعهم ببدل الأرواح في سبيل الملة والدولة والمجد القديم .

وأقبل المسمون على الفرأد يرتلوه وعلى العطاط يدمرون بها القنوب ، وجعلوا
وراءهم حرساً من الأعراض هو أقوى الحراس بعد الإيمان . . ثم كثرت الحركة أيام
في جيش الروم ، فعلم القادة المسمون أنهم مقتربون من الهجوم ، ولم يشأ خالد أن
تستدئ المعركة بقيادة متفرقة لا تتحد في نظام واحد ، فصرف همه الأول إلى
تنظيم الفرق جميعاً في نعثة واحدة يقودها رجل واحد ، ووجد من رمالاته قوتاً
مصعبة فأجابوه إلى ما دعاهم إليه

قال لهم قبل بدء القتال «هذا يوم من أيام الله لا ينغى فيه المخز ولا
البنغى ، أحلصوا جهادكم وأرضوا الله بعملكم ، فإن هذا اليوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا
قوماً على نظام وتنعثة وأنتم متساندون » ، فإن ذلك لا يجمل ولا يسعي . . وإن
من وراءكم لو يعلم علمكم حال بيسكم وبين هذا ، فعملوا فيما لم تؤمروا به بالدي
ترون أنه الرأي .

ثم قال وقد سأله رأيه : «إن الذي أنتم فيه أشد على المسمين مما قد غشيتهم ،
وأضع للمشركين من إمدادهم ، وبقد علمت أن الدنيا فرقت بيسكم والله الله . . . إن
تأمير بعضكم لا يقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله هلموا فإن هؤلاء
قد نهياؤا وهذا يوم له ما بعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وإن
هرمون لم يصب بعدها . هلموا فستعاور الإمارة ، فليكن عليها بعضا ليوم والآخر
غداً والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ، ودعوى إليكم اليوم»

فأسندوا إليه قيادتهم يومها ، وكان توحيد القيادة أول خطوة في طريق النصر
الحاسم بمعركة اليرموك . ثم أسرع إلى تعبئة قواده وجوده على الوضع الذي رآه
ملائماً لتعبئة الرومانية ، وهو الوضع الملائم للحرب «في العمق» - كما يقول
العسكريون في هذه الأيام

فأقام عمرو بن العاص على الجناح الأيمن ، ويريد من أبي سفيان على الجناح
الأيسر ، وأما عبيدة بن الجراح على القلب ، وانحد مكانه في كبة الجمع ولجأ إلى
طريقته التي احتارها لحرب بني حبيشة وهي طريقة الكراديس ، لأنها أصلح

(١) أي كل قائد مستقل بجند عن الآخرين

الطرق للدفاع في الصفوف ، وأدعاهما إلى السافس بين المقتندين وتمييزهم بالسعة أو بالثناء .

وكانت كل فرقة من الميمنة أو القلب أو الميسرة تتألف من كراديس عدة ، على كل منها قائد معروف ، ومنهم صاحبه القديم القعقاع ، وزميله هي حرب اليمامة عكرمة بن أبي جهل ، وزميله في دومة الجندل عياض بن غنم ، واه عبد الرحمن وهو يومئذ دون العشرين . وجملة الكراديس خميفة ثمانية وثلاثون معظمها هي القلب ، وعدته ثمانية عشر كرومًا رئيسهم أبو عبيدة وفيهم عكرمة والقعقاع .

وكان موضوع الميمنة بحيث يستطيع الالتفاف بالحيش الروماني إذا أمعن في الهجوم والإطباق عليه مع القلب إذا ارتد إلى الوراء

وفرع من التعنئة فعمد إلى «القوة الأدبية» بوليها حلفها من عبايته الكرى ، وأحرج المقداد بقرأ على الجيش سورة الأنازل ، ودعا كل رئيس أن يعط حنقه ويصبرهم بزماء في حركاته ، وجماع هذه العفلات خطبة عمرو بن العاص حيث قال : «عصوا الأوبار وجثوا على الركب واشرعوا الرماح ، فإذا حملو عليكم فأسهلوهم ، حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثروا في وجوههم وثبة الأسد ، فوالذي يرعى الصدق وبش عبيد ويمقت الكذب ويجرى بالإحسان إحساناً ، لقد سمعت أن المسلمين سيمنتحونها كمرًا كمرًا ومصرًا مصرًا ، فلا تهولكم جموعهم ولا عددهم ، فإنكم لو صدقتموهم الحممة تطايروا تطاير الحول»^(١)

وحظب مثله معاد بن حبل وأبو سميان ، وبرر القعقاع وعكرمة قائداً المجيبه هي القلب يرتحرون ، واحتير يوم القتال في يوم ربح سموم سدياء^(٢) في حمارة لقيط فكانت طاقة المسلمين به أكبر من طاقة الروم .

ثم اثنت الحيشان على نحو لا يعنم تفصيله على التحقيق ، ولكنه بدأ كم تعودن في حروب المسلمين بهجمة شعواء من حاسب العدو يترعرع بها العدد الصغير أمام العدد الكبير ، ثم تكون الكرة الثابتة لحماية العقيدة ومراعاة الإيمان والاعتصام بنية الهداء .

فلما انكثف المسلمون بعد الهجمة الأولى ثابوا إلى عزماتهم بحوة الإيمان

(٢) أي - محملة بالتراب

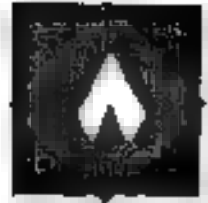
(١) الجحول أي - أصروا النحل

ونحو العرص والأمة ، فصرت النساء في وحو الخيل قتلات «إلى أين يا حماة الإسلام وطلاب الشهادة!» وصاح عكرمة كأنه يؤب نفسه «قاتلت رسول الله في كل موطن وأمر اليوم ؟ من يسايح على لموت ؟» فبيعه أربعمئة من العرس المعاوير لا يقوم في وجههم قائم ، وصدمو الروم حتى صبرهم غير حافلين بما أصابهم ، وقد قتل في صبيعتهم عكرمة وابنه ومعظم أولئك العرس ، ولم يسج منهم قط إلا جريح مئس بأجراح ، وأفلحت الكرة الثانية ، وتقهقر الروم

وعد اهتم خالد بالعرل بين حيل العدو ومشاته ، فتصايقت الخيل وعحرت عن الحولان وولت هاربة فأحلوا لها الطريق ، ورجع المشاة إلى الخنادق فلحقهم بها المسجون ، ثم أحاصوا بهم من ورائهم فشاخ فيهم الدعر وسقطوا وهم موبون مهولون في هوة الوافوصه أو وادي الرقاد . وقيل ان موتاهم بالوافوصه كانوا أكثر من قتلاهم في حومة الوغى ؛ لأنهم عدروا بثمانين ألفاً سقطوا في الوادي فرادى وجماعات ؛ إذ كان بعضهم يقربون أنفسهم في السلاسل كل عشرة في سلسلة واحدة شيئاً لأقدامهم وبينيساً من الفرار ، فإذا بالوخل يقل حديد السلاسل كما قل عرائم القلوب وبلغ البأس مبلغه من أشرف القوم فقعدوا في أماكنهم ينتظرون الموت ، فكأنهم قد فرو قاعدين!

وحق لهرقل وقد حطت محاولاته جميعاً بعد اليرموك أن يودع الشام إلى عاصمة ملكه المتصدع ودعاً - كما قال - . ليس بعده لقاء .

العزل



يسنحق الرجل أن يسمى بطلاً من أبطال التاريخ إذا كان له «دور تاريخي»
بقصته ويتسم بلامحه ودواعيه . .

وآية نقصاء ذلك الدور أن يبلغ البطل من الأعمال المقدورة له قمته العيب التي
لا قمة وراءها ، وأنه يعدو هذا الدور فإذا هو مفتت على الأحرار من لهم حق مثل
حقه في أدوار التاريخ ، أو يعدوه إلى أعمال يعنى فيها الأحرار مثل عائه ، وتدحل
فى باب من السعى والدراية غير بابه .

وقد بلغ خالد فى معركة اليرموك قمته العيب التي لا مرتقى بعدها لراق جمع
فتنة الردة ، وصرب دولة الأكاسرة صرته الدامعة ، ووجد قيادة المسلمين فى حرب
الرومان قصدهم إلى ما وراء حدودهم ، وحلت ميادين الشام بعدها من أعمال يصح
أن تسمى بالأعمال الخالدية فهي بين حصار أو مروعة أو تسليم ، وإما يراد خالد
بتحطيم قوى الأعداء التي تعز على التحطيم .

وإن يكن من عمل «خالد» في ميادين الشام بعد معركة اليرموك فهو عمله في
مرج الروم ، ثم عمله في قنسرين^(١) .

ففى مرج الروم ، كان هو وأبو عبيدة ينزلهما فائداً رومياً هما جونى وتودر
كما سماه خالد ، فتسلل تودر تحت الليل ليهاجى الجيش العربى عند دمشق بقياده
يريد من أبى سفيان وبأحد حيوش المسلمين على عرة متسرقين . فانفق خالد وأبو
عبيدة على تعقبه ومعاذته من حنقه قبل أن يهاجى يريد من أبى سفيان فأوقعاه
فى الفج الذى نصبه ، ولم يرجع خالد إلى أبى عبيدة إلا ونوذر مقتول وحيشه مبدد
كما قال :

نحن قتلنا توذرا وشوذرا وقبلة ما قد قتلنا حيدرا

نحن أزرنا العيضة الأكيدرا

(١) قنسرين وقسرون - كورة بالشام - إجماع الأعلام ، ص ٢٢٢

وهي قنسرين حاصر خالد الرومان اختتمين بحصونها هطاولوا وأبرموه هقل لهم محققاً : « لو كنتم في السحاب لحمصا الله إليكم أو لأترككم إليا » وأنى أن يصالحهم بعد ذلك إلا على تحريب المدينة ودك حصونها ، فختمت بذلك صرياته الخالديات

ولكنه كان قبل مرج الروم وقنسرين قد وفى « دوره التاريخى » أكمل وعاء ، فلو فاته هذان الحملان لما نقص من محله شىء ولا تغير محرى الحوادث فى أعقاب هزيمة الرومان .



أما سائر المباديين فقد تولاهم قواد آخرون ففتحت بقية فارس ، وفتحت مصر وشطر من إفريقية الشمالية ، وكتبت بذك « أدوار تاريخية » أخرى للمشى بن حارثة وسعد بن أبى وقاص والعمان بن مقرن وعمرو بن العاص ، ورحال غيرهم يساووهم أو يقلون عنهم فى المقلرة ولا يقلون عنهم فى انقصد والية ، وكل زيادة فى عمل خالد لا تصيف إليه مجداً فوق محله ، وتنقص ولا ريب من عمل هؤلاء ، وتحرم الإسلام أيدياً كثيرة تعمل له وتدفع عنه ، وليس هو بمستغن عن تلك الأيدي الكثيرة بيد واحدة ، نالها ما بلغ بها الرحاح والاستعلاء

قلنا فى أول هذا المصل إن انقصاء « الدور التاريخى » لطل من لأبطال له آيات تدل عليه ، ومنها أن يعدو دوره إلى أعمال يعنى فيها الآخرون مثل عمائه وتدحن فى باب من السعى والدراية غير مانه ، ونريد على هدا أن عناه الآخرى فى هدا حيز من عمائه لهو أولى أن يدل على انقصاء دوره وانتقاله إلى من هو أحق به وأخلق .

وهى ميدان الشام - بعد معركة اليرموك - كان أبو عبيدة بن الجراح أحق بالموقف الجديد من خالد بن الوليد ؛ لأنه موقف التسليم والمسألة واستلال الحقود وصمد الجراح وتقريب القلوب ، وفى جميع أولئك يتسع المجال لهوادة أبى عبيدة ويضيق بضربات خالد . فأبو عبيدة يسرع إلى المسألة إذا فتحت له أربابها ، ولا يبطئ عن الحرب إذا وجهت عليه أسبابها ، فإن كانت المسألة حصى فداك ، وإن كان يوم الضربات الخالديات فهى لديه يرمى بها فى مراميها ، وإنما يكون العمل الأول لها لمن يسألهم ويتقبل التسليم ، ويكون لعمل التابع له لمن يرفع صوط القمة على

الذين يلحدون في العداء كأهل قسرين ، فلا يملكون إلا بتحريب الديار ودك الحصون .

ولا حرم كان أساء الأمصار يتسامعون بحلم أبي عبيدة فيقبلون على التسليم إليه ويؤثرون خطابهم له على خطابهم لغيره ، وكان خالد يرضى بهذا حيناً ويسخط منه حيناً ، كما سخط عبد تسليم دمشق ووساطة أبي عبيدة في العفو عن أهلها . فيه كان يحسبهم معلولين عوة فيعاقبون بالنسب والنصاص ولا يسط لهم مهاد العذر والوادعة ، ولولا أنه لا يعدر بعهد عاهدتهم به أبو عبيدة لما كان لهم من شرط عنده غير شرط على أهل قسرين .

فصواب الساريح وصواب ابن الخطاب قد تلافيا هاهنا بإسناد الأمر إلى أبي عبيدة بن الجراح في أوانه المقتور ، وإن كان تلافياً لم يجر على قصد مرسوم .

تولى الماروق الخلافة بعد الصديق عليها الرضوان . .

ورأى الماروق في أبي عبيدة بن الجراح معروف فقد كان لا يعدل به أحداً من الصحابة الأولين ، وقد همّ بترشيحه لخلافة بعد وفاه النبي عليه السلام ، وقال وهو يحود بنفسه إنه لو كان حياً لعهد إليه ولم يلحاً إلى مجلس الشورى الذي وكل إليه أمر انتخاب الخليفة بعده .

وتحدث عمرو بن العاص مرة إلى الماروق في رئاسة الجيوش الموجهة إلى الشام ، فأحابه في مقال صريح « . أنه ليس على أبي عبيدة أمير ، ولأنه عبيدة عندما أفضل منزلة منك وأقدم سابقة ، والنبي عليه السلام قال فيه ' أبو عبيدة أمين هذه الأمة »

وكما عرف رأى الماروق في أبي عبيدة عرف كذلك رأيه في سابقة الإسلام والغزو على الإحمال ، فإنه حالف الصديق في التسوية بين أنصباء المسلمين كافة يوم أحد الصديق في توزيع الأرزاق والأفقال ، وجعل للرحل نصيباً يختلف باختلاف سابقته في الإسلام والجهاد ؛ لأنه « لا يجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ، ولا يسوي بين من هاجر الهجرتين وصلى إلى القيلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف » .

وإقامة أبي عبيدة على ولاية الشام وقيادة جيوشها حادث لا غرارة فيه من
العاروق ولا ينتظر منه غيره ، وبخاصة حين تكون إمارة حالد بن الوليد بغير
تأشير من الخليفة الأول ، إنما هي اتفاق على تقسيم القيادة بين الأمراء يوم
بعد يوم .



وبهذه المناسبة تكون ولاية أبي عبيدة سنة عمرية معروفة ولا يلغ منها أن تكون
«قصية» بين العاروق وحالد على الصورة التي هون بها بعض المؤرخين واتخذوا منها
محوراً للجدال والتفتيق عن الأسباب والأقوال .

وإذا نحن تجاوزنا النظر إلى الموضوع من حاسب هذه السنة العمرية ، فولاية
أبي عبيدة كانت في اعتقادنا أصح الولايات للشام في تلك المرحلة التي انتهت
إليها الحرب بين المسلمين والروم .

فما نظر أحداً تموته حاجة الشام في مثل تلك المرحلة التي انتهت فيها بطشة
الحرب الكبرى ، وبدأت فيها مفاوضات السلم والحكم والمصالحة ، وهذه مهمة وال
يُحسن الحرب ويحسن التوجيه إليها في مناسباتها ، وليست مهمة قائد عسكري
يجري الأمر على مسة السطوة العسكرية ، ويكون عمله الأكبر تحطيم قوى الأعداء
في صربة طاحنة ، ثم يلاحقهم متى شاء بالمطاردة والتصييق والإحراج ، كما كان
دأب حالد في بطشاته التي لا تبقى بعدها بقية لغير الإجهاد .

وإذ تكون هذه هي المهمة المطلوبة بعد معركة اليرموك ، فلا خلاف في أي
الرحلين أوسى بالولاية عند ذلك ؛ أبو عبيدة بن الجراح أو حالد بن الوليد ، سواء
أكان الخليفة على رأي العاروق أم كان عبي غير هذا الرأي في أمين الأمة وفي
سوانق الإسلام والجهاد .



ونحن إلى العاروق بعد ذلك أن حالداً وعيصب أعاراً على بلاد الروم ورجعاً منها
بعثائم وأسلاب ، وأن الأشعث بن قيس قصد حالداً ومدحه فأحارزه عشرة آلاف
درهم ، وأحار آخرين من «دوى البأس ودوى الشرف ودوى اللسان»

معظم هذا السدل على العاروق وكسب إلى أبي عبيدة أن يقيم حالداً ويعقله

عمامته ويسرع عنه فلسوته حتى يعلمهم من أين أبحر الأشعث ، هل من مال الله أم من ماله أم من إصابة أصابها؟ فإن رعم أنه من إصابة أصابها فقد أقر بخيانة ، وإن رعم أنها من ماله فقد أسرف «وأمر أبا عبيدة أن يعرله على كل حال وأن يصم إليه عمله . وكان يومئذ يولى أمور قسريين وأن يقاسمه ماله بصفين

فصدع أبو عبيدة بالأمر ، وجمع الناس وحلّس على المنبر ، ودعى بحالد فسأله يا حالد . أمس مالك أحرزت عشرة آلاف أم من إصابة؟ فلم يُجب وأبو عبيدة يعيد السؤال مرة بعد مرة ، فوثب إليه بلال مؤذن النسي عليه السلام وقال له : إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ، ثم تناول عمامته وبصمها وعقنه بها وحالد لا يجمعه ، وسأله ما تقول؟ أمس مالك أم من إصابة؟ فقال لا ، بل من مالى ، فأطلقه وعممه بيده وهو يقول : نسمع ونطيع لولاتنا ونفهم ونحذم موالينا» .

ثم قوسم ماله حتى بقيت بعلاه ، فقال أبو عبيدة : إن هذا لا يصلح إلا بهذا . فقال حالد أجل ، ما أنا بالذى أعصى أمير المؤمنين ، فاصنع ما بدا لك

ولما علم خالد بعرله ، ذهب إلى قسريين فخطب أهل عمه وودعهم ثم ذهب إلى حمص فخطب أهلها وودعهم وقال فى بعض خطبه . «إن أمير المؤمنين استعملنى على الشام حتى إذا كانت ثنية وعسلا عرلى وأثر بها غيرى» فنهض له رجل من السامعين فقال . صبراً أيها الأمير ، فإنها الفتنة فما تردد حالد أن قال . أما وابن الخطاب حتى فلا» .

ثم قصد إلى المدينة فلقى الفاروق فقال له «لقد شكوتك إلى المسلمين وبالله إنك فى أمرى غير مجمل يا عمر» فسأله الفاروق من أين هذا الشراء؟ قال من الأنفال والسهمان ما راد على الستين ألفاً فبك» فرادت عشرون ألفاً فصمها إلى بيت المال ، ثم قال له يا حالد ، والله إنك على لكريم ، وإنك إلى لحبيب ، ولن تعاتبى بعد على شىء» وأرسل إلى الأمصار بأمر الولاة أن يعلنوا فيها باسمه . «إني لم أعرل خالد، عن سحطة ولا عن حيانة ، ولكن الناس فتنوا به فحشيت أن ياكلوا إليه ويبتلوا ، وألا يكونوا بعرض فتنة»

تلك قصة خالد والماروق .

وهي قصة تؤلم وتؤسف ، إلا أن الألم ولاسف فيها من فعل الضرورة انتهى لا محيد عنها ، وليس من فعل خالد ولا فعل الماروق . .

ومن الحق لمرحليين العظميين أن يفهم هذه القصة على حقيقتها المرأة من الخطأ والجهالة ؛ لأن فهمها على حقيقتها موصول بتقدير الحالة كلها وموصول بتقدير الخليفة العادل وتقدير القائد الكبير .

وأبعد شيء عن هذه الحقيقة أن يكون عرل خالد لصغية هي نفس عمر أولئك المنافسة التي تستحكم بين الأشباه والطرء ، أو لغير سب من تلك الأسباب التي كان عمر يحاسب بها جميع القادة والولاة . .

وأستخف من هذه الظنون أن يسبق إلى الوهم - كما سبق إلى وهم بعض المؤرخين - أن عمر قد عرل خالدًا لعضاء قديمة مرجعها إلى الصراع بينهما في أيام الصبا ، وأن خالدًا صريع عمر وكسر ساقه فلم يزل بقية حياته واحدًا عليه . .

وأجهل الناس بخلائق عمر من يجنح به الوهم إلى ظن من هذه الطون فليس بين رجال التاريخ جميعًا من هو أصعب تحطئة من عمر بن الخطاب ؛ لأنه ليس بينهم جميعًا من هو أشد حسابًا لنفسه ومراجعة لبياته منه ، وأعجب الظن عندنا أنه لو أحس هي نفسه بية دحل أو ثار قديم لكن أثر هذا لإحساس أن يؤجل عزل خالد ولا يعجل به مخافة من خدعة نفسه وتقدير هواه

فالحق أن حساب عمر لخالد لم يحالف فيه حسابه لجميع ولاته . . فكذلك صنع بعمر بن العاص وسعد بن أبي وقاص ، وكذلك صنع بكل وال أحصى ماله فظهرت فيه الزيادة ، وقد عرل زياد بن أبيه ثم قال إنه عرله «لأنه كره أن يحسن على الناس فضل عقله» وكان يحسب أنه قادر على أن يسوق العرب بعصاه لو أنه من قريش ، ولقد تبين بعد أنه من قريش .



وكانت سياسة عمر مع الولاة حمسًا أن يراجعوه في الأموال ، ولذلك أشد على أبي بكر هواه الحساب من كل وان لا خالدًا أبي وأعظم له في الخوب حيث قال : «إما أن تدعني وعمي ولا فشأتك وعملك» .

فلما بويع عمر كتب إلى خالد أن يراجعه في حساب المال وألا يعطى شاة ولا

معيّرًا لا ثمره ، فأحاله إلى ما جرى به العمل قبله ، فلم يطقها عمر وقال ما صدق الله إن كتب أشرب عني أبي بكر بأمر فم أنفده»

هذا إلى خلاف بين من عمر في سياسة الناس وتصريف الشئون ومن حاله التي طبع عليها فعمرو كان يحب الأمانة قبل القتل والقتل ومن ثم كان إنكاره لمقتل بنى حذيفة ومقتل مالك بن نويرة ، وعموه عن أسرى السواد خلأفا لما صنع بهم خالد في معركة «أليس» أو «بهر الدم» كما سميت بعد ذلك وقد حرم عمر «أليس بن سليط» أن يقود جيشا هو كفاء لقيادته قائلا له : «ولا أبك رجل عجن في الحرب بوليتك هذا الجيش ، والحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكث» .

وإذ كان عمر قد أوحس من عفن ريباد بن أبيه وهو محمول السب ، فالتفت باسم خالد أعظم وأخطر ، إنه لعظم النزعة إلى الاستقلال ، وإنه لمن من محروم وهم أقوى قتال قريش متمردين ، وله صهر في سائر القبائل والبطون ولأبائه أحوال هي نبي تميم وبنو حنيفة ، ولشهرته مخر في نفوس الناس بفعل الأعاجيب ، ولزهو مكان من طباع خالد بحسب حسابه ولا نسيه الخيفة المسئول عن عواقب الأمور هي دولة الإسلام فحين أن يقهر خالد دولة الأكاسرة ودولة القياصرة رجع إلى المدينة يوما فإذا هو يغمر في عمامة السهام ويدخل المسجد بدرع القتال فبعد عليه على الأكاسرة والقياصرة وشيوخ ذكره في الأمصار ، ماذا يجري لو وهن الحكم يوما بعد «ابن الخطاب»؟

أم و «ابن الخطاب» حتى فلا كما قال خالد ولكن ابن الخطاب لا يدوم ، والعواقب لا تكشف ، وعزل خالد نقص بعوضه قادة آخرون من حقهم أن يعملوا كما عمل ، ومن أثرهم أن ينوب الناس إلى العقيدة وحده فلا يحسبوا أن النصر رهبن برجل واحد لا يربهن بغيره

أما الاحتمال الآخر إن حدث فداخيره عظيم والمؤامرة نيه وبين كل عاقبة بعقبها عزل خالد لا محال فيها لتردد طويل .

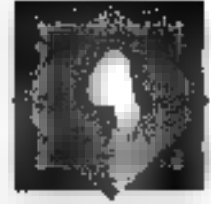
وهذا كله فصلا عن مرد العزل إلى القسطنطين الذي يرد إليه حساب جميع القواد والولاة ، ولم يفت ذلك حالدا بعد هدوء العصب والمثوبة إلى الرأي ، فقل في

مرصص وفاته لأبي الدرداء «قد كنت وجدت عبيه في نفسي في أمورنا ندر بها في مرصص هذا وحصرني من الله حاصر عرفت أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل ، كنت وجدت عبيه في نفسي حين بعث إلي من يقاسموني مالي حتى أحد فرد نعل وأحدث فرد نعل ، فرأيت فعل ذلك بعبري من أهل السابقة ومن شهد بدرًا ، وكان يعلط علي وكانت علطته علي غيري نحوًا من علطته علي ، وكنت أدل عليه بقرابة رأيت لا يالي قريبًا ولا يوم لائم في غير الله فذلك الذي أذهب ما كنت أحد عبيه ، وكان يكثّر علي عنده وما كان ذلك إلا علي النظر - كنت في حرب ومكابدة وكنت شاهدًا وكان عائبًا فكنت أعطى عني ديث ، فحالفه ذلك من أمري» .

ولقد نوهي رحمه الله وهو يجعل وصيته وتركته ويصاد عهده إلى عمر بن الخطاب ..

وبحن اليوم بنظر إلى القصة بعين التاريخ فرى كما أسلمنا أن الفاروق إنما حتم دورًا حتمه القدر واقصت به الأحداث فلم يكن بعد القمة التي ارتفع إليها خالد في ضربته لدوة الرومان مرتقى لراق ولعل محده الباذح قد كنت تعوره قمة من نوع غير تلك القمم التي تسنم فيها صعود من عليته على ظليحة ومسيمة إلى عيبته على القياصرة والأكامرة تلك هي قمة التجميل والإحلال إلى الواجب الأليم يوم عزله . فهي والله لما يحسب له إلى جانب قممه البواحد ، قمم العظيم الطاهر الحسور . وأين - لولا عزله - كد تبصر بيها قمة العظيم الصابر المطيع؟

عبريته الحربية



كسبت المعارك الحاسمة لأسباب لا تخصي ، وكسبت معارك شتى لسبب
وبقيصه ، وربما تعرض القاد العسكريون للمعركة الواحدة فودا بهم يردون النصر فيها
إلى أسباب تتنافس وتتساعد كأهم يتكلمون عن النصر والهزيمة

كسب بعض المعارك : لأن الأقواس كانت أكثر من السيوف ، وكسب بعض :
لأن السيوف كانت أكثر من الأقواس

وكسبت معارك حاسمة : لأن رماح المنتصرين كانت أطول من رماح المهزومين
نشرين أو بصعة أشبار ، وكسبت معارك عبرها : لأن الرماح كانت تتلاحق في
طولها على حسب الصفوف .

وفي بعض المعارك كان الفرسان في الوسط ، فليل إن هذا كان من دواعي النصر
العاجل ، وفي معارك أخرى قيل إن دواعي النصر إنما ترجع إلى قيام الفرسان على
أحاسين .

وكثيراً ما يقال إن اشتراك الفرسان والمشاة في العمل كليل بالعلنة في بعض
لمياديين ثم يدور الكلام على ميدان آخر فيقال إن تربص الفرسان بعمل عن القتال
إلى ساعة الفصل هو الكليل بالعدة المؤررة حتى نهاية القتال ، وربما قيل إن ظهور
الفرسان في ميدان يصيق عن حركات المناورة حتى على الفرسان وعلى المشاة هدف
المثل في صفوف هؤلاء وهؤلاء .

ولقد يحاول بعض الخراء أن يجمعوا أسباب النصر إلى قاعدة موحدة فيقولون
كلاماً بحس لا اطلاع عليه ، ولكنه كلام يقرأه القائدان معاً فيبوء أحدهما بالنصر
ويبوء الآخر بالهزيمة .

مثل هذه القواعد الموحدة كمثل الصاعده التي توحز لك البلاغة الشعرية هي
كنماث ثلاث وهي الورد ، واللفظ ، والمعنى ولا حظاً في هذا لإيجار ، ولكنه
مع هذا لا يعلم الشاعر الصواب

وفصاري ما يقال بعد تقرير الأسباب وتدوين القواعد أنها لا تمنع العروق بين

معركة ومعركة وميدان وميدان ، وأن القائد الموفق هو الذى يلمح هذه المروف ويعمد إلى العمل اللازم فى الوقت اللازم بالعدو اللازم ، فلا يفتن أو يريد ، ولا ينقذ أو يتأخر ، ولا يوحد العمل مع وحدة الفروق .

وإذا كان كل شىء فى المعركة يتوقف أحياناً على كذا أو كذا من الخطوات فى السبق إلى حومة القتال ، وكذا أو كذا من الأشرار فى طول الرماح ، وكذا أو كذا من التفاوت فى سرعة القديفة ها أو هاك ، أو كذا وكذا من الحركات إلى اليمين أو إلى الشمال وإلى الأمام أو إلى الوراء ، فتفصيل أسباب النصر فى المعارك القديمة على التخصيص ضرب من المسحيل ؛ لأن إثبات المواقف بين المعسكرين فى الأسلحة والمواعيد والعدد والحركة غير ميسور ، وأقصى ما نطمح فيه أن نقتع بالإجمال دون التفصيل

وإجمال القوت فى توفيق خالد بن الوليد أنه لم تعوزه قط صفة من صفات القائد الكبير المفطور على الصال ، وهى الشجاعة والشباط والخلد واليقظة وحضور البديهة وسرعة الملاحظة وقوة التأثير

كان يصعب الخطة هى موضعها ساعة الحاجة إليها فكان يحارب بالصفوف كما كان يحارب بالكراديس ، وكان يحارب بالكمين والكميس كما يحارب أحياناً بغير كمين ، وكان يستخدم السرية والمعاينة والسرعة على أعماط تخلف باختلاف الدواعى والأحوال .

وهذا علم أن تمزيق الجيوش إحدى فى الحرب من إحصار والاحتلال وعلم أن الخبر قوة وسلاح ، فكان يستطلع أخبار العدو ولا يتيح له أن يستطلع خبراً من أخباره يعيده أو يحمله من بأسه .

وأحدى من هذا جميعه أنه كان لا يعمل عن القوة الأدبية يعرزه ما استطاع فى جيشه ويضعفها ما استطاع فى جيش عدوه .

فكان هو نفسه مادة لهذه القوة الأدبية نجيش بها نفوس أنصاره فيشقون بالفور ويأمنون خطر الهريمة ، وتشيع فى نفوس أعدائه فيسرى إليهم الدعر وتعاظمهم الثقة والطمأنينة

والى هذا ، كان يعتمد على قوة الإيمان وهمه الأمل ، فيتعهد جيشه بالعطاة قبل القتال وفى أثناء القتال ، ولا يموته وهو مشغول بالصبر والطعن والتوجيه والمراحم أن يطوف بين الصفوف للتدمير والتشجيع فيعمل ويقول القول الذى هو صبر من العمل ، فإذا قال : «إن الصبر عر وإن الفشل عجر وإن الصبر مع النصر» فيست هى أصداً تمر بالهواء ، ويكنها فى العر والصبر مثلاً لدعيان يريان بالقذوة منه إلى كل مسمع وجنان . .

والى هذا ودانك ، كان يثير المأساة الكريمة فى صدور حده وأعوانه ، فيدعوهم إلى التمايز والتناظر ليست فيهم مع عريضة الإيمان عريضة أخرى من حب الفجار وحواف المساة والعار .

ويتخذ من الغيرة على العروص مدداً لهذه العرائم التى تواحه الموت على حد قوله كما تواحه الحياة ، فإذا بالرحل المرء يلى فى قتله ما ليس يبله عشرت .

* * *

ولم يخف عليه قط مقل العدو من قوته الأدبية حينما عمد إلى هذا المقتل فى مازلات لامستبدى والطعنة فربهم فى جيوش الأمم التى طال عهدا بالظلم يرتفعون إلى مقام الأرباب من حيث يحذر رعاياهم إلى مقام القصيع السائم فإذا أصيب القائد فى الجولة الأولى ، فكثرت الحدد بعد ذلك معوان على الهزيمة ويست بالوقاية منها ، لأنها كثرت من الخوف والدعوى وليست كثرة من الثقة والثبات

ولقد كان هو يخلق فنون الحرب التى يجمعها «الخبراء» فى عصرنا هذه بمراجعة الحروب وتحصيل الدروس واستخراج القواعد من الخطط والمعلومات

قرأنا فى كتاب «فن الحرب اليوم»^(١) مؤلفيه من قواد البحر والر والهواء «عند بحث هذه المسألة ينعى أن يحصر فى أدهاسا أنه مع استثناء قليل لم يكن ثمة إلا نوعان من السلاح سيطرا على حومة القتال ، وهما السلاح المقذوف والسلاح الصار أو القارح ، أى النبل أو السهم أو الرصاص من جانب ، والهرابة والسيف والمزح من الجانب الآخر . ومحمل ما يقان بعد هذا أن الصف هو أسب الأوصاع لتطور قوة السلاح المقذوف وأن الكردوس أسب لأوصاع لتطور قوة السلاح

(١) Warfare Today تأليف لاميال ماكون والجيرال دلو ومرشال الطيران باتريث بلايبر

الصبار ، لأن الرماة بالقذائف يحتاحون إلى مدى مكشوف وإن يأتى الصرب
فى العمى كرات متلاحقة من المقاتلين جماعات جماعات»

إن خالد بن الوليد لم يقرأ ولم يمته شىء بهواته عنه ؛ لأنه قد علم كنهه ولباه
من بديته الحربية ، فقاتل بالصمصوف حيث تعس الصفوف والكراديس حيث لا
تعنى ، لا الكراديس

وفى هذا الكتاب أيضاً يقول المؤلفون «تصح مما تقدم أنه فى حملات السلاح
الصبار هناك أمران ضروريان ، وهما الاستطلاع ، وكتمان الحركات ، والعرض من
الاستطلاع ورن قوة العدو ومن كتمان حركات أن تحول بينه وبين ورن قوتك وتوقع
الهجمة من أى موضع تكون» . .

ثم يتكلمون عن الاستطلاع كما يجرى فى عصرنا الحديث فيقولون «وعلى
هذا يجرى الاستطلاع من الهواء قبل الحركات الأولى وفى حلاله ، وتنقدم
الكراديس هى أثناء ذلك على نظام المعركة ، أى على النظام الذى تتألف به حين
تدعى إلى الهجوم»

وهذه هى ربيئة خالد للاستطلاع ، ومسرره «على التعبئة الكاملة» التى يهجم
بها ساعة اللقاء بالنظام الذى كان يسير عليه ، ثم يدخل فى النحام قريب ولا يطيل
فى موقف التقادف بالسال والسهم

وتقرأ فى كتاب «الأسحة وهون النعثة»^(١) لمؤلفه ونرغهام الذى كان محرراً
لمجلة الجيش والبحرية بالولايات المتحدة «إن سرعة الحركات وقوة الإصاة وتدبير
الوقاية هى الآن - كما كانت فى كل زمان - بعض معاتيج النصر التى لا شك فيها ،
فإذا كسست المعارك أحياناً بالمعاجة أو التركيب فى الموضع الحاسم وفى الوقت اللازم
أو الماورة المارعة ، فهذه المريا إما تستمد مباشرة من التفوق فى سرعة الحركة أو فى
قوة الإصاة أو فى تدبير الوقاية

وخالد بن الوليد لم يقسم من النعثة هذا التقسيم حين علم أنه يصمم سرعة حركة
بانتحام الصحراء الخفيفة ، ويصمم المعاجة بهذا الانتحام ، ولا يزال واثقاً بالوقاية حينما
حارب وظهره إلى الصحراء أو حينما تقدم وراء جيش مهروم لا يتماسك له قوام

* * *

ووصح الخبير حرسى المشهور ليدل هارت^(١) كتاباً مستعلاً عن فن سوق الخيوش عى طريق التورية لخصه فى قوله «إن التحرك فى الوحة المتوقعة يحفظ توارن العدو ويريد ستميت هذا التوارن قدرته على المقاومة ، وفى الحرب - كما فى الصارعة - إثم يتأسى لك أن تغلب الخصم دون أن ترحح قدمه وتخل توارنه باستعداد قوتك أب استهاداً لا ياسب لجهد الذى يبقاه خصمك ، ولن يتاح النصر بهذه الوسيلة إلا بفصل الرحمان الكبير فى قوتك على نحو من الأنحاء ، وقد يصعب الجسم فى النتيجة مع ذلك . وعلى بقيص هذا ، يبيننا الساربع العسكرية فى جميع العصور لا فى عصر واحد ، وفى جميع الحروب الخامسة على الصرب ، أن الإحلال توارن العدو نفسياً ومادياً هو المقدمة التى لا محيص عنها لنصباء عليه» . .

وهذا الإحلال بالتوازن هو العناية التى كان يتوحاها ابن الوليد ، إما بالهجوم من جهتين أو ثلاث جهات ، وإما بالمفاجأة التى لا تتوقع بحال من الأحوال ، وإما بالكمين الذى يدخل اليأس على العدو فى ساعة بالتطويق من حيث لا يخطر الطويق

وكن أولئك مفهوم جد المهم أن يرزلز الأقدم ويحل التوارن ، وكل م يرزلز أقدم الإنسان فى الحرب أو السلم فهو كذلك مفهوم جد المهم من أقدم الرمان ، ولكن القدرة حق القدرة هى معرفة الوقت ، ومعرفة الوسيلة ، ومعرفة التمهيد متى عرف الوقت وعرفت الوسيلة ، وبهذا دون غيره تتحلى «معرفة» القواد الملهمين

وقال حبير حربى آخر هو آرثر برنى^(٢) فى كتابه «فن الحرب» معقياً على حرب الفرس واليونان : «كانت قوة الفرس ، جيوداً ، قائمة على احيالة والرماة ، وكانت طريقتهم فى القتال أن يظروا العدو سهماً ، ثم يجزوهو بجملته من الفرس فى الوقت اللازم ، وأملحت هذه الطريقة مع أصحاب الأنواس من الميديين ، وأصحاب الرماح الراكبة من الليديين ، وأصحاب المشاة الثقلة من البابليين والمصريين لكنها حانت مع ليونان ، وكانت التبعة فى حيثها على صعب فرق المشاة المارسية ، فإذا م استطاع الحند الإغريق أن يقتربوا - وكل شىء يتوقف على هذا - تناولوا المشاة الفرس على عمل يوفهم القصيرة ودروعهم الصغيرة »

The Strategy of Indirect approach by Liddell Hart

(١)

The Art of war : by Arthur Brnie

(٢)

ولو عمم هذا الخبر القول لوجب أن يقول إن الذى حيب طريقة الفرس مع اليونان هو الذى حيبها مع العرب من أيام دى قار إلى أيام خالد بن الوليد ، فالحجوم من قريب بالسيوف القصيرة والدروع الصلبة هو الجسه^(١) التى احتضى بها العرب من الرماة ومن الفرسان ، بل ومن الفيلة فى بعض الأحيان ، وقد قيل فى الأمثال الشعبية التى هى أصدق من قواعد الخبراء «الذى تعلب به العرب به» وقد كان خالد يعلم أن الالتحام هو أنفع ضروب القتال للحدى الذى يسامح عن عقيدة ويصرب بالسلاح الخفيف ، فلم يبق الفرس ولا الروم إلا فى التهام

وقد صرح به رأى وسرجهام مؤلف كتاب «الأسدحة وفرن المعنة» الذى سبق الإشارة إليه حين قال «إن بعض الجماعات الإسيانية بطيئة النغير ، ومن هذه الجماعات الممالك الآسيوية التى يحكمها ملك أو عاهل مرفوع السبب إلى السماء ، فإنها تتظم على سبب حواها أن التغيير لا يسعى وأن العادات الماثورة كلها حسنة قوية ، إن كل ما يعمل الآن خلق أن يعمل كما قد عمل مد أزمان ، وربما لاندب بعض الأم التى هى أقرب إلى التقدم بفترة من فترات الراحة بسقى فيها السقالب والمأثورات على سبب المحافظة على القديم ، فإذا بررت جماعات من هذا القبيل للقتال بررت وفى رعوس قوادها وحودها فكرة عيقة عن الحرب وحقيمتها ، ولم يعيروا حططهم وآراءهم لالاسفاح بسلاح حديد أو معرفة جديدة ، ورسحت عندهم أصول رجعية للحرب أو لم تكن لهم فيها أصول على الإطلاق ، ولكمهم يصون بحكم العادة وفاقاً للترتيب الذى وضع مد عهد بعيد وإن هذه الجماعات لتخرج جيوش ليس أسهل من تحطيمها بحيوش الأمم التى يسهن عليها نجاد الأساليب الجديدة ومواجهة النغير والطوارئ ..

ولو شاء صاحب هذا رأى لشمل الدولة الرومانية فيما حكم به على الدول الآسيوية ؛ لأنها كانت تقتل نخطط وصعها الأقدمون لها مد قرون ، وهى على هذا عاجزة عن تنفيذ القديم صحرها عن ابتكار أخديد .

وحملة القول أن حالداً كان يحارب بالقريحة الملهمة أساساً رثت عقائدهم كما رثت ملكاتهم العسكرية ، فكانوا يرتبون كتائبهم وأسديحتهم فى الميدان على نحو مرسوم كأبهم قائمون فى مراتهم بديوان التشريقات ، وكان خالد يلبى الضرورة عفو

(١) الجسه أى الدرع أو الوقاية .

الساعة في ترتيب كن كتيبة وكل سلاح ، فإذا بدا له أن الحيلة لا تجدى هي الحركة حتى يمشاء ترتب حركات الجيش معه كما ترتب حركات هي أعصاب الجسم الشاعرة بتلبية الأعصاب والجوارح لمركز التسيه في الدماغ ، فيتروح وقد ترحل معه كل من تنفعه الحركة على قدميه في كره وجره وهجومه ودفاعه

وإذا بدا له أن الحرب بالجماعات أضع من الحرب بالصهوف المختلطة ، فما هي إلا كلمة فالف حتى تتلاقى تلك الجماعات كن مها إلى قائده المخبر «تمايروا أيها الناس» فإذا هم بعد لحظات منمايرون ..

وكانت مادة القتال التي يعمل بها من جند أو سلاح تغيه وتلبيه ، فكان حنقه يصبرون على الشدة ولا يروغهم فقد مفقود ، لأنهم مؤمنون عالمون أن الموحود هو رب الفائد والمفود ، وكانوا يصبرون على الهزيمة ؛ لأنهم عرب معدودون في غرواتهم أن يكرروا بعد مر ، وأن يحتمعوا بعد تفرق ، فهم يحسبون الكوص ضرباً من التحضر للوثوب ، أما حصومه فكانوا ينساقطون ناعاً كم تنساقط حجارة اللعب المخصوصة إذا سقط منها الحجر الأول . . فلا تماسك بعد ابتداء السقوط .

ومن ثم كان خطأ فريداً بين قواد التاريخ ؛ لأنه يمزج الفن بالبدية ، كما يمزج فن السداوة بفن الحصار . . وكان يقتبس ويحدد بالرأى والقطعة كما يقتبس ويحدد بعريرة موروثه من قبيلة «القة والأعة» يصح أن تسمى عريرة الميدان وقد تصعب المقارنة بينه وبين قواد العصور الحديثة لاختلاف الأسحة والمسافات ، وإن كنا نعتقد أن القائد العقري نسعه عقرته على اختلاف العصر والسلاح

ولكن «مقارنة بينه وبين قواد الطراز لأول من الرمن القديم تقدمه إلى المرتبة الأولى بن أكبر القواد ، ومنهم الإسكندر وبلارايوس البدان حرباً عدواً كعدوه في ميدان كميدانه . فالإسكندر في وقعة «أرهس» هرم جيشاً فارسياً تقدر عدته بمائة ألف من الفرسان والمشاة ، وبلارايوس في وقائع أرمينية هرم جيشاً فارسياً تقدر عدته بأربعين ألفاً أو قرابة الأربعين . والمقارنة بين خالد بن الوليد وهديس القائد ترحح كفته على كفتيهما معاً في هذا الميدان ؛ لأن الإسكندر كان يقود خمسة وأربعين ألفاً وبلارايوس كان يقود بيعة وعشرين ألفاً ، وكلا الجيشين مسلح بأفضى الأسحة في ذلك الزمان . .

وقد كان خالد يحارب بشمالية عشر ألفاً حيوشاً أعظم من «جيش» التي تصدى

لها القائدان الكبيران ، ولم يكن له مثل سلاح بقسويين أو سلاح الرومانيين ، ولم يكن نصرهما كصبره ولا العاقبة بعدهما كالعاقبة بعده ، وراد على ذلك أن انتصر مثل هذا النصر على كل عدو من العرب أو العجم ، ومنهم الرومان في أكبر الميادين ، ميدان اليرموك

فكان خالد في التاريخ العسكري هو مكان الطليعة بين أكبر القواد الذين اشتهروا بالنصر ، أو اشتهروا بالعنفية ، أو اشتهروا بلقاء الشخصية . وفيه من ملامح القيادة في العظم والصعائر ما يدل على طبيعة القيادة المهمة ، وأنه كان كما يقال قائداً من فرع رأسه إلى قدميه .

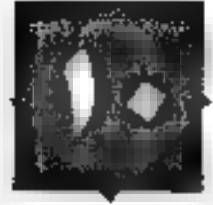
فقد حالد قنسوته يوم اليرموك ، فقال : اطلبوها ، فبحثوا ونظروا فلم يجدوها ، فما زال يأمرهم أن يطلبوها ويلحقوا في طلبها حتى وجدوها ، فإذا هي حلقة لا تساوي شيئاً فسئل عن ذلك فقال «اعتمر النبي ﷺ فخلق رأسه فانتدرا الناس شعره فسفتهم إلى ناصيته فجعلتها في هذه القلنسوة ، هم أشهد قتالاً وهي معي ، لا تبين لي النصر» .

رحمه الله! لم تفته من سمات القيادة حتى التعويذة المشهورة بين رجال الحروب «ما زال معلوماً عن كبار الحيد أنهم يأمنون إلى تعويذة يعثرون بها ويستبشرون بصحبته وهم يحوطون غمرات الموت وما في ذلك من عجب ، فليس أحوح إلى صلة بعالم الغيب من رجل يلقي الموت صباح مساء .

وقال خالد في أحرىات عمره «ما ليلة يهدي إلى فيها عروس أنا لها محب ، أو أبشر فيها بعلام أحب إلى من ليلة شديدة الحيد في سرية من المهاجرين ، أصبح بهم العلو ، فعليكم بالجهاد»

هد حبيب الحرب الذي يهواها وتهواها ، فله منها الصموة التي لا تصطفي بها أحداً من الطلاب والقرناء على بخصاء .

مفتاح شخصيته



تقدمت الإشارة إلى قصة الشبه القريب بين خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب في ملامح الوجه وصول القامة ، وأيهما كانا من التقارب بحيث يشبه الأمر على قصير النظر وهو يتكلم إليهما ، فيحاطب عمر بن الخطاب وهو يظن أنه يحاطب خالد بن الوليد .

ويلوح لمن يقرأ سيرة الرحلين أن الشبه بينهما يتعدى الملامح والقامة إلى معالم الشخصية وطبائع القوة النفسية ، فكلاهما يحور أن يقال فيه إنه «جدي» بالمطوعة وإن «مفتاح شخصيته» هو السيقفة الحديدية ، فإذا أحصرنا في أحلادنا كلمة «الجدي» أو الجدي المطبوع لم نجد في ابن الخطاب ولا في «بن الوليد صفة لا تحتويها هذه الكلمة في معنى من معانيها .

وبين الرحلين فارق لا يخفاء به في الخلق والتفكير

لكنه فارق لا يحرج بهما من نطاق هذه الطبيعة ، فكلاهما جدي مطبوع على الخلائق الحديدية ، ولكن ابن الخطاب يعذب عليه ، من مزاج الجدي ، ناحية الروحانية أو ناحية الصمير ، وابن الوليد يعذب عليه ، من هذا المزاج نفسه ، ناحية الحيوية أو ناحية التنبين والتركيب . .

وأصح من هذا أن نقول إن عمر كان حديدا في أخلاقه الوارعة الحكيمة ، وإن خالدًا كان حديداً في أخلاقه الدافعة للهامة وفي الحمود ، كما لا يحصى ، هذه الأخلاق وهذه لأخلاق .

ولا ريب أن هذا الفارق بين الفاروق وسيف الله إنما هو قبل كل شيء فارق بين عسك ، أو بين رحلين ، أو بين «شخصيتين» .

لكن هذا لا يمنع أن يكون في الوقت نفسه فارق بين «قيمتين» وبين أسرتين وبين شأنتين . . فإن الفوارق بين بني عدى قبيلة عمر وبين بني محزوم قبيلة خالد لخليقة أن تتجه بامراح المتقارب وجهتين متباينتين . .

هنو عدى - آل عمر - كانوا في الحاهلية أهل تحكيم ومعرفة بالمفصل في

الخصومات وقد دفعوا ، كما قلنا في «عبقريه عمر» ، «طعم الظلم من أقرانهم بنى
عند شمس ، وكانوا أشداء في الحرب يسموهم لعقة الدم ، ولكنهم عدوا على
أمرهم لقلة عددهم بالقياس إلى عدد أقرانهم . فاستقر فيهم بعض القوى المظلوم
لنظم وحمه للعدل الذي مارسوه ودرّبوا عليه . .» .

أما سوماحروم - آل حالد فكانوا على خلاف ذلك أهل حرب وسطوه
وأصحاب ثراء ورحاء ، وكانوا في الحاهية مركّبين بالخيل والسلاح ، معترّين بالعتد
التبديد ، والعدة والعديد .

وكان ثراؤهم يملئ لهم في أسباب الثرف والسعي كما تبنى لهم فيه مزية أخرى
من المرايا التي نكلها لقبيلة عرة السلطان وطول العهد بالحضارة والرئاسة . . وتلك
امرية هي حمال النساء .

فقد كان يقال إن «المخرومات» رياحين العرب .

وكان في رجالهم ذلك الغرل الذي أخرج منهم شاعره الأول عمر بن أبي ربيعة ،
بل أخرج منهم غرلين ظرفاء حتى في الناء ولأتقياء .

جاء في كتاب الأغاني عن أبي السائب المخرومي : «أنه كان رجلاً صالحاً راهباً
متقللاً يصوم الدهر ، وكان أرق حلو الله وأشدهم عرلاً ، فوجه به يوم يأتيه ما
يعطر عليه ، فأبطأ العلام إلى العمة ، فلما جاء قال له يا عبدو بمسه ، ما أحرك إلى
هذا الوقت؟ قال حرب بباب بني فلان فسمعت منه غناء فوقفت حتى أجدته .
فقال هات ياسي ، فوالله لئن كب أحسب لأحبوبك ولئن كنت أسأت
لأضربك ، فاندفع يعنى بشعر كثير :

ولما علوا شغباً^(١) تبينت أنه تقطع من أهل الحجاز علائقي
فلا زلن حسرى ظلماً قد حمها إلى بلد ناء قليل الأصاديق

«فلم يزل يغنيه إلى نصف الليل ، فقالت له زوجته قد انتصف الليل وما
أفطربا . قال لها : أنت طالق إن كان فطورنا غيره . فلم يزل يغنيه إلى السحر فلما
كان السحر قالت زوجته هذا السحر وما أفطربا ، فقال : أنت طالق إن كان سحورنا
غيره ، فلما أصبح قال لاسه . خذ حبتى هذه وأعطيني حبقك لتكون الحباء فصل ما

(١) سهل بين طريقتي مصر والقلم

بيهما فقال له يا أبت أنت شيخ وأنا شاب ، وأنا أقوى على البرد منك . قال يا ننى . ما ترك صوتك هذا للبرد على صبيلاً ما حييت .

واضح كل ما فى هذه القصة من المبالغة والإعراق تنق منها بقية كافية لبيان مكان العزل من نساك بنى محروم ، فضلاً عن الشعراء والظرفاء .

وندع القبيلة إلى الأسرة فيتراءى لنا فى النظرة الأولى ذلك الاختلاف الذى لابد منه بين معيشة الخطب ومعيشة الوليد ، أو بين معيشة الرجل الكادح لنفسه احشر فى مدمسه ، وبين معيشة الرجل المترهب الفخور بالماء واليسين و لحاه المكين

لكنه مع هذا فرق فى المعيشة لا يتعلعن إلى بواض الطباع ، إنما الفرق المتعلق إلى بواطن الطباع ، بل إلى أعماق أعماقها ، هو فرق البنية العصبية بين أبناء الخطب وأبناء الوليد .

ومن أوصاف أبناء الوليد عامة ينكشف لنا «قلق عصبى» فى هذه الأسرة قد تطرف حد التطرف فى أفرادها ، واعتدل بعض الاعتدال فى آخرين

فعندة بن الوليد هو الذى بلغ منه الاضطراب أن يراود امرأة فى محصر روحها ، وأن يجترئ على حرم الحاشى بالمعازلة ، ثم يجترئ بالتحدث عن هذه المعازلة حديث المحر والمباهاة ، ثم يطلق مع الأوابد فى الأحام بفعل السواحر كما قيل ، وهو قول لا يحفى ملولته فى لغة العصر الحديث ..

ودكر عن خالد كما ذكر عن أخيه الوليد أنه كان يتصرع فى نومه فذاك أثر من آثار «أعصاب الأسرة» كلها على ما هو واضح من حممة المشاهدات فى أبحاثها ، وإن كان يجمع بهم فى حين ويكبح فى حين ..

وقد كان خالد يعصب فيقع لونه كما جاء فى كتب الفتوح من حديث المعاصبة بينه وبين أنى عبيدة بعد تسليم دمشق ومصالحة أهلها ، وقد كانت علة المعاصبة أن أبا عبيدة بحسب التسليم صلحاً ، وخالدًا يحسه غلًا يحق فيه عنى المغلوب حراء السبى والاعتنام والقصاص .

وكانت فى خالد حمة يملكها أو تملكه أوة بعد أوة ، وهى القليل الذى يلعب إشارة إلى الكثير الذى لم يلعبا فقد غاصب أبا عبيدة وغاصب عبد الرحمن بن عوف وغاصب عمار بن ياسر . وقال له عمار وقد سمع منه ما سمعه 'لقد هممت

ألا أكرمك أبداً فأصلح بينهما النبي عليه السلام وهو يقول لخالد «يا خالد مالك ولعمار .. رحل من أهل الجنة قد شهد سرّاً» ثم يقول لعمار «إن خالدًا يا عمار سيف من سيوف الله على الكفار» .

هذه المواقف بين الأسرتين ، وذلك المواقف بين القسيتين ، معسرون صالحان لاختلاف لومى «الحندية» فى شخصية الرجلين العظيمين . عمر إلى الحندية ابوزوغة وحالد إلى الحندية المدفوعة ، وعمر إلى الشطط المختار وحالد إلى المنع المباح .

ولا يرد إلينا العجب بعد هذا أن يكون شعور خالد بالمرأة هو شعوره داك الذى أهدافه للملاحة ولما حدة مرات ، وجعل من مؤاحديه أرفع الناس فى عهده والثناء عليه ، ويعنى به الخليفة الصديق .

وقد كان هذا الشعور يلازمه ما يلازم أبناء الثراء من حب الرفاهية وبهجة حياة ، فلم يفرغ من الحرب قط ، لا أنقلب منها إلى واد طليل فى صحبة زوج محببة إليه ، فقصى فى وادى الوبر باليمامة أيام الدعة بين روجيه بنت معاعة وبنت المهال ، وقضى فى دومة جندل أيام الهداة بين الوقائع فى صحبة ابنة الجودى الحسناء ، واستطاب المقام بحمص بعد العزل وأثره على المقام بالحجار ، وأعصب الماروق ، لأنه «كان يدخل الحمام فيندلك بعد النورة بشحن معجون بنعمر» فما لاه الماروق فى ذلك قال : إنا قتلها فعدت غولاً غير حمر ، ثم قال يتخاطب عمر .

سهل أنا حصص وإن لدينا شرايع لا يشقى بهن المسهل
وهل يشبهن طعم الغسول ودومه حمى الخمر ، والخمر تسهل

وفى كل أولئك هو سليل حق لسى مخروم وليت الوليد ، وترحمان صدق لتلك البنية العنسية المنفرة التى تمنع به إلى المتعة فى أيام الدعة كما تمنع به إلى النطش فى مقام الخلال والعناد ، وتفسر لنا الحسى الذى غيل به القوة الحيوية تارة إلى لقاء الحسان وتارة إلى لقاء الأقران

وهو نفسه قد أبان عن طويته كلها غير عامد حين قال «ما ليلة يهدى إلى فيها عروس أنا لها محب أو أبشر فيها بعلام أحب إلى من ليلة شديدة الخليلد فى سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو ، فعليكم بالجهاد» . .

فالخرب عنه اشتهاء ، والعروس عنه غاية المتاع . .

واخرى في رايه حساء تستهى أبداً ولا تشيب كصاحبة الريدى التى تكون
هى مبدئها «فتية تسعى بريتها لكل جهول» ثم تصيح .

شمطاء جزت شعرها وتنكرت مكروهة للشتم والتفصيل
وأيا كانت متعته بالمرأة الحسناء أو بالمقدم الوثير ، فهى متعة القوى اليقظان
وليست بمتعة الضعيف المستنيم .

هى متعة المسافر لى يستريح الى الواحة ، ليعص عنه الجهد ويتروى منها جهد
جديد ، وليست متعة المتهافت الذى يتوق الى مهاد الراحة لينعمس ههنا ويستكين
إليها ولا يفىق من سكرتها

بل هو يحب اسعة ؛ لأنه يحب الجهاد ، فإذا طالب عافها وبرم بها واحتواها ،
وأف أن يقع بها ويستمرئها . . . فلم يطق سعة واحدة بخيرة بين حروب فارس
وحروب الروم ، وسمها «سنة ساء» ؛ لأنها كانت راحة من العناء ، مع أنها كانت
راحة انتريص المتوفر ، وكانت راحة يتحللها وثبات وصرات من ههنا وههنا .

وهكذا كان يأخذ من المتعة بأيسر المقادير ، ليأخذ من الشدة والبأس بأوفر المقادير
لأن طبيعته القوية هيأته للشدة والأس قبل كل شيء ، وما بقى من الطبيعة
للرياضة فقد أتمته الرياضة بعزيمة الحبايرة التى لا تلبى باسمراء ما لا مراة فيه من
طعام وشراب ، وبأكل الصب وشرب السم ومطاوله الركوب أياماً بعد أيام .

لا حرم يكون أكبر الأسى لتلك النفس فى ساعة الموت أنها تموت على الفراش
أو على حد قوله كما يموت البعير «لقد طلست القتل فى مظانه ، فلم بقدر لى إلا
أن أموت على فراشى . . ولقيت الرخوف وما فى حسدى شر إلا وهيه صربة
سيف أو رمية سهم أو طعنة برمح ، وهأنذا أموت على فراشى حتف أنفى كما
يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء» . .

وأقرب شيء أن يلاحظ فى سيرة خالد - من شأته إلى وفاته - أن هذا الولع
كله بالخرب لم يكن ولعاً بالشر والسوء ، ولا ولعاً بالصعوبة والبعضاء . فكانت
عداواته كلها عداوات حنى مقاتل ، ولم تكن عداوات مضطعن آثم . . ولم يعرف
قط عنه أن حمل الصعوبة لأحد من الناس ، ولو أنه اضطعن على أحد لكان أحق

الناس أن يصطغر عبه عمر بن الخطاب ، لأنه عرله وشطر ماله ونقاه في العرلة
 سواب ، وبكته لم يعمس عملاً واحداً ولم يقل كلمة واحدة بدل على صغر عبه
 وقد سامحه والتمس به المعدرة وعلم أنه قد أراد وجهه لله بما حاسبه عبه ، وكان
 أشد ما قاله فيه « الحمد لله الذي قصى على أمي بكر بالموت وكان أحب إلي من
 عمر ، والحمد لله الذي ولي عمر وكان أعصى إلي من أمي بكر ثم أرمى حبه » ،
 وربما ذكره وهو عاصب فسماه « الأعرس » أم شملة » فكانت هذه الكلمة أدل على
 المحبة منها على الكراهة ، ولاحت كأنها كلمة المعلوب في لعبة لا في عرص
 عظيم يقعد ويقيم

وهذا يمكن أن تتسع هوة البعد بين الولع بالحرب والولع بالشر والصعوبة ،
 وإنها لأولى أن تتسع بينهما حيث تكون الحرب ميدان التصحية والمدا في سبيل
 العبرة القومية أو في سبيل لإيمان والصميم ، وحيث يكون الرحل قد تربى على
 مراسها وطع في نفسه على مزاح يالف القتال ولا يفر منه وليس في المجتمعات
 الإنسانية التي تصح ، لحرب فيها ضرورة من ضرورات الحياة والشرف باعث إلى
 الصرة من القتال ، ولن ترال القدرة على الحرب شرقاً وشجاعة إلى أحر الرماح ،
 مادام في بنى الإنسان من يحمل السلاح لعدوان والنعى والتلصص والمراء ، فيتقيه
 هو الإنسان عن يحمل السلاح للحق والعقيدة والإنصاف .

وعلى كثرة من قل حاله في حروبه لم يكن يقتل أحداً قط وهو يشك في
 صواب قتله وإن أخطأ وجه الصواب ، فالقتلى الذين طاحت بهم سيوف الجلاذيين
 بأمره في « نهر الدم » كانوا يستحقون عنده القتل فرأنا إلى الله وحرء لهم على عباد
 الشرك والإصرار

أما إذا شك في صوابه فهو يستكثر المساءة إلى رجل واحد فصلاً عن الجحافل
 والقبائل ، ويسبق إلى الرفق رجلاً كأبي عبيدة عرف طول حياته بالرفق والرحمة
 والأناة . فيقول له وقد تناول رجلاً بشيء « إني لم أرد أن أعصيك ، وبكسر
 سمعت رسول الله ﷺ يقول إن أشد الناس عدائاً يوم القيامة أشد الناس عدائاً
 للناس في الدنيا » .

فهو مطبوع على عداة الحدى المقاتل وليس بلطوع على عداة الدمية والشر
 في صفات العيش وسفاسف الأمور .

كذلك لا يفهم من ولعه بالحرب على هذه الصفة أنه كان مبتلى بذلك الولع
الأهوج الذي يتلى به من لا يعقون هجوماً إلا كهجوم الريح أو قرراً إلا كصرار
الحيوان .

فقد كان يقدم عن علم بمواضع الإقدام ؛ ولذلك لم ينهزم قط وهو مستول عن
الهريمة . وبما هرم هي حين مرة واحدة وهو مستول عن اليوم كله كما قدمناه .

أما إذا وحب التراجع . فالشجاعة كس الشجاعة عنده أن يؤمن بهذه الحقيقة وأن
يدبر أمر التراجع بعد ذلك على النحو الذي يصون الكرامة ويصون الدماء ، ويكون
المخلوع المعلوم فيه هو الذي أمكن التراجع من بين يديه ، وقد كان في وضعه أن
يبطش بالمتراجعين جميعاً قبل أن يفلتوا من أوهانه المطفة عليهم .

هذه هي الجندية البصيرة بآياتها في الكفة الرحمة والكفة المرحومة أو هذه هي
الجندية العالبة أبداً وهي في إقدام أو في إحجام

ولقد كادت هذه الطبيعة الجندية أن تحيط بكل ما رزق من طبيعة حية فمن
أقواله إن الجهاد شخصي عن تعلم القرآن ، أو قراءة كثير من القرآن

وعنده هي ذلك حين قال ذلك لمقام أنه لم يفص في ملامة السبي غير أوقات
حد قصار ؛ لأنه شغل السوات الثلاث التي قصاها مع السبي بعد إسلامه وهو بين
السرايا والعروات .

وقد كان يحطب ويكتب ويقول الأبيات من الشعر والرجز على مثال ما قدمناه ،
ولكنها الخطب والكتب التي يستطيعها العربي المصيح الناشئ في كنف
المصحاء ، ثم هي كنها ملحقة بوطيئة الجندية فيه فإذا قال كلمة أو كتب سطراً
فكان يكتب بحسام لا بيراع .

كتب إلى مرارة فارس فقال : « الحمد لله الذي فض ملككم وأدل عرمكم ، فإذا
أتاكم كناسي هذا فاعثوا إلى الرهن وعتقدوا ما الذمة وأحيوا إلى الحزية ، وإلا
والله الذي لا إله إلا هو لأسيرن إليكم نفوس يحون الموت كما تحبون الحياة ، ويرغبون
في الآخرة كما ترغبون في الدنيا » .

وحطب في المسلمين وقد تهيبوا طروق المصارة من العراق إلى الشام فقال
« لا يختلفن هديكم ، ولا يصعص يقيسكم ، واعلموا أن المعربة تأتي على قدر السية ،

ولأحر على قبر حسنة ، وأن المسلم لا يسعى له أن يكثرث لشيء فيه مع معونة الله له .

ويسمع الكلمة فرده بالحروب المسكت كأنه يتقى صربة سيف بصرية سيف ، كما قال حين سمع صائحاً في المعسكر يصيح : « ما أكثر الروم وأقل المسلمين فلم يكن أسرع منه إلى أن يقول : « من ما أقل الروم وأكثر المسلمين . إن الحيوش إنما تكثر بالنصر وتقل بالخذلان » .

فكن كلمة منه فيما هي صربة سيف هي صورة حروف وسراب . ومن الملاحظات الخيرة مستفراء علم النفس أنه على التشابه بينه وبين عمر كان في عمر حجاب فكاهة وإن كانت حشنة عذبة ، ولم يكن فيه هو مثل هذا الجانب في عمله أو كلامه .

وقد كان لأدنى إلى الطر - عند النظرة الأولى أن تبدو الفكاهة مع الرجل الذي مشأ في مهد اليسار ولا تنمو مع الرجل الذي مشأ على العسر أو اليسر القليل

لكنها النظرة الأولى ولا تتعداها . .

لأن الإعسار في الواقع أعز على الفكاهة من اليسار . ومن هنا كان ولع الناس بالفكاهة في أيام الحروب وأزمات الشدة ومطالم الاستبداد ، كأنها صرب من التعويض والمقاساة ولا عربة في ذلك حيث سطر إلى منشأ الفكاهة في حميتها ، فهي على أكثرها وليدة المرافعة بين الحالات وليست وليدة الموافقة الموائمة ، وما أكثر المرافقات في حياة المعسرين

ولعنا ببلع مقطع القول في هذه الملاحظة حين نقول : إن المعسر أقدر على التسلية والمعسر أقدر على الفكاهة . وبين التسلية والفكاهة فرق غير مجهول رحم الله حالداً . إنه كان جندياً وكفى !

لكنه قد عوض في حابه الواحد عن حوائج عدة في الآخرين ؛ لأنه قد ورق الحديدية في طرارها الأول ، وورق منها وحده ما يكفى عشرة من جنود التاريج المرربين

نهاية من صنع القدر

قضى خالد بقية أيامه بعد عزله في مدينة حمص - زهاء سنوات أربع - لم يفارقها قليلاً إلا ليعود إليها .

وعاش هناك بين أهله وولده وهم كثيرون .

وكأنما كانت للموت ضريبة مقضية على هذا القائد الكبير يطالبه بها في حربه وسلمه حيث كان . فمات من أولاده نحر أربعين في سنة الطاعون .

ولم نر لنا كلمة قلها خالد في موت هؤلاء الأبناء الكثيرين ، وهو الرجل الذي كان التبشير بغلام عنده فرحاً من أكبر أفراح الحياة . فكأنما ألف وجه الموت لطول ما واجهه من قريب . فهو لا يلقاه أبداً لقاء غريب مريب ..

وتعقب الموت أبناءه الذين بقوا بعد الطاعون وأشهرهم المهاجر من حزب علي وعبد الرحمن من حزب معاوية . . فمات المهاجر في صفين ومات عبد الرحمن مسموماً على ما قيل ؛ لأنه رشح للخلافة قبل أن يرشح يزيد بن معاوية لولاية العهد . فسقاه معاوية السم على يد الطبيب ابن أنال . .

وما هي إلا فترة حتى انقرضت ذرية هذا القائد الكبير - صاحب الموت والقدر - فورث دورهم بالمدينة أحد أبناء أخيه .

وانتهدت حياة خالد عليه السلام نهايتها العجيبة ، بين سنة إحدى وعشرين واثنين وعشرين .

والنهاية العجيبة لحياة مثله أن يموت على فراشه - كما قال - بعد أن شهد نيافاً وخمسين زحفاً في نجد والحجاز والعراق والشام ، ولم يبق في جسمه مصح من كثرة الجراح .

وليس هذا كل ما في موته من «غير المألوف» أو غير المنظور ، فإنه مات ولم يجاوز الخامسة والخمسين على أرجح تقدير . وليست هي بالسن التي تنتهي بها الحياة بغير مرض شديد ، فإن كان قد ألم به مرض عارض غير مميت في جملة أطواره

فلعله قد أتم ما بدأه الحزن على الأبناء ، والفطور من الراحة ، وذلك الاضطراب الذي كان يفزره في نومه ويشتتعه منه لونه إذا غضب أو ثار .

ولم يوجد في بيته عند موته غير فرسه وعلامة وسلاح وقفه للجهاد في سبيل الله . فلما بلغ ذلك عمر قال : رحم الله أبا سليمان كان علي غير ما ظنناه به . . . ونكس مراراً وهو يسترجع كلما رفع رأسه ، ثم قال : كان والله سداً للنحور العدو ميمون النقية .

وقد كان حزن عمر عليه حزن قريب وحزن مسلم وحزن خليفة . قال لأمه : عزمت عليك ألا تبتي حتى تسودي يديك من الحناب .

واجتمع بنات عمه يبكين فقيل لعمر : « أرسل إليهن فانهن . فقال دعهن يبكين على أبي سليمان ما لم يكن نفع أو لقلقة . على مثل أبي سليمان تبكي البواكي » .

ولما سئل عمر أن يعهد بعد موته قال : لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح ثم وليته ثم قدمت على ربي فقال لي : لم استخلفتك على أمة محمد؟ قلت : سمعت عبدك وخليتك يقول : لكل أمة أمين وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح ، ولو أدركت خالداً ثم وليته ثم قدمت على ربي فقال لي : من استخلفت على أمة محمد؟ قلت : سمعت عبدك وخليتك يقول لخالد : سيف من سيوف الله سله الله على المشركين . . .

ولعمرى ، إن « سيف الله » قد استحق هذه الترقية وهو في الغمد كما استحقها وهو مشهور .

فليست سنوات العزلة بأخف السنوات وزناً في سيرة خالد بن الوليد .

إن الحوادث قد وعظته بها فاتعظ في صبر وأناة . فلم يغلبه لسانه ولم يغلبه هواه ، ولم يتحرك لكيد ولا لشغب ولا للذمة ولا لوقعة ، ولو شاء بعض ذلك لكان له مطمع فيه ، وهو الرجل الذي طبقت شهرته آفاق المسلمين وغير المسلمين .

نعم ، إنه لا فتنة وابن الخطاب حي كما قال ، وإن الفتنة إنما تخشى « إذا كان الناس بذى بلى » أو في معرض الفرقة والنزاع وعصيان الأئمة أو انقطاع الإمام .

ولكن إدراك هذا وحده مفخرة من المفخر ، وليس كل إدراك كهذا الإدراك بالذي يغلب الهوى ويقمع النزوات .

فلا جرم يرشح الفاروق خالداً للخلافة كما رشح لها أبا عبيدة ، ولا جرم يعرف سيف الله في الغمد كما عرفه وهو في بين البطل الجسور . فإن يكن خالد منخشي المزاحمة على الخلافة في ظن من الظنون فليس هو بمنخشي عليها وقد وصلت إليه معهوداً إليه خالصة من الزحام ، وقد استحقها بعد أكبر مستحقها وريض لها سنوات تجرد فيها من سورة الشباب وبعد ما بينه وبين نشأة الجاهلية ، وقرب ما بينه وبين الله .

لقد مات - نصير الموت - مطمئناً إلى نهاية حياته ، لا يكره منها إلا أنها انتهت به على فراشه .

ولكننا - أبناء آدم - نكره كثيراً ما يكون من حقنا أن نتمناه . وما كان لخالد أمنية قد بقيت له في ميدان الكفاح يتمناها . لقد عرفه الناس حق عرفانه وهو الكريم الشجاع ، ولم يبق له إلا أن يعرفوه في ميدان العزلة وهو الشجاع الصبور . . . وقد عرفوه على هذه الصفة في ميدان حمص - ميدان السلم والتسليم - خير عرفان وأجدره بماضيه العظيم وتاريخه الخالد القيم .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
١ - البادية والحرب	٣
٢ - قريش ومخزوم	١١
٣ - نشأة خالد	١٩
٤ - إسلامه	٢٨
٥ - مع النبي	٣٩
٦ - حروب الردة	٦١
٧ - الفتوح	٩٠
٨ - العزل	١٢٣
٩ - عبقريته الحربية	١٣١
١٠ - مفتاح شخصيته	١٣٩
١١ - نهاية من صنع القدر	١٤٧